

الإمام

عبد الوهاب الشعراني وتصوفه

تأليف

دكتورة / كوكب عامر

أستاذ بقسم الفلسفة

كلية البنات - جامعة عين شمس



الناشر

مكتبة الشريعة الإسلامية



مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة

البريد الإلكتروني:

Alsakafa_aldinaya@hotmail.com

هاتف : +2025922620

فاكس: +2025936277

فهرست الهيئة المصرية العامة

لدار الكتب والوثائق القومية:

الامام عبد الوهاب الشعراني وتصوفه

تأليف: د/ كوكب عامر

1- المتصوفون المصريون

2- الشعراني ، عبد الوهاب احمد بن على الحنفى ، 1493-1565

١- العنوان

رقم الإيداع: 2019/8915

الترقيم الدولي: 7-743-341-977-978

الإمام عبد الوهاب الشعراني وتصوفه

تأليف
دكتورة/ كوكب عامر
أستاذ بقسم الفلسفة
كلية البنات - جامعة عين شمس

شكر وتقدير

أتقدم بالشكر والعرفان بالجميل لأستاذتي الفاضلة الدكتورة/ فوقية حسين محمود أستاذة الفلسفة الإسلامية بكلية البنات جامعة عين شمس؛ لتفضلها بالإشراف على الرسالة وتوجيهاتها الرشيدة التي كان لها أكبر الأثر في تكويني وصقلي علميًا، فقد كانت لي خير مرشد ومعين، كما أشكر سيادتها أيضًا على اهتمامها بتقديم الكتب والمراجع من مكتبتها الخاصة.

وأتقدم بالشكر أيضًا لجميع من ساهموا بجهودهم معي لإتمام هذه الرسالة معترفة بجميلهم، وأشكر جميع العاملين بمكتبة الجامع الأزهر الشريف الذين تفضلوا ووضعوا بين يدي جميع نسخ مصنفات الشعراني الخطي منها والمطبوع، كما أتقدم بالشكر للسادة الآباء الدومينكان بمعهد الدراسات الشرقية للآباء الدومينكان الذين قدموا ما احتجت إليه من مراجع عديدة تزرع بها مكتبتهم كما كان للقائمين بالعمل على المخطوطات بمكتبة دار الكتب المصرية أكبر الأثر في إتمام هذا العمل.

وكذلك القائمين بالعمل بقسم إحياء التراث بجامعة الدول العربية، جزاهم الله خير جزاء على ما قدموا لي من عمل.

ويسعدني أخيرًا أن أتقدم بالشكر لكل من فضيلة الشيخ الأستاذ/ عبد الرحمن بيسار وكيل الأزهر الشريف.

والأستاذ الدكتور/ أبو الوفا الغنيمي التفتازاني أستاذ التصوف بكلية الآداب جامعة القاهرة؛ لتفضلهما بقبول المشاركة في مناقشة هذه الرسالة، فهذا موقف يضاف إلى مواقفهم العديدة لخدمة العلم وطلابه من جميع الجهات.

وإنه لشرف لي أن أضع بحثي هذا بين أيديهما راجية أن يحوز قبولهما.

والله الموفق وهو المعين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَةٌ

يسعدني أن أقدم بحثي هذا عن الإمام الشعراني وتصوفه إلى المهتمين بالفكر الإسلامي عامة، والجانب الصوفي منه خاصة.

وقد اخترت الإمام الشعراني وتصوفه لموضوع رسالة الماجستير؛ كي يمكنني أن أساهم في أن يقف المهتمون بالفكر الإسلامي على جانب هام من جوانبه ألا وهو الجانب الصوفي الذي لا زال في حاجة كبيرة إلى جهود الباحثين، ولإبراز عالمًا من أعلام التصوف الإسلامي في مصر في القرن العاشر الهجري، السادي عشر الميلادي، فقد كان لشخصية الشعراني الصوفية خطرهما في التصوف المصري، بل وفي الفقه وأصول الفقه وغيرها من العلوم المختلفة التي عرفها عصره. وكان أديبًا بارعًا ولغويًا عظيمًا، وقد تربع على عرش التصوف في مصر وصار إمامًا من أئمة التصوف، وفقيرًا عريقًا، وأحد أعلام المدرسة الشاذلية في مصر.

كما كان الشعراني مصلحًا اجتماعيًا، نال حب الشعب واحترام الحكام، وذاع صيته وانتشرت مؤلفاته في مختلف البلاد الإسلامي كمصر والحجاز وتركيا وإيران والمغرب والجزائر وبلاد أوروبا والهند. وقد ترجم بعضها إلى اللغة التركية والفرنسية.

ويُعَدُّ عبد الوهاب الشعراني مثلاً بارزًا من أمثلة التصوف المصري الذي التزم بالكتاب والسنة وخلق من النظريات الفلسفية والشطحات الصوفية.

وقد كانت مصادرنا عن الشعراني ما كتبه عن نفسه أولاً، وقد أفاض الحديث عن سيرته ومصنفاته، وأساتذته، وتصوفه، وزاويته، ومجالسه العلمية، وجميع دقائق حياته حديثاً مستفيضاً في كتابه: "لطائف المنن والأخلاق"، كما اعتمدنا في استخلاص آرائه في التصوف العملي والنظري من كتبه العديدة في التصوف.

ولا شك أن ما كتبه الشعراني عن نفسه أعطانا مادة غزيرة، وهذا في حد ذاته شكل صعوبة إلى حد ما، فإن صوفينا شخصية غنية خصبة مما جعلني أقف على تفصيلات كثيرة حاولت أن أستخلص منها ما يجعل القارئ ملماً بها جميعاً - ولكن بشكل مختصر - فاستخلصت زبدة ما كتب عن نفسه وتصوفه وآرائه في التصوف حتى لا نهمل جانباً من جوانب سيرته وتصوفه.

وقد كان من جملة ما هدف إليه الشعراني من وراء تأليف كتاب "لطائف المنن والأخلاق" كما يقول: (استغناء من يريد من إخواني أن يذكر شيئاً من مناقبي في الفحص عنها والتتبع لها، وربما زاد فيها أو نقص منها كما يقع فيه من يجمع مناقب العلماء والصالحين، ثم بتقدير صدقه فيما يذكره بواسطة أحد من الثقات فهو لا يبلغ إلى مرتبة ما يذكره الإنسان عن نفسه إذا كان صادقاً)^(١).

وهناك صعوبة أخرى قد واجهتني وهي أن أغلب مصنفات الشعراني لم تحقق تحقيقاً علمياً، بل طبعت عدة مرات طبعات تجارية مما جعلني أحرص على الرجوع إلى النسخ الخطية.

وإلى جانب ما كتبه الشعراني عن نفسه، نجد ما كتبه عنه تلميذه عبد الرؤوف المناوي في الطبقات الصغرى المسماة بـ "الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية"، وقد تناول المناوي فيها سيرة أستاذه وشيخه عبد الوهاب الشعراني بطريقة علمية لا تخلو من تقدير التلميذ لأستاذه ولم يزد على ما وجدناه عند شيخه الشعراني من معلومات وأحداث إلا فيما يتعلق بوفاته وجنازته.

ثم هناك ما كتبه الورع الفقيه الأديب أبو الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي المتوفي سنة ١٠٨٩ هـ عن الشعراني في كتابه "شذرات الذهب في أخبار من ذهب" وقد نقل ما كتبه عن الشعراني من ترجمة المناوي له في "الكواكب الدرية" ولم يزد عليه.

أما ما كتبه محيي الدين أبو الأنس المليجي، وهو من أحفاد الشعراني ومن علماء القرن الثاني عشر الهجري في "تذكرة أولي الألباب في مناقب سيدي عبد الوهاب"

فكان أكثر وأشمل، وهو وإن كان ناقلاً عن المصادر السابقة عليه، غير أنه أول من وجدنا عنده معلومات مفصلة عن زاوية الشعراني وأصل نشأتها، كما أفاض في الحديث عن مصنفات الشعراني ومرضه ووفاته وجنازته.

وأما المصادر الحديثة فهي أيضاً ناقلة عن المصادر القديمة ولكنها تميزت بالتحليل ولم يكتف أصحابها بمجرد عرض الحقائق كما كان الحال في المصادر القديمة بل إنهم وضعوها في إطار البحث العلمي القائم على تمحيص النصوص واستقراءها للتدليل على الحقائق.

ومن المصادر الحديثة التي اعتمدنا عليه ما كتبه علي مبارك في (الخطط التوفيقية) وقد أعطانا معلومات غزيرة عن نشأة الشعراني الأولى ومجاهدته لنفسه ومصنفاته ووصف الحياة داخل زاويته.

وما كتبه الأستاذ الدكتور توفيق الطويل في كتابه: "الشعراني إمام التصوف في عصره"، والذي ركز فيه على بيئة الشعراني العامة، وظروف العصر الذي نشأ فيه، وسيرته وحياته صوفياً، وكان له تعقيب طريف في نهاية الكتاب على مصنفات الشعراني وتحليل لشخصيته من الناحية السيكولوجية.

وهناك ما كتبه الأستاذ عبد الباقي سرور في مؤلفه: "التصوف الإسلامي والإمام الشعراني" متناولاً سيرته ومدرسته وتصوفه، كما أنه أفاض في الكلام عن خصومه، وقد أبرز الشعراني كزعيمًا شعبيًا.

ولم تقتصر دراسة الإمام الشعراني على العرب، وإنما كان محل دراسة من المستشرقين أيضاً، كتب عنه نيكلسون وشاخت وفون كريمر وغيرهم، كما دون له بروكلمان الكثير من كتبه.

وقد حرصت في دراستي للإمام الشعراني على إبراز معالم سيرته الأساسية، وتبين حقيقة أصله، وهل هو من أصل عربي أو أن أحد والديه غير عربي، كما أظهرت مكانته في الحركة الصوفية في عصره وأثره في الحياة الاجتماعية والدينية، ثم إبراز آراءه في التصوف الإسلامي بجانبه العملي والنظري.

وقد قسمت البحث إلى بابين رئيسيين وخاتمة.

أما الباب الأول: فيحتوي على فصلين:

الفصل الأول: سيرة الإمام الشعراني.

وقد تناولت فيه اسمه وكنيته ونسبته وتاريخ مولده وبيئته الخاصة والعامة.

ثم شرحت بالتفصيل أطوار حياته منذ نشأته الأولى وحتى وفاته، وبينت موضع قدره ووصف جنازته، ثم ذكرت مكانته في المجتمع الذي عاش فيه وما ترك لنا من آثار في الحياة الاجتماعية والدينية.

وفي الفصل الثاني: عرضت بالتفصيل والتحليل والنقد لمصنفاته وبينت مدى تعدد هذه المصنفات وتنوعها وشمولها لشتى المجالات.

وهذا جعلني أختتم المصنفات بكلمة أجمع فيها تقييم الكتاب العرب والأجانب لمؤلفات الإمام الشعراني.

أما الباب الثاني: فهو يتضمن آراء الإمام في التصوف، فقد احتوى على خمسة فصول وخاتمة:

الفصل الأول: تناولت فيه النفس الإنسانية، موضحة العلاقة بينهما وبين البدن في نظر الشعراني، ثم بينت مدى اهتمامه بها.

وفي الفصل الثاني: تناولنا بالتفصيل مجاهدة النفس عنده، مبينين معنى المجاهدة ثم العبادات وأثرها في مجاهدة النفس وضرورة إشراف الشيخ على المريد في المجاهدة، ثم رياضة النفس واصطناع العزلة والخلوة وغيرها من الرياضات العملية كالصوم والسهر والصمت والذكر والسماع.

الفصل الثالث: وعنوانه: المقامات والأحوال: فقد تناولت فيه بالدراسة ماهية المقامات والأحوال، ثم التدرج في هذه المقامات حتى يصل المرء من أول المقامات وهو التوبة إلى آخر المقامات في نظره وهو مقام الاتصال، عارضين بالشرح والتحليل للمقامات التي توسطت هذين المقامين وهي: مقام الورع، الزهد، المراقبة، الصدق، التوكل، الإخلاص، المحبة، الإحسان، التجريد.

وبعد عرضنا لهذه المقامات بالتحليل والنقد، بينا مدارج الأحوال عنده، وكيف ابتداءً بواردات الأحوال، ثم ذكرنا أول حال عنده وهو حال القرب ثم حال اليقين، ثم وضعنا كلا من الفناء والبقاء.

وفي الفصل الرابع: تناولنا بالدراسة نظرية المعرفة عنده، فوضحت حد المعرفة لديه وموضوعها، ثم بينت وسائلها ومناهجها والهدف منها وما موقفه من السالكين والمجذوبين.

وفي الفصل الخامس: كان الكلام عن الله والعالم والإنسان عنده، فبيننا كلامه عن علاقة الله بالعالم ومدى عناية الله بهذا العالم، ومدى فاعليته فيه، ثم علاقة الله بالإنسان، وكيف أنها علاقة خالق ومخلوق، وفرقت بين وجود الله ووجود الإنسان عند الإمام. وقد ذيلت الباب الثاني بخاتمة تضمنت أهم النتائج التي توصلنا إليها خلال دراستي للشعراني منذ مولده، حتى وفاته مارين بجميع مراحل حياته.

ونرجو من الله تعالى أن أكون قد وفقت في دراستي وبحثي عن الإمام الشعراني، وأن أكون قد التزمت بالموضوعية العلمية التي سرت عليها منذ أول البحث. والله الموفق، وهو المعين.

الباب الأول

سيرة الشعراني ومصنفاته

الفصل الأول: سيرة الشعراني

- ١- اسمه.
- ٢- كنيته ونسبته.
- ٣- تاريخ مولده.
- ٤- مكان مولده.
- ٥- بيئته الخاصة.
- ٦- بيئته العامة.
- أ- أحوال مصر في ظل حكم المماليك.
- ب- مصر تحت الحكم العثماني.
- ٧- أطوار حياة الشعراني:
 - أ- النشأة الأولى.
 - ب- الطور الثاني:
- ١- انتقال الشعراني إلى القاهرة وإقامته بجامع الغمري.
- ٢- تلقيه العلم وثقافته.
- ٣- مجاهدة نفسه بغير شيخ.
- ٤- مشايخه.
- ٥- سلوك الشعراني الطريق على يد الخواص.
- ٦- خصائص تصوف الشعراني.

ج- الطور الثالث:

- ١- الشعراني في مدرسة أم خوند.
- ٢- علاقة الشعراني بالحكام.
- د- الطور الرابع والأخير من حياة الشعراني:
 - ١- الشعراني في زاويته.
 - ٢- الحياة في زاوية الشعراني.
 - ٣- خصوم الشعراني.
 - ٤- وفاته.
 - ٥- جنازته.
 - ٦- قبره.
- ٨- حال الزاوية من بعده (بيت الإمام الشعراني وجمعيته).
- ٩- أثر الشعراني في الحياة الاجتماعية والدينية.
- ١٠ - مكانته.

الفصل الأول

سيرة الشعراني

اسمه:

يذكر الشعراني في كتابه: "لطائف المنن" اسمه فيقول: أنه عبد الوهاب بن أحمد بن علي بن أحمد بن علي بن محمد بن زوفا بن الشيخ موسى المكنى في بلاد البهنسا بأبي العمران. ويقول: جدي السادس ابن السلطان^(١) أحمد ابن السلطان سعيد ابن السلطان قاشين ابن السلطان محيا ابن السلطان زوفا ابن السلطان ريان ابن السلطان محمد بن موسى..... ابن السيد محمد ابن الحنفية بن الإمام علي بن أبي طالب^(٢). ويشير الشعراني إلى أن هناك اسمين مطموسين من أسماء أجداده لا يعرفهما ويأتیان قبل اسم السيد محمد^(٣).

وكان من الممكن الاكتفاء بما ذكره الشعراني عن اسمه ولكن مما لا يمكن إغفاله أن هناك عدد كبير من المصنفين تناولوا الشعراني وذكروا اسمه وقد ذكر بعضهم الاسم كاملاً والبعض الآخر اكتفى بذكر الاسم ثلاثياً أو رباعياً، وممن ذكروا اسم صوفينا كاملاً صاحب^(٤) المناقب الكبرى الذي قال: أن اسمه هو عبد الوهاب الشافعي الشعراني الأشعري الشاذلي الشناوي الأحمدي الوفائي العلوي الأنصاري الصوفي القرشي بن الشيخ أحمد بن الشيخ علي بن الشيخ أحمد بن الشيخ محمد بن موسى بن السلطان أحمد بتلمسان الغرب بن السلطان سعيد بن السلطان قاشين بن السلطان محيي

(١) كان أجداد الشعراني من قبيلة بني زغلة في المغرب في مدينة بتلمسان وكانوا من السلاطين، والحكام كما سيأتي ذكره عند الحديث عن بيئته الخاصة.

(٢) لطائف المنن: ج ١، ص ٣٣.

(٣) نفس المرجع السابق.

(٤) وهو محيي الدين محمد المليجي الشافعي بن عليا "أوائل القرن الثاني عشر الهجري ومن أحفاد الشعراني.

ابن السلطان زوفا بن السلطان ريان بن السلطان محمد بن السيد موسى بن السيد محمد ابن الحنفية بن الإمام علي بن أبي طالب بن عبد المطلب جد النبي^(١).

أما صاحب الخطط التوفيقية فقد قال: أن اسمه عبد الوهاب بن أحمد بن علي بن أحمد بن محمد بن زوفا - بفتح الزاي المعجمة - ابن موسى بن السلطان أحمد بمدينة تلمسان - في عصر الشيخ أبي مدين - ابن السلطان سعيد بن السلطان قاشين بن السلطان محيي بن السلطان زوفا بن السلطان ريان بن السلطان محمد بن السلطان موسى^(٢).

كما ذكر صاحب الخطط التوفيقية أن هناك ثلاثة أسماء مطموسة من أسماء أجداد الشعراني وتأتي بعد اسم موسى بينه وبين السيد محمد ابن الحنفية، ويقول: إنه نقل ذلك من خط الشعراني في كتابه "الطبقات" في حين أن الشعراني في كتابه "لطائف المنن" كما سبق ذكره يشير إلى أن هناك اسمين مطموسين فقط وليس ثلاثة ويأتيان قبل اسم السيد محمد.

ومن الجدير بالذكر أنه بعد البحث في كتب الطبقات للشعراني الكبرى والوسطى والصغرى المخطوط منها والمطبوع لم أهدأ إلى ما ذكره صاحب الخطط التوفيقية عن اسم الشعراني.

وقد ذكر اسم الشعراني مراجع عديدة^(٣) غير ذلك ولكنها اقتصررت على ذكر الاسم ثلاثياً أو رباعياً فقط دون الاهتمام بذكر أسماء الأجداد وقد اتفقت جميعها على أن

(١) المناقب الكبرى: ص ٣٨.

(٢) الخطط التوفيقية الجديد: علي مبارك، ج ١٤، ص ١٠٨.

(٣) انظر: جامع الكرامات العلية في طبقات السادة الشاذلية، الحسن الكوهن، طبعة أولى، المطبعة العلامة سنة ١٣٤٧هـ، ص ١٣٨. الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية: عبد الرؤوف المناوي، نسخة خطية بدار الكتب المصرية، رقم ٢٥٩ تاريخ، والجزء الخاص بترجمة الشعراني في النسخ المطبوعة، ج ٢. شذرات الذهب في أخبار من ذهب: ابن العماد الحنبلي المتوفى سنة ١٠٨٩هـ، مكتبة القدسي، سنة ١٣٥١هـ، تحقيق إبراهيم عطوه عوض، ج ٢، مطبعة الباب الحلبي، الطبعة الأولى، سنة ١٣٨١هـ / ١٩٦٢م، ص ٢٧٤. تاريخ آداب اللغة العربية: جورج زيدان، ج ٣، مطبعة الهلال، ص ٣٣٥، الأعلام للزركلي، ج ٤، طبعة ثانية، ص ٣٣١. كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون:

اسمه عبد الوهاب بن أحمد بن علي بن أحمد بن محمد وأنه يرجع نسبه إلى السيد محمد ابن الحنفية.

كنيته ونسبه:

ذكرت المراجع أن الشعراني يُكنى بأبي المواهب^(١)، وانفرد صاحب المناقب الكبرى بذكر كنية ثانية إلى جانب الكنية السابقة وهي "أبو الفتوحات"^(٢) كما انفردت

=

حاجي خليه، طبع وكالة المعارف، سنة ١٣٤٣هـ / ١٩٦٢م، فهرس الفهارس: محمد الحسني الإدريسي الكتاني، ص ٤٠٥ - هدية العارفين / إسماعيل البغدادي، المجلد الأول، التصوف الإسلامي في الآداب والأخلاق: د. زكي مبارك، القاهرة، سنة ١٩٥٧، ج ٢. التصوف الإسلامي والإمام الشعراني: الأستاذ عبد الباقي سرور، الطبعة الثانية، نهضة مصر، سنة ١٣٧٢هـ / ١٩٥٢م، ص ١٧.

ملحوظة: يجب ألا نخلط بين عبد الوهاب الشعراني وبين غيره ممن تسموا بهذا الاسم مثل أبو محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن الرازي الشعراني وهو رازي الأصل ولد ونشأ بنيسابور وهو من أجل مشايخنا في عصره وكان عالم من علوم الطائفة وكتب الحديث كيرا ورواه ولا ندرى إذا كان هذا الاتفاق في النسبة يرجع إلى قرابة بين الرجلين أم إنه نسب آخر.

(١) انظر: جامع الكرامات العلية في طبقات السادة الشاذلية: الحسن الكوهن، طبعة أولى، سنة ١٣٤٧هـ، المطبعة العلامة، ص ١٣٨. الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية: عبد الرؤوف المناوي، نسخة خطية بدار الكتب المصرية، ٢٥٩ تاريخ، ج ٢. كرامات الأولياء: يوسف بن إسماعيل البناي، تحقيق إبراهيم عوض، ج ٢، القاهرة، سنة ١٣٨١هـ / ١٩٦٢م، ص ٣٧٤. شذرات الذهب في أخبار من ذهب: ابن العماد، مكتبة القدسي، القاهرة، ج ٨، ص ٢٧٢. هدية العارفين / إسماعيل باشا البغدادي، طبع إسطنبول، سنة ١٩٥١م، المجلد الأول، تذكرة أولي الألباب في مناقب سيدي عبد الوهاب: محمد محيي الدين أبي الأنس المليجي، مطبعة أمين عبد الرحمن، سنة ١٣٥٠هـ، ص ٣٨، الخطط التوفيقية، علي مبارك، المطبعة الأميرية ببولاق، سنة ١٣٠٥هـ، ج ١٤، ص ١٠٨، النور المسافر في أخبار القرن العاشر: محيي الدين عبد الباقي، المكتبة العربية، بغداد، سنة ١٩٣٤م، الإعلام: للزركلي، ج ٤، الطبعة الثانية، ص ٣٣١. إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون: إسماعيل باشا البغدادي، مطبعة المعارف بمصر، سنة ١٣٦٤هـ / ١٩٤٥م. التصوف الإسلامي في الآداب والأخلاق: د. زكي مبارك، مطبعة الاعتماد بمصر، ج ٢، سنة ١٣٣٨هـ / ١٩٥٧م. فهرس الفهارس: محمد الحسني الإدريسي الكتاني، ص ٤٠٥، الشعراني أمام التصوف في عصره: د. توفيق الطويل، ص ٢، الشعراني والتصوف الإسلامي: الأستاذ طه عبد الباقي سرور، مكتبة الخانجي

دائرة المعارف الإسلامية بذكر كنية ثالثة إلى جانب الكنية الأولى والثانية وتلك الكنية هي "أبو عبد الرحمن"^(٢).

وبذلك نجد أن للشعراني كنى ثلاث هي: "أبو المواهب"، وهي أشهرها جميعاً، و"أبو الفتوحات"، و"أبو عبد الرحمن".

وربما ترجع كنية الشعراني "بأبي المواهب" إلى كثرة مصنفاته في العلوم اللادنية الذوقية.

أما كنية "أبو الفتوحات" فربما ترجع كذلك إلى كثرة ما كان يفتح الله به على الشعراني من المعرفة الذوقية الشهودية.

أما كنيته "أبو عبد الرحمن" فإنها ترجع إلى ولده عبد الرحمن وهو ابنه الأكبر. هذا عن كنيته، فإذا ما انتقلنا إلى نسبه نجد أن الشعراني بالنون أو الشعراوي بالواو وهو نسبه إلى قرية ساقية أبي شعرة وهي إحدى قرى إقليم المنوفية وتلك القرية بلدة أبيه ولذلك انتسب إليها وسُمي الشعراني أو الشعراوي، وهي تقع على نهر النيل فرع رشيد بجوار قرية ستريس الواقعة على الطريق الزراعي الذي يصل بين القاهرة وشبين الكوم حالياً والتي كانت تُسمى في خريطة التقسيم الإقليمي للوجه البحري سنة ٧٧٧هـ / ١٣٧٥م "بمنيل أبي شعرة" ثم عدل اسمها بعد ذلك فظهرت على خريطة التقسيم الجغرافي للوجه البحري سنة ١٢١٣هـ/ ١٧٩٨م بساقية أبي شعر، وظل هذا الاسم يطلق على القرية حتى وقتنا هذا^(٣).

=

بالقاهرة، سنة ١٣٧٢هـ / ١٩٥٢م، الطبعة الثانية، ص ١٧. تاريخ آداب اللغة العربية: جورج زيدان، ج٣، مطبعة الهلال، ١٩٣١م، ص ٣٣٥، دائرة المعارف الإسلامية مادة شعراني، شاخت، ج ٤، سنة ١٩٣٤هـ، ص ٣١٨.

- (١) المناقب الكبرى: محمد محيي الدين أبو الأنس المليجي، طبع مصر، سنة ١٣٥٠هـ، ص ٣٨.
- (٢) انظر مادة شعراني: ٣١٨، p. ١٩٣٤، The Encyclopedia of Islam Volume IV.
- (٣) انظر: الأطلس التاريخي لأسفل الأرض عن كتاب جغرافية مصر: تأليف الأمير عمر طوسون وخرائط التقسيم الجغرافي للوجه البحري، لوحة رقم ٧ لعام ٧٧٧هـ/ ١٣٧٥م، ولوحة رقم ٨ لعام ١٢١٣هـ/ ١٧٩٠م، ولوحة رقم ٩ لعام ١٢٢٨هـ/ ١٨١٣م، ولوحة رقم ١٠ لعام ١٣٥٣هـ/ ١٩٣١م.

والنسبة صحيحة في كل من الشعراني أو الشعراوي، أما النسبة بالواو في قول الشعراوي فعلى القياس من إبدال الهمزة واو في النسب كما يقال في النسبة إلى الصفراء أو السوداء الصفراوي أو السوداوي، أما النسبة بالنون فزيادة النون في النسب كما قالوا: الرازي نسبة إلى الري والنواوي بزيادة الواو، والنون والواو زائدة - والزيادة كثيراً ما تدخل النسب وبحال القياس الشعري تحذف الهاء كما قالوا: التمرى نسبة إلى تمره والسدري نسبة إلى سدريه.

تاريخ مولده:

اختلفت الروايات حول تاريخ مولد الشعراني خاصة وأنه لم يذكر السنة التي وُلِدَ فيها بشكل محدد فقد قال: إنه جاء إلى مصر في افتتاح سنة إحدى عشر وتسعمائة وكان عمره إذ ذاك اثنتي عشرة سنة^(١)، فإذا كان الأمر كذلك فإن هذا يعني أن الشعراني قد وُلِدَ سنة ٨٩٨هـ/١٤٩٠م على وجه التقريب.

يقول الشعراني في نص آخر: وكان ذهني بحمد الله سيالاً لا يسمع شيئاً وينساه، ولم أزل كذلك حتى ترادفت عليّ الهموم لما بلغت في السن إلى نحو خمس وعشرين سنة وذلك نحو ثلاث وعشرين من القرن العاشر^(٢).

ومن ذلك النص أيضاً يمكن استنتاج أن الشعراني وُلِدَ في عام ٨٩٨هـ/١٤٩٠م. ومما يؤكد ذلك ما ذكره عبد الرؤوف المناوي تلميذ الشعراني المباشر من أنه وُلِدَ في السابع والعشرين من شهر رمضان عام ٨٩٨هـ^(٣). وقد اتفق هذا التاريخ لمولد الشعراني مع رواية علي مبارك وهو من أدق مؤرخي هذه الفترة من التاريخ^(٤).

(١) لطائف المنن: ج ١، ص ٤٢.

(٢) المرجع السابق: ج ١، ص ٨٠.

(٣) التصوف الإسلامي والإمام الشعراني: طه عبد الباقي سرور، الطبعة الثانية، ص ٢٠.

وجدير بالذكر أن بعد إطلاعنا على ترجمة المناوي لأستاذه الشعراني في أكثر من مخطوطة لم نقع على تاريخ مولده، كما ذكره الدكتور سرور، وقد اكتفى المناوي بقوله ولد ببلدته ونشأ بها - انظر: طبقات المناوي الصغرى مخطوطة بدار الكتب المصرية، رقم ٢٥٩ تاريخ.

(٤) الخطط التوفيقية الجديدة: طبعة أولى، ج ١٤، ص ١٠٩.

كما اتفق على هذا التاريخ أيضًا جميع الكتاب المعاصرين^(١).

أما صاحب المناقب الكبرى^(٢) فقد حدد عام ٨٩٩هـ/١٤٩١م لمولد الشعراني، ولكننا لم نقع على ما يؤيد كلامه، لهذا لم نتجه إلى الأخذ به، وإذا كان الأمر كذلك فإنه يمكننا القول أن الشعراني وُلِدَ في التاريخ الذي انتهينا إليه أعلاه وهو عام ٨٩٨هـ/١٤٩٠م.

مكان مولده:

اتفقت المصادر^(٣) على أن الشعراني وُلِدَ في قلقشندة^(٤) وهي إحدى قرى إقليم القليوبية وهي قرية جده لأمه، ظل بها مع والدته بعد مولده فيها مدة أربعين يوماً ثم انتقل بعد ذلك إلى بلدة أبيه وهي ساقية أبي شعرة التي إليها انتسب.

(١) انظر: الشعراني إمام التصوف في عصره، د. توفيق الطويل، ص ٣، الشعراني والتصوف الإسلامي، عبد الباقي سرور، الطبعة الثانية، ص ٣٠.

(٢) المناقب الكبرى: محيي الدين أبو الأنس المليجي، ص ٣٨.

(٣) جامع الكرامات العلية في طبقات السادة الشاذلية: الحسن الكوهن، طبعة أولى، ١٣٤٧هـ، ص ٢٣٨. شذرات الذهب في أخبار من ذهب: أبي الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي المتوفى سنة ١٠٨٩هـ، مكتبة القدسي، القاهرة، ج ٨، ص ٢٧٢. هدية العارفين / إسماعيل باشا البغدادي، طبع إسطنبول، سنة ١٩٥١م، الخطط التوفيقية الجديدة: علي مبارك، طبعة أولى، ج ١٤، ص ١٠٩.

(٤) قلقشندة: هي إحدى قرى مركز قليوب محافظة القليوبية، تقع قبلي ترعة كوم تبين بنحو ألف متر وفي شرق أجهور الكبرى بنحو ٢٥٠٠ متر وغرب شبرا هارس بنحو ثلاثة آلاف متر - انظر الخطط التوفيقية: علي مبارك، طبعة أولى، ج ١٤، ص ١٠٩ - ومن دراسة خريطة للتقسيم الجغرافي للوجه البحري، سنة ٧٧٧هـ/١٣٧٥م، ظهرت على خريطة باسم "قرقشندة"، وليس قلقشندة ثم تغير اسمها إلى قلقشندة في خريطة للتقسيم الجغرافي للوجه البحري ١٢١٣هـ/١٧٩٨م وقد هذا الاسم قلقشندة يطلق على القرية حتى الآن، انظر الأطلس التاريخي لأسفل الأرض عن كتاب جغرافية مصر تأليف الأمير عمر طوسون خريطة للتقسيم الجغرافي للوجه البحري، لوحة رقم ٧ لعام ٧٧٧هـ/١٢٧٥م، لوحة رقم ٨ لعام ١٢١٣هـ/١٧٩٨م، ولوحة رقم ٩ لعام ١٢٢٨هـ/١٨١٣م، ولوحة رقم ١٠ لعام ١٣٥٣هـ/١٩٣١م.

بيئته الخاصة:

نسبه وأسرته:

ينتمي الشعراني كما سبق أن ذكرنا إلى الإمام علي بن أبي طالب فهو من البيت العلوي، وقد اختلف العلويين مع أبناء عموماتهم الأمويين مما أدى إلى التلاحم المستمر بينهم^(١). وليس المقام هنا التعرض لهذه الخلافات الدامية بين البيت العلوي وبين الأمويين، ثم من بعدهم العباسيين، ولكن الذي يهمنا في المقام الأول أن أهل البيت العلوي قد لقوا معاملة قاسية من أبناء عموماتهم، ورغم أن محمد ابن الحنفية جد الشعراني قد بايع خلفاء بني أمية حتى يحققن دماء المسلمين، إلا أن الخلافات قد ازدادت وخاصة في العصر العباسي مما دعا بعضهم إلى الفرار والهجرة إلى بلاد المغرب الإسلامي والاستقرار هناك.

وكانت حياة العلويين الذين هاجروا إلى المغرب أكثر أمناً وسلاماً فقد استقروا وجمعوا شتاتهم وكونوا دويلات صغيرة وقبائل متعددة، وكان من بين تلك القبائل قبيلة بني زغلة وعلى رأسها أبو عبد الله أحمد الزغلي الذي كان حاكماً على مدينة تلمسان وما حولها وإلى هذه القبيلة ينتمي عبد الوهاب الشعراني^(٢).

وكان موسى جد الشعراني ابناً للسلطان أبو عبد الله أحمد الزغلي قد فضل المسير في طريق الصوفية على الحكم، وبعد أن اكتمل في طريق التصوف أمره شيخه أبو مدين التلمساني^(٣) بالهجرة إلى مصر لتربية المريدين بها، فهاجر إلى صعيد مصر وأنجب أولاد كثيرين تفرقوا في قرى الصعيد وكانوا جميعاً من أهل العلم والتصوف^(٤)، وكان

(١) انظر: الفتنة الكبرى، ١ - عثمان: د. طه حسين دار المعارف المصرية، سنة ١٩٤٧ م. - علي وبنوه: د. طه حسين دار المعارف المصرية، سنة ١٩٥٦ م.

(٢) انظر: الطبقات الكبرى للشعراني، ج ٢، ص ١٠٤.

(٣) يقول عنه الشعراني في الطبقات الكبرى، ج ١، ص ١٣٣، إنه من أعيان مشايخ المغرب، وشهرته تغني عن تعريفه واسمه شعيب وهو من كبار صوفية تلمسان بالمغرب في ذلك العصر.

(٤) انظر: ترجمة الشعراني، الشيخ موسى في الطبقات الكبرى، ج ٢، ص ١٩، وترجمة جده علي المرجع السابق، ج ٢٠، وترجمة جد الشعراني المباشر علي بن شهاب، المرجع السابق أيضاً، ص.

من بينهم جد الشعراني المباشر علي بن شهاب الذي ترك الصعيد مهاجراً إلى ساقية أبي شعرة وعاش بها وكان له زاوية ومريدون التفوا من حوله يتلقون منه العلم ويسلكون الطريق على يديه حيث أنه كان صوفيًا وفقيرًا.

أما والد الشعراني فهو شهاب الدين أحمد المتوفى سنة ٩٠٧ هـ قد هاجر مع والده إلى ساقية أبي شعرة وأقام بها، وكَوّن لنفسه أسرة وأنجب من زوجته الأولى إحدى عشر ولداً وبنتاً، ومن زوجته الثانية وهي والدته عبد الوهاب الشعراني ولدين: الابن الأكبر هو عبد القادر الشعراني، والثاني هو عبد الوهاب الشعراني.

وكان لوالد الشعراني الأثر الأكبر في تكوين شخصيته فقد كان له المثل الأعلى والقُدوة الحسنة والراعي الأمين فقد تعلم بالأزهر الشريف وجمع من العلوم ما قوى حجته وأفصح بيانه وأثار عقيدته فصار عالماً من علماء الفقه والتصوف وله الكثير من المؤلفات في الحديث والنحو والأصول وغيرها من العلوم الدينية.

وحرص شهاب الدين والد عبد الوهاب الشعراني على تربيته تربية دينية وتنشئته نشأة صالحة منذ نعومة أظافره فعلمه الصلاة وهو دون الثامنة وحفظه القرآن عن سماع وهو في هذه السن المبكرة، وبث فيه روح الطموح وحب العلم حتى أن الشعراني يروي: أنه وهو في حوالي الثامنة وجد بعض مؤلفات والده فكتب عليها اسمه ونسبها إلى نفسه^(١). وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على مدى ما بلغ ذلك الطفل من الطموح فأراد أن يكون له اسم في مجال العلم والتأليف وهو في هذه السن المبكرة، كما يدل على مدى حبه واهتمامه بالعلوم الدينية^(٢).

(١) الطبقات الكبرى: ج ٥، ص ١٠١.

(٢) اختلفت الروايات عن سن الشعراني عند وفاة والده فجاء في المناقب الكبرى، أبو الأنس المليجي، ص ٣٩، أن الشعراني كان في السادسة أو التاسعة من عمره عند وفاة والده، وجاء في كتاب الشعراني إمام التصوف في عصره، توفيق الطويل، ص ١٦ - ١٧، أن والد الشعراني توفي بعد أن بلغ الشعراني من العمر العاشرة، وذكر في التصوف الإسلامي والإمام الشعراني: عبد الباقي سرور، ص ٢١، طبعة ثانية، أن والد الشعراني توفي هو في التاسعة من عمره.

أما عن والدته عبد الوهاب الشعراني فإنه لم يتيسر لي الوقوع على الكثير عن سيرتها، ما يمكن أن ندلي به عنها أنها كانت من قرية قلقشندة وانتقلت إلى ساقية أبي شعرة بعد زواجها من والد الشعراني، وقد أنجبت منه ولدين عبد القادر وهو الأكبر وعبد الوهاب وهو الأصغر. وإن الموت عجل بها فوافتها المنية قبل موت زوجها حيث كان ابنها عبد الوهاب صغير السن.

ولا أستطيع تحديد سنة وفاتها كما لا يمكننا معرفة كم كان عبد الوهاب الشعراني يبلغ من العمر حينذاك ولكن جاء في "المناقب الكبرى": أن عبد الرحمن بن عبد الوهاب الشعراني قد ذكر في هذا الصدد نصاً يمكن أن نستشف منه أن والدته الشعراني ربما تكون قد توفيت وهو في حوالي الثانية أو الثالثة من عمره، يقول فيه: وأبقى الله تعالى لوالدي في علمه السابق الأزلي والدته التي هي أشفق أقاربه عليه حينذاك إلى سن تميزه الذي هو غاية شدة الحاجة إليها^(١).

وإن كنا لا نستطيع بالتحديد معرفة سن التمييز الذي يعنيه عبد الرحمن الشعراني ونرجح أن تكون والدته قد توفيت وهو في الثانية أو الثالثة من عمره.

وبعد وفاة والدته الشعراني ووالده أصبح يتيم الأبوين فكفله شقيقه الأكبر عبد القادر الشعراني الذي كان متقناً للعلوم الدينية فساعد أخاه عبد الوهاب على دراسة تلك العلوم فدرس معه "أبا شجاع والأجرومية" وظل عبد الوهاب الشعراني تحت رعاية أخيه إلى أن هاجر إلى القاهرة وهو في الثانية عشر من عمره ليكمل تعليمه في الأزهر الشريف الذي كان منارة العلم في مصر حينذاك فأكمل بذلك الرسالة التي لم يمهل القدر والده ليكملها^(٢).

=

والحقيقة أن والد الشعراني توفي في شهر صفر وتسعمائة هجرية ولما كان الشعراني ولد في سنة ٨٩٨ هـ فإننا نستطيع أن نقول بالتحديد أن الشعراني كان يبلغ من العمر ثمانية سنين تقريباً عند وفاة والده.

(١) نقل هذا النص من كتاب المناقب الكبرى: أبو الأنس المليجي، ص ٤٠ لتعذر حصولنا على النص في موضعه الأصلي.

(٢) لطائف المنن والأخلاق: الشعراني، ج ١، ص ٣٢.

ومن هذا العرض لبيئة الشعراني الخاصة يتضح لنا بجلاء أنه وُلِدَ في بيت يتوارث أهله العلم أباً عن جد، وأنه نشأ في بيئة تتسم بالصلاح والتقوى فكان جميع أجداده ووالده من علماء التصوف والفقهاء فتشبع بهذه الروح الدينية.
وكان يطمع في بلوغ منزلة جده المباشر في التصوف^(١).

(١) انظر: الطبقات الكبرى، ج ٢، ص ١٠١.

بيئة الشعراني العامة:

١- أحوال مصر في ظل حكم المماليك:

عاش الشعراني فيما بين عامي ٨٩٨هـ / ١٤٩٠م إلى ٩٧٣هـ / ١٥٦٥م، وقد شب الشعراني ليجد أن نجم دولة المماليك آخذاً في الأفول، فقد شاع في أركان الدولة الاضطراب والفوضى وعز الأمن وفسدت أداة الحكم واستبد السلاطين الذين انفردوا بالسلطة بأفراد الشعب وقامت بين أمرائهم الفتن والمؤامرات وتنافسوا للوصول إلى الحكم فانعدم الاستقرار الداخلي في مصر وساد الفساد جميع أركان الدولة، وانهار الاقتصاد المصري بعد اكتشاف البرتغاليون لطريق رأس الرجاء الصالح وتحولت التجارة إليه فزاد ذلك من عزلة مصر عن العالم الخارجي، وفقدت بذلك مصدراً هاماً من مصادر ثروتها وكثير قطاع الطرق واضطربت الأحوال داخلياً وخارجياً^(١).

وانقسم سكان مصر إبان دولة المماليك إلى طبقتين: الطبقة الحاكمة التي تسيطر على البلاد وتتحكم في مواردها، والطبقة الثانية وهي عامة الشعب من المصريين الذي لم يشاركوا في الحكم بوجه من الوجوه، وكان أفرادها يعانون من الفقر والجهل والمرض، وكان للمتصوفين انتشار كبير ووقع الناس تحت تأثيرهم وخشاهم السلاطين، كما كان هناك الفقهاء من أصحاب المذاهب الأربعة، وكان أكثر المذاهب انتشاراً المذهب الشافعي، يليه المذهب المالكي، وكان رجال الدين من الفقهاء والصوفية يشكلون طبقة ثالثة في المجتمع المصري في ذلك الوقت.

وامتاز علماء الفقه بالاجتهاد والحرية في الفتوى بما يتناسب مع ظروف المجتمع ومن بينهم من كان ينكر على الصوفية كابن تيمية، ومنهم من سلك طريق التصوف كالجلال السيوطي^(٢).

(١) انظر: بدائع الزهور، ابن اياس، طبعة بولاق، ١٨٩٤م، ج ١، ص ١٤٥ وما بعدها.

(٢) انظر: عصر سلاطين الممالك وتناجه العلمي والأدبي، محمد رزق سليم، القسم الثاني من الجزء الثالث، وزارة الثقافة، ١٣٨١هـ/١٩٦٢م، ص ١٠ - ١١.

ولكن ما لبثت شمس دولة المماليك أن أفلت بينما كانت الدولة العثمانية بتركيا في أوج قوتها وشبابها وتطلعت إلى الاستيلاء على مصر وضمها إلى إمبراطوريتها. وقد تم لها ذلك بعد معركة الريدانية عما ٩٢٣هـ / ١٥١٧م على يد السلطان سليم الأول، وآلت مصر منذ ذلك الحين إلى الدولة العثمانية وظلت رازحة تحت نير الحكم العثماني قرابة ثلاثة قرون حتى أن جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر سنة ١٢١٢هـ / ١٧٩٨م.

وقد عاصر الشعراني الفترة الأخيرة من حكم المماليك في مصر، وكان يبلغ من العمر حين أقول نجم الدولة المملوكية خمسة وعشرون عامًا، وعاصر من سلاطينهم السلطان قنصوه الغوري، ثم عاش خلال حكم العثمانيين لمصر فترة خمسون عامًا وعاصر من سلاطينهم السلطان سليم الأول، ثم ولده السلطان سليمان.

٢ - مصر تحت الحكم العثماني:

وبعد أن تم للأتراك السيطرة على مصر أصبحت مصر ولاية عثمانية تابعة للسلطان التركي بالأستانة، وقد قسم نظام الحكم بها بين:

أ- الوالي :

الذي كان يُعين من قِبَل السلطان العثماني لمدة سنة واحدة قابلة للتجديد وهو مندوب السلطان في الولاية وله حق عزله متى شاء، ولما كانت مدة توليه الحكم موقوتة بوقت معين من ناحية، ومعلقة رهن إرادة السلطان من ناحية أخرى فإن الوالي كان يشعر بأن فرصته في البقاء في منصبه موقوتة، ومن ثَمَّ فعليه في أقصر وقت أن ينهل قدر استطاعته من خبرات البلد وأموالها.

ب- الديوان:

وهو يتكون من كبار رجال الدولة وله حق طلب عزل الوالي من السلطان.

ج- المماليك:

وهم حكام البلاد السابقين عينهم السلطان التركي حكامًا على المديريات لأنهم أكثر خبرة بشئون البلاد الداخلية.

وكانت تلك القوى الثلاثية دائماً النزاع فباتت السلطة مفككة ضعيفة، فإذا كان هذا هو حال الحكام، فإن النتيجة الحتمية فساد حال البلاد داخلياً، هذا من الناحية السياسية، أما من الناحية العسكرية، فإن الجيش كان منقسماً على نفسه، وفي ذلك يقول الجبرتي (وفي أثناء الدولة العثمانية ونوابها وأمرائها المصرية ظهر في عسكر مصر سنة جاهلية وبدعة شيطانية زرعت فيهم النفاق وأسست فيما بينهم الشقاق وهو أن الجند بأجمعهم انقسموا إلى قسمين واحتزبوا حزبين)^(١).

وكان سبب هذا الانقسام في صفوف الجند أن السلطان العثماني من سياسته العمل على بث الفرقة والشقاق في صفوف الجند كي يستأثر بالسلطة كاملة وحتى يأمن جانب ثورة الجيش عليه، فعمل على تقسيم الجيش إلى فرقتين، فرقة تدعى فقارية وأخرى تدعى قاسمية، وعلى رأس الفرقتين اثنان من الأخوة جاهد كل منهما في إظهار شجاعته وتفوقه على الآخر، فكثيراً ما كان يقع بين فرقتي الجيش النزاع والحرب، وفي ذلك يقول الجبرتي: (ولم يزل الأمر يفسحوا ويزيد ويتوارثه السادة والعبيد حتى تجسم ونما وأريقَتْ فيه الدماء)^(٢).

ومن ذلك يتضح ما كانت عليه أحوال مصر من تدهور وضعف من الناحيتين السياسية والعسكرية.

أما من الناحية الاقتصادية:

فكان الاقتصاد المصري في تلك الفترة يعتمد على موارد ثلاث هي: التجارة والزراعة والصناعة.

فإذا درست حالة البلاد في هذه النواحي الثلاث أمكن الوقوف على حالتها الاقتصادية.

فقد كانت مصر تعيش في رغد من العيش قبل اكتشاف طريق التجارة الجديد حول أفريقيا حيث كانت تمر بها تجارة الشرق والغرب، فكان البحر الأبيض المتوسط هو

(١) تاريخ الجبرتي: ج ١، ص ٢٥.

(٢) نفس المرجع السابق.

الطريق الوحيد بين الهند وأوروبا، وكانت التجارة العالمية تمر بمصر وتفرض عليها الضرائب الباهظة والتي كانت تمثل دخلاً كبيراً له فاعليته في رواج الاقتصاد المصري، إلى أن اكتشف البرتغاليون طريق رأس الرجاء الصالح سنة ١٤٩٦ م، أي قبل الاحتلال العثماني لمصر بواحد وعشرين عاماً تقريباً، فخسرت بذلك مصر مورداً هاماً من موارد ثروتها^(١).

الناحية الزراعية:

أهمل الحكام المشروعات الزراعية من إقامة جسور وحفر ترع وتطهيرها، وكان كل ما يشغل الحكومة في ذلك الوقت جباية الضرائب من الفلاحين باستعمال القسوة والعنف فأصبح الفلاح عُرضه لانتزاع ملكية أرضه إذا عجز عن سداد ما يفرض عليه من الضرائب الجائرة وبذلك ساءت أحوال الفلاحين وأثقلت كثرة الضرائب المتعددة كاهلهم.

وكان السلطان التركي في القسطنطينية ينتظر الخراج كل عام، كما كان الوالي والجنود يحتاجون إلى نفقات كثيرة فكثرت النفقات مع قلة الموارد فزاد الفقر وظهر اللصوص وقُطع الطرق، ونفشى الجهل والمرض، فلجأ الناس إلى أولياء الله الصالحين من المتصوفة وأرباب الطرق ليجدوا عندهم المأوى والملبس في مأمن عن يد جنود السلطان حيث كان الصوفية يعيشون في زوايا آمنة تجري عليها الأوقاف.

أما من الناحية الصناعية:

فكانت لا تقل بؤساً عن سالفيتها، فقد جمع السلطان التركي مهرة الحرفيين من أبناء مصر، بنائين ومهندسين ونجارين وحدادين وحجارين ورخامين وخراطين وغيرهم وعاد بهم جميعاً إلى الأستانة بعد فتح مصر حتى بطلت في مصر العديد من الصناعات والمهن التي كانت قائمة في ذلك الوقت، إذ يقول الجبرتي:

(١) انظر: بدائع الزهور: ابن اياس، ج ١، ص ١٤٥ وما بعدها.

(وأخذ بصحبته - أي: السلطان - ما انتقاه من أرباب الصنائع التي لم توجد في بلاده بحيث أنه فُقدَ في مصر نيف وخمسون صنعة) ^(١).

وبتداعي أركان الاقتصاد المصري الثلاثة: التجارة، الزراعة والصناعة، تداعت أسباب التقدم الاقتصادي وتفاقت الأزمات الاقتصادية مما أدى إلى حدوث المجاعات ويصور لنا الجبرتي ذلك بقوله: (واشتد الكرب حتى أكل الناس الجيف ومات الكثيرون من الجوع وخلت القرى من أهلها وخطف الفقراء الخبز من الأسواق والأفران ومن على رؤوس الخبازين) ^(٢).

أحوال مصر من الناحية الاجتماعية:

إن الأحوال الاجتماعية لأي أمة من الأمم ما هي إلا نتاج أحوالها الاقتصادية والسياسية والعلمية والدينية، فإنها مجتمعة تؤدي إلى وضع اجتماعي معين، فإن صلحت الأحوال صلحت الحياة الاجتماعية والعكس بالعكس.

وإن الشعب المصري قد عانى من الفقر والجهل والشعوذة والمرض والأوبئة عناء لا نظير له في هذه الفترة من التاريخ، فكانت فِرَقُ الجند التي وكل إليها حفظ النظام وصيانة الحريات، وحراسة الممتلكات لا تقوم بما وكل إليها من أعمال بل إنها كانت تعيث في الأرض فساداً، فكانوا كما يصفهم الجبرتي: (يخطفون الناس والغلمان من الشوارع ليلاً ونهاراً ويفسقون بهم على قارعات الطريق، وكانوا يشاطرون التجار وأرباب الحرف مكاسبهم) ^(٣).

وإذا شكى مظلوم من أفراد الشعب إلى الوالي فكان ذلك الوالي ينصحه بالابتعاد عن أعين الجند حيث أنه لم يكن له سلطان على الجند، فلم يجد العامة من منصف يلجأون إليه إلا الله وحده، فأدى بهم شدة الظلم والضيق على عمق إيمانهم بالله تعالى إيماناً عن جهل تشوبه السذاجة والشعوذة والسطحية في فهم أمور الدين وقواعده.

(١) عجائب الآثار في التراجم والأخبار: الجبرتي، ج ١، طبعة أولى، ص ٦٥.

(٢) المرجع السابق: ص ٢٧.

(٣) تاريخ الجبرتي: ج ١، ص ١٢٤.

ولما كان هذا هو حال المجتمع المصري فقد انتشر بين أفراد الفساد والزنا وكثر اللصوص وانتشر شرب الخمر والمخدرات وأصبح شغل الأفراد الشاغل هو الابتعاد عن ظلم الحكام وبطشهم وتقديم ما يلزمهم من مطالب شتى اتقاءً لشروهم، مما ضيق الصدور وأغلق النفوس فلجأ الكثيرون من أفراد الشعب من أصحاب الطرق الصوفية يقيمون في زواياهم حيث العيش السهل والحياة الهادئة والملاذ الأيمن، وأدى هذا إلى انتشار البطالة.

ويصف الشعراني أحوال الناس في ذلك الوقت فيقول: (وتأمل الخلق تجد الكل قلوبهم مكسورة بحرفته لا سيما الفلاحين والتراسين والطباخين وغيرهم من سائر الحرف الشاقة فتجد الفاعل منهم آخر النهار تخذلت أعضاؤه وضعفت نفسه إلى الطرف الأقصى)^(١).

أحوال مصر من الناحية العلمية:

بعد تحول طريق التجارة عن مصر لم يعد هناك احتكاك بالشعوب الأخرى من الأوربيين الذي نشأت في بلادهم في هذه الحقبة من التاريخ نهضة علمية شاملة من شتى نواحي الحياة^(٢).

ثم جاء الاحتلال العثماني إلى مصر فزادها عزلة عن العالم الخارجي وما يجري فيه من تيارات حضارية واكتشافات علمية طوال ثلاثة قرون، وكان العلم في مصر وقتها يكاد ينحصر في علوم الدين وأهملوا ما سوى ذلك من فروع العلم الأخرى كالرياضيات والطبيعات والعلوم العقلية، وكان التأليف في ذلك الوقت يقتصر على شرح المتون والتعليق عليها حتى سُمِّيَ هذا العصر عصر الشروح والحواشي.

(١) كشف أحوال المتصوفة: الشعراني - نسخة خطية ملك د. ماهر حسن فهمي أستاذ اللغة العربية بكلية البنات جامعة عين شمس، ل ٦ و.

(٢) انظر:

- Stanley lane: poole: A history of Egypt in middle ages, London, ١٩٠١, p. ٢٥٢-٢٥٤.
- Nicholson: a literary history of the Arabs P. ٢٤٣.

وقد بلغ علم الكيمياء من الاضطراب في ذلك الوقت ما جعله يتحول إلى خرافات وأوهام، وَقَلَّ المشتغلون به ولم يزدوا على ما وصلت إليه تلك العلوم إبان عصر النهضة الإسلامية.

كما تحوّل الطب إلى خرافات وشعوذة واشتغل بعض الأطباء بغير الطب وألف البعض القليل من الكتب في الصيد والحرب والسياسة والإدارة والموسيقى والمنطق والفلسفة والتصوف والحديث^(١).

وبلغت السذاجة والجهل بعقول عامة الشعب مبلغاً عظيماً، وكان ذلك يبدو في تعليلهم للظواهر المختلفة تعليلاً ينم عن جهل مفرط، فكانوا لا يجهدون أنفسهم في الكشف عن العلل المباشرة للظواهر والأحداث بل كانوا يرجعون علة كل شيء إلى أمور غيبية.

وأدى بهم جهلهم للدين والتواكل غير الصوفية إلى التسليم بدعايا الدجالين وجهل المشعوذين وأدعياء التصوف، ولم يكن هناك دوراً لنشر العلم سوى الأزهر الشريف والمساجد وبعض مجالس الذكر والزوايا والكتاتيب في القرى.

الناحية الدينية:

كان الدين هو الغلاف الذي يغلف جميع نواحي الحياة المختلفة التي سبق ذكرها، فكان ينظر إلى كل شيء في إطار الدين، أو أن الحياة في مصر في ذلك الوقت كانت تدور برمتها في فلك الدين، وزاد من التمسك بالدين ما وقع على الشعب من جور الحكام وما عاناه من ظلم وفقر فلم يجد أفراد الشعب لهم من مخرج مما يعانونه من كرب وضنك سوى الالتفاف حول رجال الدين والاعتقاد في كراماتهم وبركاتهم اعتقاداً يشوبه الكثير من الجهل والسذاجة وضيق الأفق استغله أدعياء التصوف فابتزوا أموال عامة الشعب من الفلاحين والحرفيين.

وكان لرجال الدين في ذلك الوقت وخاصة المتصوفة منهم مكانة مرموقة بين الحكام ومن هنا كثر مدعوا الطريق وصار كل مدعي يجمع حوله لفيماً من الناس يغالون

(١) انظر : تاريخ الجبرتي، ج ١، ص ١٢٤ وما بعدها.

في تمجيده ليجذبوا مزيداً من الأتباع إذ يقول الشعراني: (وكثر في هذا الزمان المدعون فصار كل من أذن له شيخه القاصر بأن يستفتح الذكر، وأذن له أن يلقي الناس، أو سمع في خلوته هاتف من جنّي أو شيطان يظن أنه ولي الله عز وجل، فيجمع له جماعة من العوام من أهل الصنائع وغيرهم، فتارة يجلس في بلده وتارة يطوف البلاد ويكلف العباد في هذه الأيام الكدرة على الخاص العام)^(١).

وقد اتخذ هؤلاء المدعون للطريق من الدين وسيلة للكسب والعيش السهل فصارت المشيخة لشحاذة، وكان على الفلاحين والصناع أن يوفرؤا لهؤلاء المشايخ المأكّل والمشرب بما يقدمونه لهم من هدايا ونذور. وفي ذلك يقول الشعراني: (فصارت المشيخة للشحاذة، ولعمري لا يصلح أن يسمى شيخاً إلا الفلاحون وأهل الصنائع لأنهم هم الذين يطعمون الشيخ، ولعمري إن الفلاحين وأهل الصنائع أحسن حالاً وأقرب إلى الله من المدعين طول عمرهم؛ لأن الفلاحين من طول عمرهم في أعمال شاقة لنفع الخلق وهؤلاء المدعين طول عمرهم ساعون في استغلال الخلق)^(٢). وبذلك يمكن القول أن رجال الدين من أمثال هؤلاء قد شكلوا عبئاً جديداً يثقل كاهل الفلاح والحرفي.

وكان إلى جانب هؤلاء المدعين من صدقوا في تصوفهم وأخلصوا لدينهم فكانوا حماة الشعب ومنصفيه من بطش الحكام وظلمهم وحملوا لواء العلم والدين وكذلك كان هناك الفقهاء من أهل المذاهب الأربعة^(٣).

(١) كشف أحوال المتصوفة: الشعراني نسخة خطية ملك د. ماهر حسن فهمي أستاذ اللغة العربية، كلية البنات، جامعة عين شمس، ل ٤ ط.

(٢) كشف أحوال المتصوفة: الشعراني، نسخة خطية ملك الأستاذ د. ماهر حسن فهمي ل ٥ و.

(٣) يحدثنا المقرئ عن اختفاء مذهب الشيعة في مصر منذ القرن السادس الهجري على يد صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٦٤هـ وقد سادت في مصر منذ ذلك الوقت مذاهب أهل السنة سنة أربع وستين وتسعمائة وشرع في تغيير الدولة... وأنشأ بمدينة مصر مدرسة للفقهاء الشافعية ومدرسة للفقهاء المالكية وصرف قضاة مصر الشيعة كلهم). انظر كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار: تقي الدين المقرئ، مطبعة النيل، بمصر، سنة ١٣٢٦هـ، ج ١، ص ١٦١.

وانتشرت في ذلك الوقت الزوايا، أما الخوانق والربط فقد بدأت في الانقراض وهنا يحسن بنا أن نتناول كل من الزوايا والخوانق والربط بالحديث حيث أنها كانت مظهرًا هامًا من مظاهر الحياة الدينية في ذلك الوقت.

الزوايا والخوانق والربط:

كان للزوايا في العصر العثماني انتشارًا واسعًا في مصر وخاصة في القرن التاسع الهجري، السادس عشر الميلادي.

والزوايا هي أماكن أعدت خصيصًا للعبادة والذكر وهي مقر لتجمع الفقراء ممن ينشدون العزلة والخلوة والحياة الصوفية تحت بطانة شيخ الزاوية الذي يكون له من الكمال الخلقي وحسن السمعة ومهابة الجانب وقوة التأثير على من حوله ما يؤهله لذلك فيلتف الناس من حوله مجاورين له داخل الزاوية ويكون مرشدهم ومعلمهم وهاديتهم إلى طريق الحق، وعلى الشيخ أن يتكفل بهم، وبزوجاتهم وأولادهم، فيقدم لهم الغذاء والكساء وكل ما يلزمهم، وكان مما يساعد على ذلك ما كان يربطه الأغنياء من وقف على تلك الزوايا وما يقدمه محبي الخير من هدايا وصدقات مختلفة.

وكان يقوم على خدمة فقراء الزاوية نقباء وهم بمثابة الإدارة التي تسير الحياة داخل الزاوية فيتولون عمليات التنظيم والنظافة وتنسيق المأكل والمشرب وإقامة الصلاة والذكر ولكل نقيب عمل يختص بأدائه ويشرف على حسن سيره.

وهناك القُرَّاء الذين يتلون القرآن في الزاوية، ويتولون تحفيظه للأطفال وإلى جانب هؤلاء نجد أيضًا الأئمة وأهل الذكر والوعظ.

ولم تكن تقام الجمعة في الزوايا أول الأمر ولكن تبدل الحال بعد ذلك وصارت تقام الجمعة في أكثرها^(١).

وكان بكل زاوية مكتبة بها مجموعة من الكتب الدينية في الفقه والتصوف والأصول والحديث والأدعية والأوردة والنحو وغيرها من العلوم، وبذلك كانت الزوايا تعد مدارس للعلوم الدينية.

(١) انظر: الخطط التوفيقية الجديدة، علي مبارك، الطبعة الأولى، ج ١، ص ٩٨ وما بعدها.

وكان للمشايخ الصوفية في ذلك العصر مناطق نفوذ اقتسموها فيما بينهم فلكل منهم منطقة معينة من البلاد يمارس فيها سلطته الروحية، وبذلك انتشر التصوف الجمعي في نهاية القرن التاسع الهجري وازداد انتشارًا واتساعًا بعد ذلك في القرن العاشر ولم يعد هناك مكانًا للتصوف الفردي والعزلة الكاملة عن الناس، بل أصبح الصوفي زعيمًا لجماعة من المريدين قل عددهم أو أكثر من جميع طبقات المجتمع يلتقون من حوله ويقيمون معه حلقات الذكر ويأخذ منهم الخاصة العهود والإذن بالمسير في طريق الصوفية.

وكان الصوفي يحرص على الاجتماع بالناس والالتقاء بهم فتفاعل رجال الصوفية مع المجتمع وانفعل بهم وكان لذلك أثره الواضح في المجتمع المصري حينذاك. وهناك الخوانق والربط، وهي على شاكلة الزوايا فهي أماكن أعدت للعبادة وكلمة (خنقاه) تعني بالفارسية بيت العبادة ويقول الشعراني عن الخنقاه في الطبقات الكبرى: (جدي موسى المكنى بأبي عمران يقول في تعريف الخانقاه: الخنق في اللغة التضييق ومنه سميت الزاوية التي يسكنها صوفية الرسوم الخنقاه لتضييقهم على أنفسهم بالشروط التي يلتزمون بها ويقولون فيها أيضًا من غاب عن الحضور غاب نصيبه إلا أهل الخوانق وهي المضايق)^(١).

وقد حدثت الخنقاه في الإسلام في حدود الأربعمئة من الهجرة وأول خنقاه بديار مصر حدثت في زمن صلاح الدين بن أيوب في سنة تسعة وخمسين وستمئة برسم الفقراء الصوفية الواردين من البلاد الشاسعة ووقفها عليهم ووقف عدة أملاك تنفق من ريعها عليها ورتب للصوفية كل يوم طعامًا لحماً وخبزًا وبنى لهم حمامًا بجوارها ثم لما انقرضت الدولة الأيوبية هذا حذوهم السلاطين الجراكسة فصارت في مصر في أول القرن التاسع اثنان وعشرون خنقاه، ولما زال ملك الجراكسة أهملت الخنقاوات واستبدلت بالتكايا^(٢).

(١) الطبقات الكبرى: ج ٢، ص ٤٩.

(٢) الخطط التوفيقية: علي مبارك، ج ١، ص ٩٠.

والتكيا والربط أقامها الأثرياء والأمراء - دورات يقيم فيها الصوفية لينقطعوا للعبادة ودراسة العلوم الدينية لا يشغلهم من أمور الدنيا شاغل، فكان الأغنياء والأمراء من مقيمي تلك الدور يتولون الإنفاق عليهم من ممتلكاتهم الخاصة.

وقد خصص بعض الربط للنساء المنقطعات للعبادة والعجائز والأرامل العابدات وفي داخل التكيا والربط يوجد المشرفون عليها والمؤذنون والأئمة والوعاظ.

ومن ذلك يتضح أوجه الشبه بين الخوانق والربط والزوايا، وإن كانت الزوايا هي أوسعهم انتشارًا في ذلك العصر.

وقد كثر في ذلك الوقت مدعو التصوف الذين وجدوا في التفاف الناس حولهم وشدة اعتقادهم وشيوع أسمائهم غناء عن القيام بفرائض الإسلام الأساسية من صلاة وصوم وغير ذلك.

كما أعرضوا عن دراسة أمور الدين والتعمق في فهمها وقد لقي هؤلاء هجومًا شديدًا من الشعراني وكثيرًا ما ندد بهم في مؤلفاته وأفرد لهم مؤلفًا يكشف فيه أحوالهم، وقد سماه "كشف أحوال المتصوفة".

ويمكن إجمال سمات التصوف الإسلامي في الوقت الذي ظهر فيه الشعراني فيما يلي:

١- غلب على التصوف سمة الجماعة كما سبق أن وضحنا، وأصبح التصوف في عصره ظاهرة اجتماعية وأصبح الصوفي يؤثر ويتأثر بمن حوله وانقضى التصوف الفردي والعزلة التامة.

٢- ازدياد نفوذ الصوفية حتى أن أصبح لهم نظام خاص بهم داخل النظام العالم للدولة.

٣- غلب على التصوف الجانب العملي من صلاة وصوم وذكر وقيام الليل وغيرها من الرياضيات العملية المختلفة حتى أن الجانب النظري كاد أن يختفي وكادت أن تنعدم النزعات الفلسفية والنظر العقلي.

٤- استغلال التصوف كوسيلة للعيش السهل وكثر مدعو التصوف، وكثرت بدعهم وشذوذهم الذي يخالف روح الدين ونقاء التصوف الحق الملتزم بالشرعية والسنة. هذه هي ظروف العصر الذي نشأ فيها الشعراني والتي تأثر بها وأثر فيها ذلك التأثير الذي سنوضحه في حديثنا عن أثر الشعراني في الحياة الاجتماعية والدينية، ولا شك في أن ما أحاط الشعراني من جو فكري مظلم وانحطاط ثقافي كان له أثر واضح في بعض مصنفاته.

أطوار حياة الشعراني:

وإذا ما انتهينا من حديثنا عن بيئة الشعراني العامة فإننا نشرع الآن في دراسة أطوار حياته، وقد أمكنا تقسيمها إلى أربعة أطوار بارزة هي:

١- النشأة الأولى: وتشتمل على حياة الشعراني في قريته وتلقيه العلم على يد أبيه ثم على يد أخيه بعد وفاة والده وتكفل الشيخ خضر به وتعهده بالإنفاق عليه. وهذه المرحلة تبدأ بمولد الشعراني سنة ٨٩٨هـ / ١٤٩٠م وتنتهي بهجرته إلى القاهرة سنة ٩١١هـ / ١٥٥٣م.

٢- الطور الثاني: ويتناول فيه حياة الشعراني في جامع الغمري الذي أقام فيه بعد هجرته إلى القاهرة، واجتماع الشعراني على كبار علماء عصره وتلقيه العلم على أيديهم وحفظه متون الكتب ثم مجاهداته لنفسه بغير شيخ وإقامته مجلس الذكر وهذا الطور يبدأ من انتقال الشعراني إلى القاهرة سنة ٩١١هـ / ١٥٥٣م إلى انتقاله للعيش في مدرسة أم خوند حوالي ٩٢٨هـ / ١٥٢٠م.

٣- الطور الثالث: وتتناول فيه حياته في مدرسة أم خوند وبداية إنتاجه الفكري وعلاقته بالحكام وزيوخ صيته وكان أكثر ما يميز هذا الطور من حياة الشعراني اشتغاله بالتصنيف والتأليف ويبدأ بتركه مدرسة أم خوند سنة ٩٢٨هـ / ١٥٢٠م، وينتهي بانتقاله إلى زاويته سنة ٩٣٥هـ / ١٥٢٧م.

٤- الطور الرابع: ويشمل الحديث عن زاوية الشعراني وأصل نشأتها وانتقاله للإقامة بها مع أسرته والحياة داخل الزاوية ومجالسه العلمية وغزارة إنتاج الشعراني الفكري ثم مرضه ووفاته وجنازته وقبره، ويبدأ هذا الطور بانتقال الشعراني إلى زاويته سنة ٩٣٥هـ / ١٥٢٧م إلى وفاته سنة ٩٧٣هـ / ١٥٦٥م.

وسنبداً بالحديث عن نشأته الأولى في ساقية أبي شعرة.

أ) النشأة الأولى:

بعد أن وُلِدَ الشعراني في قرية جده لأمه وهي كما ذكرنا قرية قلقشندة انتقلت به والدته إلى منزل زوجها ساقية أبي شعرة بعد أربعين يومًا من ولادته وظلت الأم ترعى صغيرها ولكن القدر لم يمهلها فتوفاها الله وكان ابنها حينذاك ما بين الثانية والثالثة من عمره قريبًا كما سبق الإشارة إلى ذلك. وعاش عبد الوهاب الشعراني بعد وفاة أمه في كنف أبيه وأخيه الأكبر عبد القادر، ويسوق الشعراني لنا الكثير من الأحداث التي وقعت له وهو دون البلوغ أثناء إقامته في القرية والتي يرى فيها أن الله حفاه بعنايته ورحمه برحمته فيروي لنا كيف أنه كاد أن يغرق في النيل لولا لطف الله به فخرج سالمًا بعد أن أشرف على صوت محقق، وكيف أن الله كان وليه ونصيره فكان يعاقب كل من تعرض له بسوء منذ طفولته، ويقول الشعراني: (وهذا من جملة نعم الله عليّ مع كوني إذ ذاك صغيرًا لا أعرف طريق معاملته فحماني)^(١). فقد كان الشعراني يتيم الأبوين فكان الحق تعالى وليه ونصيره.

تلقية العلم على يد أبيه ثم أخيه:

وفي أثناء إقامة الشعراني في ساقية أبي شعرة تلقى العلم عن سماع منذ نعومة أظفاره فقد حفظ بمساعدة والده أغلب القرآن عن سماع، وحفظ الكثير من الأحاديث النبوية الشريفة وعلمه الصلاة فواظب عليها في أوقاتها، ويقول الشعراني: (وأنا صغير ببلاد الريف حفظت القرآن وأنا ابن ثمان وواظبت على الصلوات الخمس في أوقاتها)^(٢).

ولكن القدر عجل بوالده، كما عجل بوالدته من قبل فلقي والده ربه سنة ٩٠٧ هـ / ١٤٩٩ م بينما كان عبد الوهاب لم يتجاوز التاسعة بعد فصار الصغير يتيمًا في رعاية أخيه الأكبر الذي تكفل به بعد موت والده.

(١) لطائف المنن والأخلاق: ج ١، ص ٣٣.

(٢) نفس المرجع السابق.

واستطاع عبد القادر أن يدرك ما يتمتع به شقيقه الأصغر عبد الوهاب من فطنة وذكاء، وما لديه من موهبة في سرعة الحفظ والفهم وما منحه الله من استعداد قوي وميل ظاهر نحو دراسة العلوم الشرعية، فساعده مساعدة جادة على تحصيل العلم فأكمل معه حفظ القرآن الكريم حتى أتمه، كما درس أبا شجاع والآجرومية إذ يقول: (ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ حفظ متون الكتب، فحفظت أولاً أبا شجاع ثم الآجرومية في بلاد الريف وحللتها على أخي عبد القادر بعد وفاة والدي)^(١).

تكفل خضر بالشعراني بعد وفاة والده:

وفي حديثنا عن طفولة الشعراني يجب ألا نغفل الإشارة إلى ذلك الرجل الخير الذي يُدعى الشيخ خضر - وهو من جيران الشعراني وأحد أغنياء ساقية أبي شعرة في ذلك الوقت فهو كما يسميه والده في التربة - فبعد وفاة والد الشعراني تعهد الشيخ خضر بالإنفاق عليه وساعد عبد القادر على تربية أخيه.

ولم يقتصر اهتمام خضر بالشعراني على الناحية المادية بل إنه كثيراً ما كان يصحبه إلى مجالس العلم ورجال الدين وأئمة الفقه والتصوف في عصره ليهيئ له فرصة الاجتماع بهم لينهل من نهلم منذ صغره، فكان يسافر به إلى القاهرة ليجتمع بهم ثم يعود به إلى القرية بعد أن يحقق له مزيداً من اللقاءات العلمية والدينية مع جهابذة العلم في الأزهر الشريف وغيره من معاهد العلم ومجالس العلماء في القاهرة إذ يقول الشعراني في الطبقات: (أن سيدي خضر الذي كان كفلي وأنا يتيم أخذني بيده وجاء بي إلى السيد محمد بن عنان^(٢) وكان عنده الشيخ محمد العدل^(٣))، والشيخ محمد بن

(١) لطائف المنن والأخلاق: ج ١، ص ٣٣.

(٢) هو محمد بن عنان إحدى صوفية عصر الشعراني ومن مشايخه المتقدمين له ترجمة بالطبقات الكبرى، ج ٢، ص ١٠٧.

(٣) الشيخ محمد العدل: من صوفية عصر الشعراني، توفي سنة ٩٢٠هـ، اجتمع به الشعراني نحو خمس سنين وله ترجمة في طبقات الشعراني الكبرى، ج ٢، ص ١١٤.

داوود^(١) والشيخ أبو بكر الحديدي^(٢) وقال: كل منكم يدعو لهذا دعوة فدعا كل واحد لي دعوة فوجدت بركة دعائهم إلى وقتي هذا^(٣).

ويوضح الشعراني مدى اهتمام مربيه خضر به ومدى حرصه على أن يسير في الطريق الذي سار فيه أجداده من قبل وهو طريق الصوفية، فيقول: (أمروا والدي^(٤)) "يعني الشيخ خضر" أن يلبسني الجيب الصوف الخضر والسود ومن ذلك الوقت لم تزل الجيب عندي^(٥).

ويقول صاحب المناقب الكبرى: (ربى الشعراني وهو صغير الشيخ خضر وأوصى له عند وفاته ثمان مائة ديناراً ذهباً فردها الشعراني على ورثته وأوصت له زوجة الشيخ خضر بنحو أربعين ديناراً من الذهب فأخذها ووزعها على الفقراء في ساعة واحدة)^(٦). وقد أشار الشعراني إلى ذلك في لطائف المنن إذ يقول: (أوصى لي الشيخ خضر رحمه الله تعالى الذي رباني يتيمًا بخمس مائة ديناراً فلم أقبلها وكذلك أوصت لي زوجته بنحو مائة دينار ذهباً ففرقتها على الفقراء والمساكين ولم آخذ لنفسني منها فلساً)^(٧).

(١) الشيخ محمد بن داوود المنزلاوي: من صوفية عصر الشعراني اجتمع به كثيراً ويقول عنه في المرجع السابق، ص ١١٤، كان يضرب به المثل في إتباع الكتاب والسنة.

(٢) هو أبو بكر الحديدي من مشايخ الشعراني المتقدمين، له ترجمة بالطبقات، ج ٢، ص ١١٩، توفي سنة ٩٢٥هـ.

(٣) الطبقات الكبرى: ج ٢، ص ١١٤.

(٤) يروي الشعراني كثيراً من الأحداث التي وقعت له مع الشيخ خضر ويقول: وأنا بصحبة والدي ويعني الشعراني بكلمة والدي في كثير من الأحيان الشيخ خضر وقد لا يتنبه البعض لذلك فيعتقد أنه يتحد عن أبيه شهاب الدين أحمد كما وقع في هذا اللبس صاحب المناقب الكبرى أبو الأنس المليجي ص ٤٠، والدكتور توفيق الطويل في كتابه الشعراني إمام التصوف في عصره، ص ١٦. ومن الجدير بالملاحظة أن والد الشعراني توفي سنة ٩٠٧هـ، وإذا ذكر كلمة والدي في حدث بعد هذا التاريخ يجب أن يفهم منه على الفور إنه يعني الشيخ خضر.

(٥) الطبقات الكبرى: ج ٢، ص ١١٤.

(٦) تذكرة أولى الألباب في مناقب سيدي عبد الوهاب: محيي الدين أبو الأنس المليجي، ص ٥٨.

(٧) الطبقات الكبرى: ج ١، ص ١٣٣.

وهذا يدلنا على مبلغ زهد الشعراني منذ صغره فلم يتطلع إلى جاه أو مال، ولم تستهوه الثروة رغم حاجته ورغم صغر سنه.

وهذا ينتهي بنا إلى أن نتبين أن الشعراني أمضى اثنتى عشر عامًا في بداية حياته في الريف محاولاً جهده أن ينهل من علوم الشريعة والنحو قدر استطاعته بمساعدة أخيه الشقيق عبد القادر الذي رأى أنه من الأجدى أن يستقي عبد الوهاب العلم من منابعه فسافر به إلى القاهرة حيث كانت مركز العلم في مصر والعالم الإسلامي لوجود الأزهر الشريف وكبار العلماء به.

الطور الثاني:

انتقال الشعراني إلى القاهرة وإقامته بجامع الغمري

حضر الشعراني إلى القاهرة في أوائل سنة ٩١١ هـ / ١٥٠٤ م مع أخيه عبد القادر^(١) وكان عمره إذ ذاك اثنتى عشرة سنة.

وقبل أن نتعرض لأحداث هذا الطور نقف وقفة لمناقشة الآراء التي قامت حول مكان إقامته في القاهرة، فقد ذهب كل من الأستاذ الدكتور توفيق الطويل والأستاذ عبد الباقي سرور إلى أن الشعراني بعد قدومه إلى القاهرة مهاجرًا من ساقية أبي شعرة أقام خمس سنوات بالأزهر الشريف ثم انتقل بعدها إلى العيش في جامع الغمري بناء على مشورة شيخه نور الدين الشوني^(٢)، ولكن لما كنت قد وقعت على نصوص للشعراني تنتهي بنا إلى رأي مخالف لما انتهى إليه الأساتذة الباحثون^(٣) فإني أقدم هذه النصوص وأبني عليها نتيجة مختلفة.

(١) ذهب الدكتور توفيق الطويل في كتابه الشعراني إمام التصوف في عصره، ص ١٦ إلى أن الشعراني حضر إلى القاهرة عام ٩١١ هـ مع أبيه شهاب الدين أحمد بينما أن والد الشعراني كان قد توفى قبل هذا التاريخ بأربعة سنوات حيث إنه انتقل إلى جوار ربه سنة ٩٠٧ هـ.

(٢) علي نور الدين الشوني من أكثر مشايخ الشعراني صحبة له فقد صحبه ٣٥ سنة كاملة وقد التقى به لأول مرة في تربة العادلية خارج القاهرة في الصحراء الشرقية، وهو من بلدة "شوني" بنواحي طنطا وهو من كبار صوفية عصر الشعراني كان الشعراني يحضر معه مجلس الذكر وأصبح من أوائل تلاميذه، وبعد وفاته دفن بمدرسة الشعراني وقبره الآن بجوار قبر الشعراني وله ترجمة بالطبقات الكبرى للشعراني، ج ٢، ص ١٥٤.

(٣) ذكر الأستاذ سرور في كتابه التصوف الإسلامي والإمام الشعراني، الطبعة الثانية، ص ٤٣ "والشعراني يغفل الإشارة إلى حقبه من تاريخ حياته في طلب العلم وهي الفترة التي مكثها في الأزهر حيث قضى خمس سنوات يتلقى العلم على يد شيخه علي الشوني الذي أحبه وقربه واصطفاه، ثم انتقل بعد ذلك إلى مسجد الغمري بناء على مشورة شيخه الشوني" وقد اعتمد الأستاذ سرور في تأريخه للشعراني على ما جاء في كتب الشعراني وما كتبه عنه تلميذه المناوي وما ذكره صاحب الخطط التوفيقية والمستشرقون، وبالرجوع إلى أقوال هؤلاء نجد أنهم أجمعوا على أن الشعراني انتقل من قريته إلى جامع الغمري مباشرة.

فقد جاء وفي أكثر من نص للشعراني: أنه حينما حضر إلى القاهرة لم يقسم له الإقامة إلا في جامع الغمري إذ يقول: (وكان مجيئي إلى مصر في افتتاح سنة إحدى عشر وتسعمائة وعمري إذ ذاك اثنتا عشرة سنة، فأقمت في جامع سيدي أبي العباس الغمري^(١) وحنن الله تعالى عليّ شيخ الجامع وأولاده فمكثت بينهم كأني واحد منهم أكل مما يأكلون وألبس مما يلبسون فلا يجازيهم عني إلا الله فأقمت عندهم حتى حفظت متون الكتب الشرعية وآلاتها وحللتها على الأشياخ^(٢)).

وهذا نص صريح يبين أن الشعراني قد انتقل من الريف إلى جامع الغمري وأقام به مع أسرة شيخ جامع الغمري وتحت رعايته.

ويقول الشعراني أيضًا في ترجمة أبي العباس الغمري في الطبقات: (رأيت مرة -أي: أبي العباس الغمري- واحدة في بلاد الريف ثم إنني لما جئت إلى مصر لم يقسم لي الإقامة إلا في جامع^(٣)). وفي هذا النص يؤكد الشعراني أنه عندما قدم إلى القاهرة لم يقسم له الإقامة إلا في جامع الغمري.

=

أما رواية الأستاذ توفيق الطويل التي قال فيها: "وأقام بالجامع الأزهر - أي الشعراني - ملازماً شيخه علي الشوني نحو خمس سنين ثم غادر الأزهر بمشورة شيخه إلى الجامع الغمري عام تسعمائة وتسعة عشر هجرية، الشعراني إمام التصوف في عصره ص ١٨، فإن بها لبس واضح فإذا كان الشعراني حضر إلى مصر سنة ٩١١هـ وانتقل إلى جامع الغمري سنة ٩١٩هـ فإنه يكون قد أقام في الجامع الأزهر ثمان سنوات وليس خمسة، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإن الشعراني لم يتصل بالشوني إلا بعد حضوره إلى القاهرة بعامين كاملين" (انظر الطبقات الكبرى للشعراني، ج ٢، ص ١٥٥).

(١) كان مسجد الغمري في ذلك الوقت من المساجد الكبيرة في القاهرة وكان منارة للعلم وملتحق بالدارسين فتحول كغيره من المساجد في ذلك الوقت إلى معهد علمي وكانت تجري عليه الأوقاف لصالح طلبة العلم وكان صاحبه أبا العباس الغمري يقطن فيه مع أسرته وعاش معهم الشعراني بعد قدومه إلى القاهرة وكان بالمسجد مكتبة كبيرة زاخرة بالكتب في شتى العلوم فقد كان من عادة العلماء أن يوقفوا كتبهم على المساجد بعد وفاتهم. انظر وفيات الأعيان: ابن خلكان، ج ١، ص ٥٥.

(٢) لطائف المنن: ج ١، ص ٣٣.

(٣) الطبقات الكبرى: ج ٢، ص ١١٠.

ويقول الشعراني في نص ثالث: فلما كانت سنة ٩١٩ هـ قال لي الشوني: مقصودي تجميع لك جماعة في الجامع الذي أنت فيه تقيم وتحيي بهم ليلة الجمعة بالصلاة على رسول الله^(١). وكان يقصد جامع الغمري وليس كما ذكر الأستاذ الطويل أن شيخ الشعراني أمره بالعيش في جامع الغمري في هذه السنة وإقامة الذكر فيه بل إن الشعراني يؤكد بأن شيخه علي الشوني أمره هذه السنة بإقامة الذكر في جامع الغمري الذي كان فيه مقيم.

وقد اتفقت رواية المناوي مع ما ذهبنا إليه في هذا الصدد إذ يقول: (انتقل "أي الشعراني" من الريف إلى من مصر في غرة سنة إحدى عشر وتسعمائة وعمره اثنتى عشرة سنة فقام بجامع الغمري)^(٢).

وقد اتفق ذلك أيضاً مع رواية صاحب شذرات الذهب^(٣)، ورواية علي مبارك^(٤) ومما جاء في دائرة المعارف الإسلامية^(٥)، وإذا كان أصحاب الرأي المخالف يعللون ما ذهبوا إليه من أن طلاب العلم يتجهون أول ما يتجهوا إلى الأزهر حيث أنه منارة العلم ومقصد طلابه، ولأن أغلب الدارسين القادمين من الأقاليم يقيمون به حيث كانت تجري عليه الأوقاف وتغدق عليه الأرزاق غير أن هذه ليست قاعدة مطلقة يمكن أن يبنى عليها حكم بلا بحث، كما أن جامع الغمري كانت تجري عليه الأوقاف وكان يؤمه طلاب العلم ويطبقون به كغيره من المساجد في ذلك الوقت.

وإذا عدنا إلى حديثنا عن حياة الشعراني في ذلك الطور بعد انتقاله إلى القاهرة فإننا نستطيع أن نقول: أن أهم ما يميز تلك المرحلة من حياة الشعراني اجتهاده في تحصيل العلوم المختلفة على أساتذة العلم وسادته حينذاك، فقد أهل نفسه وأعدّها للقائهم

(١) انظر: ترجمة الشعراني في الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية، نسخة خطية بدار الكتب المصرية، ٢٥٩ - تاريخ.

(٢) انظر المرجع السابق.

(٣) شذرات الذهب في أخبار من ذهب: ابن العماد الحنبلي ج ٨، ص ٣٧٣.

(٤) انظر: الخطط التوفيقية الجديدة، علي مبارك، طبعة أولى، ج ١٤، ص ١٠٩.

(٥) دائرة المعارف الإسلامية: مادة شعراني، ج ١١، ص ٨٤٨.

والاجتماع بهم وكان ذلك بكثرة اطلاعه وغزارة محفوظاته كما سيتضح ذلك عند الحديث عن ثقافته.

وقد اتصل الشعراني منذ اليوم الأول لقدمه إلى القاهرة بجهازة العلم في مصر كأبي العباس الغمري وزكريا الأنصاري^(١). الذي يقول عنه الشعراني: (ألبسني الخرقه ولقنني الذكر... وقرأت عليه كتابه المسمى "قواعد الصوفية" كاملاً)^(٢). كما اتصل الشعراني أيضاً بجلال الدين السيوطي الذي ألبسه الخرقه الصوفية حينما اجتمع به في الروضة في ربيع الأول سنة ٩١١هـ. وكان قد أرسل للشعراني قبل اجتماعه عليه أثناء إقامته بساقية أبي شعرة إجازة له بجميع مروياته ومؤلفاته. وبعد أن حضر الشعراني إلى القاهرة اجتمع بجلال الدين السيوطي مرة واحدة فقرأ عليه بعض الأحاديث الشريفة من كتب السند ثم قرأ عليه المنهاج في الفقه ولكن جلال الدين السيوطي توفي بعد ذلك بحوالي شهر في سنة ٩١١هـ^(٣).

وإذ كان السيوطي - وهو من كبار علماء عصر الشعراني قد أجازه بجميع مروياته ومؤلفاته في هذا السن المبكر فذلك لأنه فطن إلى ما يكمن في ذلك الصبي الصغير من موهبة عظيمة وقدرات هائلة. وقد أعد ذلك كرامة للشيخ جلال الدين الذي استطاع بفراسته وشفافية قلبه أن يدرك ما وهب الله الشعراني من رجاحة العقل ونقاء القلب.

كما اتصل بناصر الدين اللقاني ومحمد بن داود ونور الدين المرصفي وعلي الشوني وغيرهم من الأساتذة الذين يزيد عددهم على الخمسين شيخاً من علماء الشريعة والتصوف في عصره.

(١) هو زكريا الأنصاري المتوفى سنة نيف وعشر وتسعمائة يقول عنه الشعراني في الطبقات الصغرى، ص ٣٧، انتهت إليه الرئاسة في مصر حتى إنه لم يبق في مصر إلا طلبته وطلبة طلبته كان مهيب المنظر، وكان أستاذاً في علم الفقه والتصوف لازمه الشعراني عشر سنين في أواخر عمره، وكان يقرأ له الكتب حين كف بصره.

(٢) الطبقات الصغرى للشعراني، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، الطبعة الأولى، ١٩٧٠م، ص ٣٧.

(٣) المرجع السابق: الطبعة الأولى، ص ١٨.

وقد أمضى الشعراني في جامع الغمري سبعة عشر عامًا قضاهما في طلب العلم محاولاً جهده أن ينهل منه قدر ما يستطيع، وقد كان له ما أراد بفضل قدرته النادرة على الاطلاع والحفظ، وبفضل رغبته الجامحة في تحصيل العلم والوصول إلى المعرفة، وبمساعدة أساتذته له، وأولاً وقبل كل شيء بفضل ما وهبه الله من نور البصيرة وشفافية القلب ووضوح الرؤيا وصفاء الروح.

وإلى جانب طلب العلم فإن الشعراني كان يسعى إلى غاية أبعد وهدف أسمى، فكان يريد أن يصل إلى حقيقة الحقائق بالسير في طريق الصوفية فأخذ نفسه بالمجاهدات والرياضات النفسية والعملية طوال مدة إقامته في جامع الغمري وهذه ناحية أخرى ستقف عندها بعد قليل.

تلقيه العلم وثقافته:

أقام الشعراني في جامع الغمري سبعة عشر عامًا من سنة ٩١١هـ إلى سنة ٩٢٨هـ قضاهما في طلب العلم، فقرأ العديد من كتب الشريعة في المذاهب الأربعة، كما كانت له اطلاعات واسعة في أصول الفقه والتصوف والنحو والحديث والطب والكيمياء وعلم الكلام، وغير ذلك من العلوم التي كانت معروفة في عصره، وقد شرح الشعراني أغلب هذه الكتب على مشايخه^(١).

ولا يفوتنا هنا أن نذكر أن الشعراني قد درس اللغة الفارسية وأتقنها وقد وجدنا في أحد كتبه أبيات من الشعر الفارسي يستشهد بها على رأيه في التوحيد.

ولم تقتصر دراسة الشعراني في العلوم المختلفة على مجرد قراءة الكتب وحفظها، وإنما كان يكتب تعليقات وشروح على حواشي تلك الكتب فاق حجمها في بعض الأحيان حجم الكتاب نفسه إذ يقول: (وأكتب زوائد هذه الكتب على الحواشي وربما ألصق فيها أوراقاً حتى تصير الحواشي أكثر من ألفاظ الأصل)^(٢).

(١) انظر: لطائف المنن والأخلاق، ج ١، ص ٣٤: ٣٦.

(٢) انظر لطائف المنن والأخلاق: ج ١، ص ٣٦.

وكان الشعراني يقرأ تلك الكتب بسرعة مذهلة، وقد قال عنه أحد معاصريه من الصوفية العلماء وهو أحمد الفتوح الحنبلي: (أنه " أي الشعراني " طالع كتباً لا يعرف أسماءها، فضلاً عن الخوض فيها، بل أنه لو ادعى أنه ألف بعضها فلن يجد له منازعاً في دعواه)^(١).

وكان الشيخ زكريا الأنصاري يعجب من سرعة مطالعته للكتب فكان يقول له: (لولا أنك تكتب زوائدنا على الحواشي وتترك الكلام المتداخل لقلت أنك لم تلحق تطالع هذه الكتب)^(٢).

والشعراني في مطالعته للعلوم المختلفة ومذاهب الفقهاء والمتكلمين لم يتعصب لمذهب من المذاهب ولا لفكرة بعينها بل كان يدرس جميع المذاهب والآراء ويفسرهما ويحللها بحياد وموضوعية، فإذا ارتضى لنفسه مذهباً معيناً فإنه لا يقلل من شأن غيره مما قد يكون مخالفاً، إذ يقول: (ومما مَنَّ الله تبارك وتعالى به عليّ عدم التعصب لمذهب من غير علم ولا اجتهاد، فلم أتذكر إنني قلت عن شيء من مذهب المخالفين هذا ضعيف أبداً بل سداي ولحمتي التسليم للمخالف)^(٣). وهذا يتمشى مع ما تخلق به الشعراني من آداب الصوفية فلا يقلل من شأن مذاهب الآخرين وآرائهم، وإن كانت مخالفة لما يعتقد.

وفي دراسة الشعراني لمذاهب العلماء وآرائهم اتبع قاعدة خاصة حاول فيها أن يؤكد دائماً أن ما يفهمه المرء من قراءته لآراء الآخرين ليس هو بعينه ما يذهب إليه المؤلف بالفعل، بل إن ما يفهم من النص الواحد يختلف باختلاف القراء، وعلى ذلك فإنه يقول في كتابه لطائف المنن: (ومما مَنَّ الله تبارك وتعالى به عليّ أن حال اشتغالي بالفقه لم أجزم قط قول بما فهمته من كلام إمامي أو مقلد به أن هذا مراده أو مرادهم لأن التكلم على مراد القائل لا يدرك إلا بالكشف)^(٤).

(١) الخطط التوفيقية الجديدة: علي مبارك، طبعة أولى، ج ١٤، ص ١١٠.

(٢) لطائف المنن والأخلاق: ج ١، ص ٣٦.

(٣) المرجع السابق: ص ٣٦.

(٤) لطائف المنن: ج ١، ص ٣٨.

غير أن صوفينا بعد أن طالع صنوف الكتب المختلفة في شتى الموضوعات والعلوم وصل إلى نتيجة هي أن جميع ما علم من تلك العلوم كلها ليس فيه شيء من الإخلاص وأطلق عليها جميعاً اسم العلوم المخلوطة بالحظوظ النفسانية، فأتجه إلى العلوم الكشفية ليجد فيها ما تتوق إليه نفسه من المعرفة بالله معرفة ذوقية كشفية إذ يقول في الطبقات: (اعلم يا أخي وفقنا الله وإياك أن الرجل لا يكمل عندنا في مقام العلم حتى يكون علمه من الله عز وجل بلا واسطة من نقل أو شيخ)^(١).

ويعلل الشعراني تلك النتيجة التي وصل إليها بأن العلوم المتعلقة بالمحدثات يفنى الإنسان عمره فيها ولا يبلغ حقيقتها، فالعلم الحقيقي عنده هو ما كان عن كشف وشهود لا عن نظر وفكر وظن وتخمين.

ويذهب الشعراني إلى أن العلم الخالص هو ما يجمع قلب العبد على ربه حال الاشتغال به، فواجب العالم أن ينظر في علومه من حيث دلالاته على الله ولا ينظر في تلك العلوم، كالطب والهندسة والحساب والنحو وغيرها نظرة ضيقة تقتصر على طبيعتها ومنهجها وفروعها والقوانين والنظريات الخاصة بها والقواعد التي تحكمها. فإن نظر الإنسان إلى العلوم المختلفة من هذه الزاوية فحسب واكتفى بذلك دون إمعان النظر في أن تلك العلوم على اختلافها يكمن وراءها دليل على وجود الله صارت تلك العلوم حججاً له عن الله إذ انشغل بها انشغالاً يبعد به عن التقرب إلى الله، عكس الناظر فينا من حيث دلالتها على الله فإنه يحضر بقلبه مع الله حال اشتغاله بها ويكون الحق تعالى قد كشف عن بصره وبصيرته فلا يفوته الكمال، ويخلص علمه أيّاً كان مجاله من حظوظ النفس، فيجمع قلبه على ربه بدلاً من أن تصير حججاً بينه وبين الله^(٢).

والتقى الشعراني بعد ذلك بأحد صوفية عصره ويدعى أحمد البهلول^(٣) فقال له: (يكفيك ما جمعت من العلم وأقبل على الاشتغال بالله)^(٤).

(١) الطبقات الكبرى: ج ١، ص ٥.

(٢) لطائف المنن والأخلاق: ج ١، ص ٥٢.

(٣) أحمد البهلول: من صوفية عصر الشعراني، توفي سنة ٩٢٨هـ، وله ترجمة بالطبقات الكبرى

للشعراني، ج ٢، ص ٣١١.

(٤) لطائف المنن والأخلاق: ج ١، ص ٤٠.

فما كان من الشعراني إلا أن شاور بعض أسياده في ذلك فنصحوه أن يشرح محفوظاته على الأشيخ الجامعين بين العلم والعمل ففعل، ثم اتجه بعد ذلك إلى مجاهدة نفسه للوصول إلى المعرفة اللدنية.

مجاهدة نفسه بغير شيخ:

جاهد الشعراني نفسه بغير شيخ في بداية حياته، فكان يعمل بما علم من كتب التصوف دون الاستعانة بشيخ إذ يقول: (وكانت صورة مجاهدتي لنفسي من غير شيخ أنني كنت أطلع كتب القوم كرسالة القشيري، وعوارف المعارف، والقوت لأبي طالب المكي، والإحياء للغزالي، وأعمل بما ينقذ لي عن طريق الفهم ثم بعد مدة يبدو لي خلاف ذلك فأترك الأمر الأول وأعمل بالثاني، وهكذا فكنت كالذي يدخل درباً لا يدري هل ينفذ أم لا)^(١).

ولكن الشعراني وجد أن سلوك الطريق بغير شيخ أمر غير ممكن في أيامه، كما كان يحدث للسلف الصالح، فإن هؤلاء قد صفيت قلوبهم فكانوا يعملون بما يعلمون فلا يحتاجون في طريق العمل بعلمهم إلى شيخ لعدم الموانع، غير أن صوفينا تعذر عليه العلم بما علم على وجه الدقة وهو يرى أن الناس أصبحت لديهم موانع لا تحصي فيجب على من يريد الطريق أن يتسلكه على يد شيخ يعرف أمر الدرب ليساعده في مجاهدة نفسه ورياضتها حتى يستطيع أن يتغلب على أهوائها وشهواتها ويتخلص من صفاتها الذميمة حتى يصل إلى المعرفة بالله، ويقول: (من سلك بغير شيخ تاه وقطع عمره ولم يصل إلى مقصوده)^(٢).

وقد قضى الشعراني في بداية دخوله الطريق سنة كاملة يجاهد نفسه بغير شيخ في خلوته وكانت مجاهدته لنفسه قائمة على الرياضات العملية كالعزلة والخلوة والذكر والسهر وقلة الأكل والصمت، فجعل له سقف خلوته حبلاً وربطه في عنقه حتى إذا

(١) لطائف المنن والأخلاق: ج ١، ص ٤٨.

(٢) المرجع السابق: ص ٤٨.

غفل وأخذ النوم جذبه الجبل فيعود إلى صحوته فلا يغفل عن ربه لحظة ويظل ذاكرًا له تعالى طوال الليل من العشاء إلى الفجر.

وعاش الشعراني في خلوته بعيدًا عن الناس في عزلة تامة ليتقرب إلى الله ولا يشغله عن ذلك شاغل من أمور الدنيا والخلق، إذ يقول: (وضاقت عليّ الأرض كلها ونفرت من جميع الناس ونفروا مني، وكنت أقيم في المساجد المهجورة والأبراج الخراب مدة طويلة وأقيمت في البرج الذي فوق السور من خرابة الأحمدية مدة سنة، وما رأيت أصفى من تلك الأيام)^(١).

وترك الشعراني أكل اللذيذ من الطعام حتى يزل نفسه ويتغلب على شهواتها ولبس الخيش والمرفعات نحو ستتين، وأكل التراب عندما خال له أنه افتقد الحلال نحو شهرين وكان - كما يقول: "له مذاق العسل واللحم". وكان يطوي ثلاثة أيام وأكثر ثم يفطر على نحو أوقية من الخبز، حتى أن ضعفت بشريته وقويت روحانيته إذ يقول: (ضعفت بشريتي وقويت روحانيتي حتى كنت أصعد بالهمة في الهواء إلى الصاري المنصوب على صحن جامع الغمري فأجلس عليه في الليل والناس نائمون ثم إذا نزلت من السلم إلى الجامع أنزل بجهد وتعب لغلبة روحانيتي وطلبها الصعود إلى عالمها، فإنه لا يثقل الإنسان في الأرض إلا كثرة الشهوات)^(٢).

وكان الشعراني في تلك الفترة زاهدًا في كل شيء منصرفًا تمامًا عن كل ما حوله لا يشغله شاغل عن التعبد والذكر في خلوته، وإذا شعر بالجوع خرج إلى شاطئ النيل حيث يغسل الناس الخضروات كالفجل والخض والجزر والبقل فيأكل ما يجده متناثرًا هنا وهناك من بقايا هذه الخضروات ملتقطًا ما أعرضوا عنه أصحابه فيأخذ كفايته من الطعام ثم يشرب عليه المادة ويعود أدراجه إلى خلوته ليواصل تعبدته ولم يكن يخرج للبحث عن طعام إلا إذا شعر بحاجته الشديدة إليه فهو يقول: (فلا أكل إلا عند أوائل درجة الاضطرار وذلك حين لا تجد أمعائي شيئًا تشتغل به فيلدع بعضه بعضًا)^(٣).

(١) المرجع السابق: ص ٤٨ - ٤٩.

(٢) لطائف المنن والأخلاق: ج ١، ص ٤٩.

(٣) المرجع السابق: ج ١، ص ٤٩.

وبلغ الشعراني من التدقيق في أكل الحلال من الطعام والامتناع عن كل ما فيه شبهة فأعرض عن أكل طعام الناس على اختلافهم سواء أكانوا فقراء في زاوية أو تجار أو صناع أو قضاة أو غيرهم. ويقول في المنن موضعاً ذلك: (وكنت لا آكل قط طعام فقير لا كسب له من المتعبدین في الزوايا من غير كبير اشتغال خشية أن يكون ممن يأكل بدينه وهو لا يشعر، وكذلك كنت لا آكل طعام قاض ولو كان من أهل الدين مما عساه أن يقع فيه عند الحاجة من قبول هدايا الناس، ثم إنني تركت طعام كل من يمسك الميزان والكيل والزرع)^(١).

وقد تفرغ الشعراني في ذلك الوقت من حياته للذكر والعبادة فقد أمره شيخه نور الدين الشوني بإقامة الذكر سنة ٩١٩هـ فكان يفتح مجلس الذكر في جامع الغمري بعد صلاة العشاء ويظل الذكر قائماً حتى بزوغ الفجر فيصلّي الفجر ثم يصلي الصبح ويعود إلى الذكر مرة ثانية إلى ضحوة النهار ثم يصلي الضحى ويذكر حتى يدخل وقت الظهر ثم يستأنف الذكر إلى العصر ومن بعد صلاة العصر إلى المغرب ومن صلاة المغرب إلى العشاء^(٢).

فكان الشعراني في هذا الوقت من حياته يقضي يومه كاملاً في رياضة نفسه حتى يتهيأ للوجد والاتصال بالله.

وفي ذلك الوقت كان الشعراني يمر بتجربة صوفية محاولاً مجاهدة نفسه بأعنف الرياضات العملية حتى يتخلص من احتياجات البدن ويسمو بروحه فوق كل لذة تستشعرها النفس من راحة أو نوم أو شبع أو غيرها حتى تتطهر نفسه وتتهيأ للاتصال بالله عز وجل.

(١) نفس المرجع السابق.

(٢) لطائف المنن والأخلاق: ج ١، ص ٥٠.

مشايخه:

داوم الشعراني على مجاهدة نفسه ورياضتها بغير شيخ ما يقرب من السنة، كما سبق أن أوضحنا، ثم حاول بعد ذلك أن يجتمع بأهل الطريق وأن يلتقي بهم ليأخذ عنهم ليقتربوا له طريق الوصول إلى الله ويقول: (فاجتمعت بحمد الله على خلائق لا تحصى من أهل الطريق فلم يكن لي وديعة عند أحد منهم سوى هؤلاء الثلاثة وهم: سيدي علي المرصفي وسيدي محمد الشناوي وسيدي علي الخواص، فسلكت على يد الأولين شيئاً يسيراً، وكان فطامي بحمد الله تعالى على يد سيدي علي الخواص)^(١).

وستحدث عن هؤلاء الثلاثة باعتبارهم من أكثر شيوخ الشعراني اتصالاً به.

يقول الشعراني في ترجمة نور الدين المرصفي: (كان من الأئمة الراسخين في العلم وله من المؤلفات النافعة في الطريق، فاختصر رسالة القشيري رضي الله عنه وتكلم عن مشكلاتها)^(٢).

وقد سطر الشعراني أغلب كلام شيخه في رسالة الأنوار القدسية وغيرها من مؤلفاته، وقد توفي نور الدين المرصفي سنة نيف وثلاثين وتسعمائة من الهجرة النبوية بقنطرة الأمير حسين بمصر، وله بها قبر يُزار.

وكان محمد الشناوي من العلماء الراسخين في العلم شديد الإنصاف متحققاً بأداب الفقراء ومقاماتهم، كما يقول عنه الشعراني في ترجمته في الطبقات، وقد لقن الشعراني الذكر وأخذ عليه العهد وهو الذي أجاز الشعراني بتلقين الذكر للمريد وسمح له بتربيتهم للسير في طريق التصوف وكان ذلك سنة ٩٣٢هـ، ثم توفي بعد ذلك في نفس السنة^(٣).

(١) المرجع السابق: ص ٥٠.

(٢) الطبقات الكبرى: ج ٢، ص ١١٦.

(٣) الطبقات الكبرى: ج ٢، ص ١٢٠.

أما علي الخواص البرلسي، وهو الشيخ الذي سلك الشعراني الطريق على يديه، وقد كان أُميًا لا يعرف الكتابة ولا القراءة، ويقول عنه الشعراني: (كان يتكلم على معاني القرآن الكريم والسنة المشرفة كلامًا نفيسًا تحير فيه العلماء)^(١).

وقد صاحب الشعراني حوالي عشرة سنين، وكتب الشعراني في كتابه المسمى "الجواهر والدرر" أجوبة عن أسئلة وجهها إليه تتعلق بأمور الدين وتفسير القرآن، ويذكر الشعراني كثيرًا عن آراء شيخه الخواص في العديد من كتبه. وكان الخواص يعد من كبار رجال التصوف في مصر حينذاك، وتوفي في شوال سنة ٩٥٣هـ.

سلوك الشعراني الطريق على يد الخواص:

كان التقاء الشعراني بالخواص استكمالاً لما بدأه في طريق مجاهدة نفسه فعندما اجتمع به للمرة الأولى أمره بأن يبيع ما لديه من كتب على أن يتصدق بثمانها على المحتاجين والفقراء حتى لا يكون عنده التفات إليها، وحتى يحصر كل اهتمامه في الوصول إلى الله، فما كان من الشعراني إلا أن باعها جميعاً وتصدق بثمانها ولندع الشعراني يقص لنا ما حدث إذ يقول: (أمرني أول اجتماعي عليه ببيع جميع كتبي، والتصدق بثمانها على المحاويع ففعلت، وكانت كتباً نفيسة كشرح الروض والمطلب والخدام والقوت للأذرع وغيرها مما يساوي ثمنها عادة مالا كثيراً فبعته وتصدقت بثمانها فصار عندي التفات لكثرة تعبي فيها وكتابة الحواشي والتقييدات عليها حتى كأني سلبت العلم، فقال لي: (اعمل على قطع التفاتك إليها بكثرة ذكر الله، فإنهم قالوا: ملتفت لا يصل)^(٢).

فجاهد الشعراني نفسه حتى استطاع أن يتغلب على أسفه لفقد كتبه حتى خلص من الالتفات إليها. وفي ذلك الوقت أمره شيخه بالعزلة عن الناس حتى صفت نفسه واتجه مخلصاً لله. فبعد أن اعتزل الناس صار يشعر بأنه أقل من أي إنسان، وعندما وصل إلى ذلك وتحقق بالتواضع أمره شيخه بالخلطة ومعاشرة الناس والصبر على أذاهم ففعل

(١) المرجع السابق: ص ١٣٤.

(٢) لطائف المنن والأخلاق: ج ١، ص ٥١ - ٥٢.

ولكنه شعر بأنه أكثر الناس مقامًا لأنه يرد السيئة بالحسنة فأمره شيخه بالتخلص من ذلك الشعور فراض نفسه حتى استطاع التغلب عليها وتخلص من غرورها واستبدل بصفات نفسه الذميمة صفات أخرى حميدة. وعندما تحقق بالكمال الأخلاقي أمره شيخه بالاشتغال بذكر الله وترك أكل ما تشتهيه نفسه ففعل ذلك حتى أن تحقق بمقام الزهد، وعند ذلك أمره شيخه بالتوجه إلى الله تبارك وتعالى في أن يطلعه على أدلة العلوم الشرعية، ويقول الشعراني: (فلما اطلعت عليها "أي أدلة العلوم الشرعية" وصار لوح قلبي ممسوخًا عن العلوم النقلية لاندراجها في الأدلة، ترادفت عليَّ حينذاك العلوم الوهية، وكان ابتداء ذلك بساحل بحر النيل عند بيوت البرابرة وسواقي القلعة، فبينما أنا واقف هناك وإذا بأبواب من العلوم اللدنية انفتحت لقلبي)^(١).

وكانت هذه المرة الأولى التي يتحقق فيها الشعراني بمقام المعرفة بالله معرفة ذوقية، فصار يتكلم عن القرآن والحديث واستنبط منها الأحكام وقواعد النحو والأصول وغير ذلك.

واستغنى منذ ذلك الحين عن النظر في كتب المؤلفين.

غير أن صوفيتنا عندما عرض على شيخه ما كتبه أمره بأن يمحيه وأن يتخلص من العلوم النقلية التي تتزاحم في رأسه، وقال له: (هذا علم مخلوط بفكر وكسب، وعلوم الوهب منزهة عن مثل ذلك، فما كان من الشعراني إلا أن أعاد ما كتبه مرة ثانية وثالثة ورابعة، وكان شيخه في كل مرة يقول له: أعرض عن هذا واطلب ما فوقه فإن بينك وبين علوم الوهب الخالص ألف مقام. فعمل صوفينا على تصفية قلبه من شوائب الفكر حتى أن فتح الله عليه بالعلوم الوهية وكانت تلك هي بداية العطاء)^(٢).

فمنذ ذلك الحين بدأ الشعراني في التأليف والتصنيف في شتى فروع العلم، وأفاض الله على قلبه من العلوم والمعرفة الوهية، فكتب في الفقه وأصول الفقه والتصوف والحديث والأخلاق الدينية وغيرها من العلوم.

(١) نفس المرجع السابق.

(٢) نفس المرجع السابق.

خصائص تصوف الشعراني:

بدأ الشعراني حياته صوفيًا كما تبين، والشعراني في تصوفه كان ملتزمًا بالقرآن الكريم والسنة الشريفة، فكان تصوفه سنيًا يتابع فيه الغزالي وغيره من الصوفية الذين التزموا بالكتاب والسنة، فهو يقول في "العهود المحمدية": (أخذت علينا العهود أن نتبع السنة المحمدية في جميع أقوالنا وأفعالنا وعقائدنا)^(١).

وقد حرص صوفينا على تأكيد إتباعه للكتاب والسنة في أغلب مصنفاته وكان يحارب أي بدعة مخالفة لظاهر الشريعة المطهرة، كما كان لا يتصدى للرد على أصحاب الفرق الإسلامية المختلفة - اللهم إلا إذا كان كلامهم يخالف صريح السنة، إذ يقول: (ومما منَّ الله تبارك وتعالى به عليّ عدم تمكيني أحد من أصحابي من التصدي للرد على أحد من الفرق الإسلامية إلا إن خالف كلامه صريح السنة المحمدية أو قواعد علمائها، فمثل ذلك يجب الرد عليه)^(٢).

وهذا يوافق اتجاه الصوفية إلى عدم الدخول في الجدل.

فالشعراني بجميع في تصوفه بين الإمام الكامل بالشريعة وأحكامها وإتباعه لقواعد التصوف السني، فالصوفي الكامل في نظره يجب أن يكون متبحرًا في جميع علوم الشريعة المطهرة من تفسير وحديث وفقه وأصول ونحو ومعاني وبيان وأن يكون عالمًا بما عليه جمهور أهل السنة والجماعة، وبما عليه من خالفهم.

فالصوفي عنده عالم عمل بعلمه على وجه الإخلاص، وقد عرّف الشعراني التصوف بقوله: (هو ما انقذ في قلوب الأولياء حين استنارت بالعمل بالكتاب والسنة، والتصوف إنما هو زبدة عمل العبد بأحكام الشريعة)^(٣).

(١) العهود المحمدية: ل، و.

(٢) لطائف المنن والأخلاق: ج ٢، ص ٢٧.

(٣) الطبقات الكبرى: ج ١، ص ٤.

والشعراني في ذلك يذهب إلى ما ذهب إليه الصوفية السابقون عليه فنجد الطوسي مثلاً يشير إلى ذلك قائلاً: (إن أولي العلم القائمين بالقسط الذين هم ورثة الأنبياء هم المعتصمون بكتاب الله المجتهدون في متابعة رسول الله صلى الله عليه وسلم)^(١).

وكان جميع ما صدر عن الشعراني من آراء تتفق تماماً مع صريح الكتاب والسنة وإذا وجد في كتبه رأياً يخالف صريح الكتاب والسنة فإنه غالباً ما يكون مدسوساً عليه حيث أن كتبه تعرضت للدس، وهذا ما سنتعرض له في حديثنا عن خصومه.

وصوفينا لا يحبذ القول بلفظ حقيقة مقابل لفظ شريعة، كما لا يستحسن القول بكلمة عوام مقابل كلمة خواص، فإنه يرى تسمية الصوفية بأهل الحقيقة إيهاماً للسامع بأن المقابل لها وهو الشريعة ليست بحقيقة. ويقول: (يجب الفرار من قول حقيقة وشريعة لما في اسم الحقيقة من إيهام مخالف للشريعة المطهرة)^(٢).

كما أن الشعراني لا يفضل إطلاق لفظ خواص على المتصوفة ولفظ عوام على الفقهاء لما قد يبدو في تلك التسمية من رؤية نفسي فيقول: (يجب الفرار من قول عوام وخواص لما في ذلك من رائحة الكبر والدعوى)^(٣). وإن كان قد اضطر في كثير من الأحيان إلى استعمال تلك الألفاظ لأن الناس قد درجوا على استعمالها ولكثرة تداولها.

وقد كان للشعراني موقفاً واضحاً من شطحات الصوفية التي تؤدي إلى القول بالاتحاد أو الحلول أو وحدة الوجود أو غيرها، فإن لم يذهب إلى مثل هذه الآراء ورفض هذه المذاهب وهاجمها، واستمع إليه في القواعد الكشفية إذ يقول: (ومما أجبت به من يتوهم أن كل ما وقع عليه بصر العبد هو الله عز وجل في نفس الأمر كما عليه بعض من يدعي أنه من أهل الوحدة المطلقة، زاعمين أن ذلك من جملة تنزيه الحق تعالى عن التحيز والجهة، والجواب أن هذا مذهب مخالف لأهل الملل والنحل

(١) اللمع: الطوسي، ص ٢٢.

(٢) نصيحة الإخوان: ل ٤٥ و.

(٣) المرجع السابق: ل ٤٥.

فضلاً عما اجتمع عليه الأنبياء والرسل... فإن الوجود لا يعقل إلا بوجود عبد ورب أزلاً وأبداً^(١).

ومن ثم نجد الشعراني ينكر على الصوفية صياحهم وشكواهم البعاد وتأوهم ويعتبر أن ذلك إنما يرجع إلى الجهل بالله عز وجل ولو أن المحب لله عرفه تعالى بصفات الكمال والجلال لغار على الحق من نفسه أن ينظر إليه بعين تدنس بالمعاصي فضلاً عن التدنس بالأغيار^(٢).

وإذا كان الشعراني قد دافع عن كبار الصوفية في شطحاتهم كمحيي الدين بن عربي والحلاج وغيرهم من أرباب الشطحات عن طريق شرح مقاصدهم، وإظهار ما تعنيه كلماتهم غير أنه لا يجذب القول بهذه الألفاظ الغامضة التي تظهر صاحبها بمظهر المخالف للسنة والتي يصعب على العامة فهم أبعادها. وهو يرى أن هذه الألفاظ تضلل العامة من جمهور المسلمين فيجب عدم النطق بها. بل أن الشعراني في حديثه في الفتوحات المكية لمحيي الدين ابن عربي وجد مواضع صعب عليه فهمها، وهو مع تقديره الشديد لابن عربي وشرحه لكتبه يحذر القارئ من أن يعتقد أن كل ما ينقله عنه هو معتقد له حتى وإن كان خارجاً عن الكتاب والسنة إذ يقول: (رأيت في الفتوحات مواضع لم أفهمها فذكرتها لينظر فيها علماء الإسلام ويحقوا الحق ويبطلوا الباطل إن وجدوه فلا تظن أخي أنني ذكرتها لكوني أعتقد صحتها وأرضاها في عقيدتي، كما يقع فيه المتهورون في أعراض الناس فيقولون: لولا أنه ارتضى ذلك الكلام واعتقد صحته ما ذكره في مؤلفه، معاذ الله أن أخالف جمهور المتكلمين واعتقد صحة كلام من خالفهم)^(٣).

ويتضح من ذلك جلياً أن الشعراني لم يذهب إلى القول بمثل تلك الآراء، والشطحات البعيدة عن روح الدين وجوهر الشريعة. والشعراني ينكر على الصوفية

(١) القواعد الكشفية: ل ٣٥ و.

(٢) انظر: كشف الحجاب والران، ص ٤٢، ٧٠.

(٣) اليواقيت والجواهر في عقائد الأكابر: ج ١، ص ٣.

إظهارهم للأفعال الصالحة ونسبتها إليهم فلا يصح لصوفي أن ينسب الأعمال الصالحة إلى نفسه فإن وقع على يد العبد شيء منها فهي ليست من عنده وإنما هي من عند الله، ويقول في ذلك (ومن آدابهم "أي الصوفية" عدم نسبة شيء من الأعمال الصالحة إلى نفوسهم. ألا يقدر نسبة التكليف)^(١).

والكرامة الحقيقية في نظره هي أن يكرم الله عبده ويهديه إلى صراط مستقيم، ويوصله إلى نور التوحيد، وأما الكرامات الكونية فلا يجب على الصوفية الكُّمُل الالتفات إليها واستمع إليه يقول: (أن الله إذا أوصل العبد إلى نور التوحيد العياني وكرمه بكرامة الاستقامة فذلك كرامة كبرى، وأما الكرامات الكونية فالكُّمُل لا ي تلفتون إليها)^(٢). ومع إن هذا هو رأي الشعراني في الكرامات الصوفية غير أننا نجده في كتابه الطبقات يتناول الحديث عن كرامات الصوفية، ويرجع اهتمام الشعراني بذكر الكرامات إلى روح العصر الذي نشأ وعاش فيه حيث صرف الناس اهتمامهم لتلك الأمور الغيبية كما كان سائداً أن من ليس له كرامات وقدرة على خرق العادات لا يعد من كمل رجال الطريق، وهذا يرجع إلى ما خيم على عقول الجماهير في ذلك الوقت من التاريخ من ظلام فكري وانحطاط ثقافي، ويتضح هذا من حديث الشعراني في الطبقات إذ يقول: (لا نذكر في هذا الكتاب من المشايخ إلا من له كلام في الطريق أو أفعال تنشط المريدين، وأما الكرامات ونتائج الأعمال فليست هذه الدار محلها وإنما محلها الدار الآخرة فلذلك لم نذكر منها إلا بقدر تسكين القلب لذلك الولي ليؤخذ كلامه بالقبول والاعتقاد)^(٣).

وقد أوضحنا من قبل كيف أن الشعراني هاجم مدعي التصوف وأظهر كذبهم ودجلهم، ونبه جمهور المسلمين إلى عدم الاغترار بهم.

(١) خلاصة الأخبار: ل ١٠٣ و.

(٢) الأنوار في صحبة الأخيار: ص ٤٦.

(٣) الطبقات الكبرى: ج ٢، ص ١٠٤.

ويُعد الشعراني من أبرز أمثلة التصوف المصري في عصره، فقد اتسم التصوف في مصر منذ القرن الثالث الهجري إلى القرن العاشر بخلوه من النظريات المتطرفة الناجمة عن شطحات الصوفية والتي تبعد بهم عن روح الكتاب والسنة. وقد أدرك الشعراني أهمية الأساس الأخلاقي للدين فوجه كل اهتمامه إليه.

وفي ختامنا لهذا الطور من حياة الشعراني لا يفوتنا أن نذكر أنه تزوج أثناء إقامته في جامع الغمري بزوجته الأولى وكان ذلك حوالي سنة ٩٢٧هـ وهي زينب بنت الشيخ خليل القصبى.

الطور الثالث:

الشعراني في مدرسة أم خوند:

مع بلوغ الشعراني تلك المرتبة وجد أنه من الضروري أن يغير وضعه فانتقل من جامع الغمري إلى مدرسة أم خوند ليقوم بها ويكون مدرسة في التصوف الإسلامي. وحول انتقال الشعراني المفاجئ من جامع الغمري إلى مدرسة أم خوند بخط كافور الإخشيدي بالقرب من جامع الغمري كثرت الأقاويل والشائعات في هذا الشأن وإن لم تتناقض فيقص لنا علي مبارك ما حدث قاتلاً: (ثم تحول من الغمري إلى مدرسة أم خوند بخط كافور الإخشيدي بالقرب من سكنه الآن، لأن جماعة من أهل الغمري حسدوه على اجتماع أناس عليه في مجلس الصلاة فتعصبوا عليه وبسطوا ألسنتهم في شأنه وأسمعوه غليظ القول وتحالفوا على المصحف ألا يحضروا معه مجلس الذكر)^(١). ويتضح من النص أن سبب انتقال الشعراني إلى مدرسة أم خوند في رأي علي مبارك هو شعوره بالضييق لتحالف جماعة من أهل الغمري عليه وحسدهم له على المكانة التي وصل إليها فرأى أن يترك لهم الجامع إلى مكان آخر يكون فيه أكثر حرية وانطلاقاً.

أما الشاذلي فإنه يدلي برواية أخرى شبيهة بالسابقة فيقول ما معناه: أن الشعراني أخذته حالة وجد ذات يوم فصاح باسم الله صيحة ارتجت لها جدران المسجد وأحدثت دويماً هائلاً في بيت أبي الحسن الغمري وكان على كذب منه فلما علم أن صاحب هذه هو الشعراني هم غاضباً بالانصراف إلى خارج البيت، ولكن الشعراني عندما علم بغضه كان قد سبقه بالرحيل إلى مدرسة أم خوند تاركاً وراءه في جامع الغمري كل ما يملك وأقام خارج المدرسة مع أسرته ستة أيام بعدها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمره بالدخول والإقامة بها ففعل^(٢).

(١) الخطط التوفيقية الجديدة: علي مبارك، طبعة أولى، ج ١٤، ص ١٠٨.

(٢) تكميل النور السافر: الشاذلي، ص ٦١٢.

وما يمكن أن نستشفه من تلك الروايات أن الشعراني قبل انتقاله من جامع الغمري كان قد حقق نجاحا عظيما في حياته وأصبح عالما في الفقه والتصوف وكتب المصنفات وتطairت شهرته وزاع اسمه فأقبل الكثير من الناس عليه فكان له بينهم شأنًا عظيما مما حرك الغيرة في نفوس أولاد شيخه أبو الحسن الغمري فحسدوه على تلك المكانة التي بلغها فصارحوه بعدائهم وجهرروا بتحالفهم ضده فأدرك أنه لم يعد من الصواب الإقامة معهم. فلما اشتد كيدهم ترك الجامع وغادره إلى مدرسة أم خوند ليقيم بها مع أسرته وتلامذته ومريديه من حوله، يقيمون الذكر معه.

ويمكننا أن نضيف إلى ذلك أن الشعراني أراد أن يستقل بمدرسته العلمية والتعبدية وأن ينتقل من مرحلة التلميذ الذي يتلقى العلم إلى مرحلة الأستاذ الذي يلقي العلم لتلامذته، وإن بقاءه في جامع الغمري لن يتيح له تلك الفرصة كاملة.

وبترك الشعراني لجامع الغمري ترك وراءه ما كدر صفوه عن مكيدة وحسد وبدأ في مدرسة أم خوند حياة جديدة أكثر استقرارًا، ففي تلك المدرسة كانت مجالسه العلمية والدينية ومنها زاع صيته وتطairت شهرته وأقبل الرواد عليها من كل فج ينهلون من علمه ويتبركون ويستتبرون برأيه، وإليها أتى الأمراء والكبراء^(١) يتوددون إلى الشعراني ويسألونه العون في أمور دينهم ودنياهم، وفيها بدأ إنتاج الشعراني الفكري يزداد غزارة، حتى غدى زعيما شعبيا محبوبا مرهوب الجانب مطاع الكلمة يخشاه الحكام ويقبلون شفاعته، فكان بمثابة الإمام والمدرس، والمرشد، والواعظ والقاضي والزعيم.

(١) بعد أن وقعت مصر في أيدي الأتراك العثمانيين شرع السلطان سليم الأول في زيارتها وعندما قدم إليها احتفل به العامة والخاصة وأسرع كل ذي شأن في استقباله والتقرب إليه وكان من بين من خفوا لاستقباله العلماء والفقهاء في مصر، ولكن الشعراني لم يكن من بينهم وكان حينذاك مشهورا ومعروفا فلما تخلف عن الحضور إلى السلطان كان ذلك أمرا ملفتا للنظر كما كان فرصة لخصوم الشعراني للوشاية به عند السلطان غير أن السلطان عندما علم بذلك ما كان منه إلا امتطى مطيته وسعى بنفسه إلى الشعراني وزاره في بيته، فكان لهذه الحادثة أثر عظيم في تقوية مكانة الشعراني وازديادها.

علاقة الشعراني بالحكام:

عندما قوى نفوذ الشعراني الروحي والاجتماعي وانتزع لنفسه مكانة عظيمة في قلوب الناس قوى مركزه لدى الحكام، وقد كان الحكام في تلك الآونة على اختلاف مناصبهم يحبونه ويخشونه.

وقد استطاع الشعراني أن يجعل لعلاقته بهم دستورا يسير عليه حتى يحظى بتقديرهم واحترامهم، وحتى يمكنه أن يكون مسموع الكلمة فيما بينهم، فكان لا يقبل من السلطان أو الحكام أي هدية أو عطاء، وإذا ألحوا عليه في قبول شيء من ذلك أخذه وبدره في صحن الجامع فيأخذه الفقراء والمحتاجون على أن يكون ذلك أمام حامله فأدى ذلك إلى احترام الحكام وكبار رجال الدولة له^(١).

وكان الشعراني يحترم الحكام ويدعو لاحترامهم، حتى إنه كان يتقرب إلى الظلمة منهم ويعظمهم. والحقيقة أن موقف صوفينا من الحكام الظلمة كان يبدو غريبا في مظهره السطحي إذ كيف لصوفي مثل الشعراني ممن يحملون لواء الثورة على الظلم ولا يرتضونه أن يعظم الظلمة من الولاة والحكام، فكان الأجدر به أن يقف منهم موقفا معاديا ويندد بظلمهم غير أنه لم يفعل !!! ولكن لماذا ؟

يقول الشعراني معللاً ذلك: (فإن اعترض معترض لا معرفة له بنيتنا ولا مصطلحنا وقال: إن ذلك الأمير مثلاً ظالماً لا ينبغي إكرامه، قلنا ونحن كذلك ظالمون لأنفسنا بالمعاصي ولغيرنا ولو بسوء الظن بهم في وقت من الأوقات، فظالم قام لظالم وأكرمه فلا مزية لذلك الشيخ عليه)^(٢).

فالشعراني في هذا النص يحاول تبرير موقعه من التودد إلى الحكام الظلمة بأن كل إنسان يمكن أن يكون ظالماً لنفسه أو لغيره بإتيانه المعاصي أو بسوء ظنه بالآخرين. ولكن ليس هذا بيت القصيد، فالشعراني في بداية النص قد لوح بعبارة مبهمة وكأنها إشارة لكل لبيب إذ يقول: (فإن اعترض معترض لا معرفة له بنيتنا ولا مصطلحنا).

(١) انظر: لطائف المنن والأخلاق: ج ١، ص ١٣٤ وما بعدها.

(٢) لطائف المنن والأخلاق: ج ١، ص ٩٥.

فالشعراني كان يحابي هؤلاء الحكام ليكسبهم في صفه، فإذا كان له ذلك، فإنهم يتوددون إليه ويتقربون منه، ويحاولون تقديم الخدمات له، ولما كان الشعراني يأبى بشدة وشمم قبول أي هدية أو هبة أو عطاء من الحكام أو غيرهم فكان عليهم أن يسترضونه بعمل شيء آخر، هذا الشيء هو قبول شفاعته للمظلومين وأصحاب الحاجة لديهم، وهذا ما كان يرمي إليه صوفينا بالفعل فهو يرى أن لا فائدة تجني من معادات هؤلاء الحكام الظلمة، بل على العكس فإن الفائدة تكمن في استرضائهم والتودد إليهم، ولتفصيل ذلك نقول:

يحدثنا الشعراني^(١) والمناوي^(٢) والشابلي^(٣) عن القانون الذي أصدره السلطان العثماني في ذلك الوقت والذي يقضي بعقاب كل من عارض السلطان وتظاهر بصفات الملوك بالحبس أو النفي أو الإعدام. والشعراني والمناوي والشابلي يكررون الحديث في أكثر من موضع عن هذا القانون ويبسطون شواهد تطبيقه على المتصوفة ويضربون الأمثلة على ذلك.

فإذا حدث أن تحدى الشعراني ظلمة الحكام وشهر بظلمهم وحارب أعمالهم فلن يكون نصيبه إلا الحبس أو النفس أو الإعدام، وبالطبع كلما زاد تحامله عليهم ضراوة كلما كان نصيبه من الأحكام الثلاثة أشد، فلا أقل من الإعدام في هذه الحالة، وهناك نص للشعراني يقول فيه: (وقد رأى شخص من الفقراء فرنجيا راكبا فرسا، ومماليك السلطان يمشون بين يديه فقال: الله أكبر عليكم، فضربه مماليك السلطان ضربا مبرحا، فما كاد إلا قتل، وكسر مرة شخص من طلبة العلم جرة خمر رآها بين يدي مماليك السلطان في أيام الزينة في مصر فضربوه بالدبابيس ففلقوا رأسه وما قدر أحد من المسلمين يحميه)^(٤).

(١) البحر المورود في المواثيق والعهود: الشعراني، ص ٢٢٨.

(٢) الطبقات الكبرى: المناوي، ج ٢، ص ٤٧٢.

(٣) تكميل النور المسافر: الشابلي، ص ٢٩٣.

(٤) لطائف المنن والأخلاق: ج ١، ص ١٢٨.

وكان الشعراني عميق النظر، فالسكوت على الظلم في تلك الظروف خير من مهاجمته إلى أن يكون الوقت المناسب لثور الثورة ويزهق الله الباطل ويأتي بالحق، فكان على الشعراني إزاء تلك الظروف أن يسلك أحد طريقين: إما أن يحاربهم وينال جزأؤهم بالقانون وتسكت أنفاسه إلى الأبد وفي ذلك الفرصة كل الفرصة لترتفع أصوات الظلم عالية مدوية، وإما أن يأمن جانب هؤلاء الظلمة ويصادقهم مع محاولة الاستفادة من تلك الصداقة في رفع المظالم عن الناس قدر الإمكان.

وقد يعترض معترض ويقول: لو كان لدى الشعراني الشجاعة الكافية لرفع صداقتي الحق عاليًا مندداً بأعمال القمع والإرهاب والظلم والبطش التي كثرت في عصره دون أن يخشى في الحق لومة لائم، ولكن يقوم هنا نتساءل: هل كان على الشعراني أن يفعل ذلك، وإذا فعل ذلك، وإذا فعل ونال العقاب بالإعدام أو النفي مثلاً فماذا بعد ذلك؟ هل كان موقفه يغير من الأمر شيئاً؟

أن الشعب في تلك الآونة كان محروماً من حقوقه في حياة ديموقراطية سليمة ولم تكن الظروف السائدة من النواحي الاجتماعية والاقتصادية والسياسية مهيئة للثورة إذا قام في الشعب زعيم يطالب بحقه في رفع المظالم وخفض الضرائب التي أثقلت كاهل أفراد الشعب فيلتفون من حوله ويثورون معه، ويقفون ورائه مطالبون بحقوقهم فإن أعدم أو نفى كانوا هم من ورائه حماة لثورتهم ومكملين لمسيرتهم على طريق الحق للوصول إلى أهدافهم في حياة عادلة بعيدة عن جور الحكام.

أن ذلك لم يكن ممكناً في وقت عانى الناس فيه من الحرمان في أوسع معانيه. وإذا كان كذلك فإننا نستطيع القول أن الشعراني كان حكيماً بعيد النظر حينما حاول استرضاء الحكام ليكسبهم في صفه، وإن كان في هذه الحالة لا يحبهم بالفعل وإنما يتظاهر بذلك حتى يقبلون شفاعته فيمن جاز عليهم ظلمهم، والأعمال بالنيات وفي ذلك يقول الشعراني: (وإذا تعففنا عما في أيديهم، أي الحكام، وتعاطينا الأسباب التي تميل قلوبهم إلينا حتى يحبونا ويقبلون شفاعتنا في مظلوم مثلاً فلا حرج علينا في ذلك والأعمال بالنيات)^(١).

(١) لطائف المنن والأخلاق: ج ١، ص ٩٦.

وهكذا استطاع الشعراني بعلو مقامه في التصوف وتفقه عما في أيدي الحكام وباحترامه لهم، استطاع أن يكون له مكانة عظيمة في نفوسهم، كما استطاع أن يكسب ثقتهم فكان يتوسط لديهم لإنصاف المظلومين من أبناء الشعب، فأصبح بحكمته ورجاحة عقله ونزاهته وثقافته مقصداً لكل ذي حاجة أو مظلمة وخاصة بعد أن انتقل للعيش في زاويته، وهذا ما سنتناوله بعد ذلك في حديثنا عن الطور الرابع والأخير من أطوار الشعراني.

الطور الرابع والأخير من حياة الشعراني:

الشعراني في زاويته:

بعد أن أمضى سبع سنوات في مدرسة أم خوند مع أسرته^(١) ومريديه انتقل للعيش في زاويته الخاصة أو مدرسة الشعراني التي امضى بها ثمانية وثلاثون عاما، وقبل أن نتناول الحديث عن حياة الشعراني داخل زاويته سنقف وقفة قصيرة لنعرض أولا لأصل إنشاء هذه الزاوية:

أصل إنشاء زاوية الشعراني:

كان القاضي عبد القادر^(٢) قد قام بمسح الأرض الزراعية التوكيل يملكها السلطان المملوكي في مصر قبل الفتح العثماني واختلس لنفسه جزءا كبيرا من تلك الأراضي وكتب بها مستندات شرعية ومحا عنها الرسم الأول، وظلت تلك الأراضي في حوزته بعد أن جاء العثمانيون إلى مصر، وعندما أراد السلطان العثماني أن يعمل مسحا جديدا للأراضي الزراعية التابعة له خشى القاضي عبد القادر أن ينكشف أمره فأسرع إلى الشعراني يستنجد به لينقذه من هذه الورطة، وقد وعده الشعراني بمساعدته والتوسط لدى السلطان للعفو عنه، على أن لا يعود إلى مثل تلك الأعمال، وأن يتوب إلى الله حتى يغفر له، فاستجاب القاضي لنصيحة الشعراني ووعد به بأن يبني مسجدا لله إذا تمت له النجاة من تلك الأزمة.

فما كان من الشعراني إلا أن تشفع له لدى السلطان سليم الأول فقبل السلطان شفاعته وعفا عن القاضي وترك له ما بحوزته من الأراضي الزراعية فأصبحت ملكا له.

(١) تزوج الشعراني للمرة الثانية سنة نيف وثلاثين وتسعمائة زوجته الثانية وتدعي حليلة. ولما كلما بصدد الحديث عن زواجه لتجدر بنا الإشارة إلى أنه تزج بعد ذلك مرتين وإن كنا لا نعرف تاريخ زواجه في المرتين بالتحديد، وكانت زوجته الثالثة تدعي فاطمة وهي أم ابنه عبد الرحمن، وزوجته الرابعة والأخيرة تدعي أم الحسن.

(٢) أحد قضاة مصر وأثريائها عاصر حكم المماليك ثم الحكم العثماني من بعده وكان كثير التردد على مدرسة أم خوند يحضر مجالس العلم مع الشعراني وتلامذته.

وسرعان ما أوفى القاضي بوعده فاشترى قطعة أرض على الخليج الحاكمي تجاه درب الكافوري^(١)، وعمرها مدرسة^(٢). فانتقل الشعراني وأسرته للإقامة بها.

وكان القاضي قد أوقف تلك الحصص المتفرقة من الأراضي الزراعية على جهات البر لصالح زاوية الشعراني ولجميع القاطنين بها.

وعندما علم الشعراني بذلك أرسل إلى السلطان ليعلمه بما تم من أمر الوقف إذ يقول: (ولما وقع التفتيش أرسلت للديوان ورقة من غير سؤال منهم مضمونها أن تحت نظري جهات وقد بلغني أن فيها شيئاً ليس له أصل، والمسئول من فضل مولانا الوزير علي باشا ومباشري الديوان أن يفتشوا هذه الجهات التفتيش التام البريء للذمم وما وجدوه للسلطان يأخذونه، وما وجدوه لغيره يعطونه له، وما وجدوه لنا يردوه علينا. ولا يخافون من دعاء الفقراء عليهم إذا أخرجوا من وقفهم)^(٣).

ولما علم السلطان بأمر رفض أن ينزع الوقف من الشعراني وقرر أن يظل الوقف في خدمة الزاوية^(٤).

وعندما تمت مكاتيب الوقف وعلم الناس بذلك هرعوا من أقاليم مصر وانقطع الكثيرون منهم عند الشعراني حينذاك وانتظم مجلس الذكر وشاع اسم الوقف والشعراني بجميع أقاليم مصر^(٥). وهكذا أعاد الله بذلك الحق إلى أصحابه بعودة ريع الوقف إلى عامة الشعب من أبناء مصر الحقيقيين من طلاب العلم والفقراء وأصبحت زاوية الشعراني من أكبر الزوايا في مصر في ذلك الوقت.

وكانت تدرس بها العلوم المختلفة من فقه وحديث وأصول وتفسير وتصوف ونحو وصرف وقراءات وغيرها، من العلوم الشرعية وآلاتها، ويقول صاحب المناقب الكبرى:

(١) منطقة باب الشرعية بوسط القاهرة - حالياً.

(٢) لم يكمل القاضي بناء المسجد أو المدرسة، فقد ذهب لقضاء فريضة الحج فمات بالأرضي الحجازية وأكمل الشعراني بناء المسجد بعد ذلك ثم انتقل للعيش به.

(٣) لطائف المنن والأخلاق: ج ٢، ص ١٦٢.

(٤) انظر: الخطط التوفيقية الجديدة: علي مبارك، ج ١٤، ص ١٠٩.

(٥) المرجع السابق: ص ١٠٩.

(وكانت هذه المدرسة تسمى بالمدرسة القادرية أو المسجد القادري أو الزاوية القادرية نسبة إلى القاضي عبد القادر، ثم أصبح يطلق عليها بعد ذلك زاوية الشعراني أو مدرسة الشعراني)^(١).

الحياة في مدرسة الشعراني:

كان مسجد الشعراني - الذي نحن بصدد الحديث عنه ليس مجرد مسجد لإقامة الصلاة فقط، وإنما هو مجلس للذكر وقاعة للدرس ومعهد للعلم ومأوى للفقراء وملجأ للعميان ومكتبة للقراء، وكان شأنه في ذلك شأن غيره من المساجد الأخرى التي كان له دورا عظيما على طول التاريخ الإسلامي، في خلق أجيال جديدة من العلماء والفقهاء في شتى فروع المعرفة الدينية، وكان مقرا لزاوية الشعراني التي تطايرت شهرتها في ذلك الوقت وفدت من أشهر الزوايا الصوفية في مصر.

ويصف الشعراني الحياة داخل الزاوية وصفا دقيقا في كتابه "لطائف المنن"^(٢) فيبين أن رجلا ذات صوت جهور كان يصعد على المنبر فيذكر الله بصوت مأنوس فيوقظ كل من بالزاوية ويصل صوته إلى نحو ستين بيتاً من كل جانب فيستيقظون ويذكرون الله تعالى ويستغفرونه لا يكاد يغفل عن ذلك ليلة واحدة ثم يعقبه شيخ ذات صوت حسن يقرأ القرآن حتى مطلع الفجر فتنزل الرحمة على الزاوية وعلى جيرانها، وبعد صلاة الفجر يفتتحون القرآن جماعة إلى صلاة الصبح ثم يفتتحون الحزب فيصلون على رسول الله صلى الله عليه وسلم ويذكرون الله تعالى إلى ضحوة النهار. وبعد ذلك يشرع أكابرهم في قراءة درس العلم عقب كل صلاة، ويشرع من دونهم من المجاورين في قراءة القرآن وحفظ المتن من أول النهار إلى آخره ثم يجتمعون كلهم على الاشتغال بالتصوف وآداب الطريق إلى آذان المغرب وبعدها يتحزبون على قراءة القرآن جماعة وفردى إلى آذان العشاء ثم يجتمعون على شيخ الزاوية وهو الإمام الشعراني في

(١) تذكرة أولى الألباب في مناقب سيدي عبد الوهاب: أبو الأنس المليجي، ص ١٥٣.

(٢) لطائف المنن والأخلاق: ج ٢، ص ١٥٩.

مجلس الذكر العظيم وأخيرًا يتفرون للنوم أو المطالعات إلى وقت شروعه إلى مثل حالهم بالأمس.

وقام الشعراني على خدمة فقراء الزاوية منذ إنشائها إلى أن لبي نداء ربه فكان عليه إطعامهم وكسائهم وتزويج العزاب منهم ويتكفل بزوجات المجاورين وأولادهم ويقضي لهم حاجياتهم وجميع متطلباتهم حتى أنه كان يشتري لزوجات المجاورين الكحل واللبان، وفي ذلك يقول: (ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ تأهيلي لخدمة فقراء الزاوية القاطنين عندي في الاشتغال بالعلم والأدب والأوراد منذ ثلاثين سنة من غير تقلق مني ولا تعب في تحصيل معاشهم ولو صاروا ألفاً وأكبر لا أتقلق منهم لأن ربهم هو الرزاق، وما قيدهم في الزاوية إلا وهو يسوق إليهم أرزاقهم، وقد بلغوا عندي الآن نحو مائتي نفس رجالاً ونساءً وأطفالاً)^(١).

وكان الشعراني ينفق على فقراء الزاوية من ربيع الوقف وجهات البر الأخرى لا يأخذ لنفسه شيئاً من ذلك وإذا وجد أن بالهدية شبهة فإنه يعلن ذلك على الفقراء فمن أراد أن يأخذ منها لحاجته الماسة إليها فيأخذ قدر ضرورته ويقول الشعراني: (وإذا علمت أن في شيء من جهات الوقف أو في الهدية شبه لا أفرقها عليهم، أي الفقراء حتى أقول لهم هذا المال فيه شبهة فمن كان صاحب ضرورة فليأخذ منها بقدر ضرورته وإلا فليتركه، وذلك لا خرج من تبعته يوم القيامة فلا يكون على المهانة في الدنيا وعلى الوزر في الآخرة)^(٢).

وأما ما يتبقى من الرزق بعد أن يأخذ المجاورون حاجاتهم كان يوزع على الفلاحين وعلى ضيوف الزاوية، أما الشعراني وزوجاته وأولاده فلا يخصص شيئاً منها. وعاش الفقراء داخل زاوية الشعراني حياة كاملة، فكان لديهم الفرن لإعداد الخبز ومخازن خاصة لتخزين حاجاتهم من الحبوب وغيرها، وكان يصل إلى الزاوية كل سنة من عسل النحل حوالي عشر قناطير، ومن عسل القصب حوالي عشرين قنطار ومن

(١) لطائف المنن والأخلاق: ج ٢، ص ١٥٩.

(٢) المرجع السابق: ص ١٦٠.

القمح حوالي ثلاثمائة أردباً ومن الفول أربعين أردباً ومن الكشك سبعة أردب ومن الأرز سبعة أردب ومن البسلة والعدس نحو خمس وعشرون أردباً وبلغ عجبن الكعك في كل عيد خمسة أردب، وكان يأتي إليهم من كعك الريف هدايا تبلغ نحو ثلاثة أردب في العيد، هذا غير ما يشترونه من التمر والخروب والتين واللوز والبندق نحو خمسة قناطير وكان كل ذلك يوزع على الفقراء والمحتاجين ممن يقصدون الزاوية أو يقيمون بها^(١).

هذا حديث الشعراني عن الزاوية، فإذا رجعنا إلى حديث تلميذه المناوي فنجده يقول: (كان يسمع لزاويته دوي كدوي النحل ليلاً ونهاراً ما بين ذاكر وقارئ ومجتهد ومطالع كتب وغير ذلك، وكان يحيي ليلة الجمعة بالصلاة على المصطفى ويستمر جالساً من العشاء إلى الفجر لا يفتر ولا ينعس ولا يبخل بالحضور مع الفقراء أو المرضى)^(٢).

خصوم الشعراني:

عندما ارتفع نجم الشعراني عاليًا وذاع صيته بين الناس وطارت شهرته في أرجاء البلاد الإسلامية واتلف حوله المريدون وأصبحت له مكانة عظيمة في قلوب الناس وعند ولاية الأمر من السلاطين والأمراء في مصر وتركيا، شعر بعض فقهاء الأزهر وبعض رجال الصوفية إنه انتزع من بين أيديهم الزعامة وحب الناس واعتبروه بذلك قد تطاول عليهم وزعزع مكانتهم، وأن الصدارة أصبحت له فدبت الغيرة في قلوبهم وحققوا عليه وحاكوا له المؤامرات، وقد تحدث الشعراني عن هؤلاء الحسدة الذين اتخذوه عدوا لهم فأشاعوا الفتنة من حوله ودرسوا على كتبه وأفاض عنهم الحديث في مواضع عديدة من كتبه، ويقول في لطائف المنن (فكل قليل يحرفون عني مسائل لم أقل بها قط ثم يكتبون بها سؤالاً ويستفتون عنها العلماء فيفتون بحسب السؤال ثم يدورون بخطوط

(١) لطائف المنن: ج ٢، ص ١٦٠.

(٢) انظر: ترجمة الشعراني في الكواكب الدرية لتراجم السادة الصوفية، عبد الرؤوف المناوي، نسخة خطية بدار الكتب المصرية، ص ٢٥٩ تاريخ.

العلماء على الناس هذا، وما أحد من المستفتين عليه اجتمع بي طول عمره ولا بلغه ذلك عني بينة عادلة ولو أنهم كانوا يقصدون الخير لاجتمعوا بي وأخذوا مني الجواب^(١).

ولم يكتف خصوم الشعراني بذلك بل أنهم اتهموه بأنه ادعى الاجتهاد المطلق في الفقه مثل الأئمة الأربعة ويقول: (وقد وقع في سنة سبع وخمسين وتسعمائة أن شخصا مما لا يخشى الله تعالى زور على أنني ادعيت الاجتهاد المطلق كأحد الأئمة الأربعة)^(٢).

ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل أن خصوم الشعراني دسوا على كتبه كما سبق أن وضعنا فزوروا في كتابه " البحر المورود في المواثيق والعهود " فأضافوا عليه من العقائد ما يخالف الشرع وكتبوا منه النسخ التي بها أضافوه إليها من زيادات مخالفة للشرع وأرسلوها إلى العلماء في مصر والحجاز وإسطنبول ليثيروا الرأي العام الإسلامي ضده وقامت فتنة عظيمة في الأزهر، وثارت الثائرة عليه ويصور لنا ذلك بقوله: (وكذلك دسوا علي أنا في كتابي المسمى بالبحر المورود جملة من العقائد الزائفة وأشاعوا تلك العقائد في مصر ومكة نحو ثلاث سنين وأنا بريء منها كما بينت ذلك في خطبة الكتاب لما غيرتها، وكان العلماء قد كتبوا عليه وأجازوه فما سكنت الفتنة حتى أرسلت إليهم النسخة التي عليها خطوطهم)^(٣). وقد كانت حملات خصوم الشعراني عليه متكررة محاولين النيل منه وإهدار مكانته الطيبة في قلوب الحكام والناس.

(١) لطائف المنن: ج ١، ص ١١٩.

(٢) المرجع السابق: ص ٧.

(٣) اليواقيت والجواهر: ج ١، ص ٧.

ويحدثنا المناوي تلميذ الشعراني عن هذه الفتنة فيقول: (فغلب الحسد على طائفة من الفقهاء والصوفية ففسدوا عليه في بعض كتبه كلمات يخالف ظاهرها الشريعة وعقائد زائغة ومسائل تخالف الإجماع وأقاموا عليه القيامة وشنعوا وسبوا ورموه بكل عظيم)^(١). وعندما فشل خصوم الشعراني في محاولة الدس على كتبه لجأوا إلى طريقة أخرى، وهي الدس عليه عند السلطان فادعوا إنه خطير على الأمن والنظام في الدولة، وأن في وجوده وقوة نفوذه خطر على السلطان نفسه، ويقول الشعراني: (وصاروا عليّ زورا وبهتانا ومكاتباتهم في لباب السلطان ونحو ذلك)^(٢).

وفي نهاية المطاف حاول أعداء الشعراني قتله ففسدوا له السم ولكن الله كتب له النجاح، فرصدوا له في الطريق من يقتله ولكن جميع محاولاتهم باءت بالفشل وكان آخر ما في جعبتهم أن أطلقوا إشاعة بموته.

ويحدثنا الشعراني عن ذلك قائلا: (وما وقع لي أن بعض الأقران ما ينسب إلى العلم والصلاح في الجامع الأزهر غلب عليه الحسد حتى أشاع عني في الجامع الأزهر وغيره إنني مت وقال أخبرني جماعة ثقات أن فلانا مات فجاءه وأرسل بذلك كتابا إلى دمياط والمحلة والإسكندرية فأرسلت وبحثت عن سبب يقول إنما فعلت ذلك لأنظر ما يقوله الناس في فلان إذا مات)^(٣).

وقد وقف الشعراني من خصومه موقف الإنسان الصابر الثابت الإيمان تمشيا مع آداب الصوفية في رياضة نفوسهم وتحقيقا بمقام الرضا بما قسمه الله فلم يحصل لهم في نفسه كره أو ضغينة، بل على العكس حاول أن يجد لهم العذر فيما افتروه عليه من الأكاذيب، واعتبر أن في ادعاءهم عليه نفعا له فقد نبهوه بذلك إلى أمور كان من الجائز أن يقع فيها مستقبلا فتحاشاها شاكرًا لله على فضله ونعمته، واستمع إليه إذ يقول: (ومهما انعم الله تبارك وتعالى به عليّ شكري لله تعالى إذا انقضى أحد من الأعداء مما

(١) انظر: ترجمة الشعراني في الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية، عبد الرؤوف المناوي، نسخة خطية بدار الكتب المصرية، ٢٥٩ تاريخ.

(٢) لطائف المنن: ج ١، ص ١٩٠.

(٣) لطائف المنن: ج ٢، ص ٢٠٢.

لم يقع مني في الخارج، لأنه نفعني على كل حال بتحذيري من الوقوع فيه في المستقبل وتقبيحه في عيني، ومن كان مشهده الشكر على ما ذكرناه فلا يصح منه تكدر ممن أضاف إليه أعظم النقائص وذلك لعلمه بعدم عصمته أولاً ولرضاه بما يفعله ربه عز وجل ثانياً^(١).

وفاته:

هناك إجماع^(٢) على أن الشعراني توفي سنة ٩٧٣هـ / ١٥٦٥م على أثر مرض أصابه وظل طريح الفراش لمدة شهر تقريباً، وكان في الخامسة والسبعين من عمره، ولندع أحد الذين حضروا وفاته وهو عبد الرؤوف يحدثنا عن ذلك.

يقول المناوي: (ولم يزل قائماً، أي الشعراني، على ذلك معظماً في صدور الصدور مبجلاً في عيون الأعيان بالخير والحبور حتى نقله الله إلى دار كراماته في سنة ثلاث وسبعين وتسعمائة، وحضر جنازته جميع حافل من العلماء والفقهاء والفقراء ودفن بجانب زاويته بين السورين).

جنازته:

حضر جنازة الشعراني، كما يقول عبد الرؤوف المناوي وعلي مبارك جمع هائل من البشر وأقبلت الجماهير من جميع أنحاء القطر واحتشد حشد هائل من الفقراء ومريدي الشعراني ورجال الدين والأمراء وغيرهم، وشيعوا جثمانه بعد أن تمت الصلاة

(١) المرجع السابق: الجزء الثاني، ص ٢٠٠.

(٢) الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية: الجزء الخاص بترجمة الشعراني، نسخة خطية بدار الكتب المصرية ٢٥٩ تاريخ، شذرات الذهب: ابن العماد: ج ٨، ص ٢٧٢، كرامات الأولياء: النبهاني، ج ٢، ص ٣٧٤، المناقب الكبرى: أبو الأنس المليجي، ص ٣٨، الخطط التوفيقية: علي مبارك، ج ١٤، ص ١٠٨. إيضاح المكنون في الزيل على كشف الظنون: إسماعيل باشا البغدادي، مطبعة المعارف، مصر، ١٣٦٤ هـ / ١٩٤٥ م، التصوف الإسلامي في الآداب والأخلاق: د. زكي مبارك، مطبعة الاعتماد، مصر، ج ٢، فهرس الفهارس: محمد الحسني الإدريسي الكتاني، ص ٤٠٥، تاريخ آداب اللغة العربية: جورج زيدان، ج ٣، مطبعة الهلال، ١٩٣١ م، ص ٣٣٥.

عليه في الجامع الأزهر، ودفن في مسجده أو زاويته بين السورين، وهي منطقة باب الشعرية - حاليًا - بوسط القاهرة.

ويصف علي مبارك في خططه التوفيقية جنازة الشعراني وصفاً أكثر تفصيلاً إذ يقول: (فاجتمع لوفاته خلائق متواصلة من زاويته إلى الجامع، ويعني الجامع الأزهر، وممن صلى عليه علي باشا، ومن دونه من أمراء الألوية ومشايخ العرب والأعيان وقاضي العسكر ومن يليه من القضاة ومشايخ العلم والفقهاء والتجار وفقراء الزاوية، ولم يستطع أحد أن يدنوا من نعشه لشدة الازدحام عليه.

وتجاه نعشه كان فقراء الذكر بأعلامهم وهم أعداد متوافرة يذكرون بحيث صارت رؤية مشهد تدهش العقول)^(١).

صلى عليه بالأزهر وحمل نعشه من المقصورة وكانت الجماهير تتأسف على وفاته وطيب ذكراه، وعادوا به إلى الزاوية حيث دفن في فسقية بنيت له في حال مرضه وقد كمل بنائها في وقت خروج روحه.

قبره:

شيد قبر الشعراني في وسط مسجده من الرخام الأبيض المغطى بالسستان الأخضر الموشى بآيات من الكتاب الكريم كتبت بالتطريز الأصفر.

والقبر داخل مقصورة مصنوعة من الخشب المطعم بالصدف ومزدانة بالزخارف الإسلامية الملونة بالألوان الأزرق والأحمر والأصفر.

وفوق المقصورة قبة عالية مزخرفة بالزخارف الإسلامية الملونة بالأزرق والأحمر والأصفر.

وقد شيد المسجد على مساحة واسعة وبه قبتان أحدهما كبيرة والأخرى صغيرة وبه مأذنة عالية.

(١) الخطط التوفيقية الجديدة: علي مبارك، طبعة أولى، ج ١٤، ص ١١٢.

وتجدر بنا الإشارة هنا إلى إنه يوجد داخل المسجد مقامان صغيران الأول في صحن الجامع وهو للشيخ علي الشونبي شيخ الشعراني، والثاني للشيخ خضر والد الشعراني في التربة، وهو في حجرة صغيرة بجوار ضريح الشعراني. وهناك أيضاً قد دفن عبد الرحمن عبد الوهاب الشعراني - ابن الإمام الشعراني ولكن ليس له مقام ظاهر. وقد جدد مقام الشعراني سنة ١٣٤٣ هـ.

حال الزاوية من بعده:

بعد وفاة الشعراني تولى أمر الزاوية من بعده ابنه عبد الرحمن، ويقال عنه: أنه كان شحيح اليد اهتم بجمع المال مما جعل فقراء الزاوية ينصرفون عنها ثم ترك الزاوية مع زوجته وأولاده للإقامة في منزل مستقل يقع على بركة الفيل، وصار لا يأتي إلى الزاوية إلا يوم الجمعة فاضمحلّت أحوالها ويقول صاحب المناقب الكبرى: (صار مجلس ليلة الجمعة يجلس فيه نحو اثنين أو ثلاثة أول الليل ثم يغلب عليهم النوم، وكان في زمن والده يصعد المؤذن في نحو نصف الليل فيحصل من إيقاظ النيام والاشتغال بالذكر والتهجد والقيام والأنس التام ما يثلج الصدر)^(١).

ثم توفي عبد الرحمن الشعراني في سنة إحدى عشر بعد الألف ودفن بزاوية والده. ويجدر بنا أن ننوه إلى أنه يوجد الآن في الإسكندرية بيت للإمام الشعراني وجمعية باسمه، ويقوم بالخدمة على البيت وإدارة الجمعية أحد أحفاد الإمام الشعراني وهو: المهندس محمد نوح علي الشعراني.

وعند معرفتنا بوجود بيت يحمل اسم الإمام الشعراني وجمعية باسمه توجهنا إلى الإسكندرية بحي الإبراهيمية وتقابلنا مع شيخ بيت الإمام الشعراني ورئيس الجمعية السيد / محمد نوح علي الشعراني الذي شرح لي مشكورا الغرض الذي أنشئ من أجله بيت الإمام وجمعيته.

(١) المناقب الكبرى: أبو الأنس المليجي، ص ١١٣.

وقد صدر قرار إنشاء البيت من مشيخة عموم السادة الأحمديّة الشناوية لغرض خدمة الفقراء وإقامة الندوات الدينية. وقد تم تأسيسه سنة ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢ م على نفقة القائم به الخاصة.

أما (جمعية الإمام الشعراني الإسلامية) فإن الغرض من إنشائها أشمل وذات نشاط ديني ثقافي اجتماعي، وقد تم شهرها تحت رقم ٥٣٩ سنة ١٩٧٤^(١). وأهداف الجمعية كما يلي:

(١) الهدف الديني: تحفيظ القرآن الكريم ونشر الوعي الديني للتمسك بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

(٢) الهدف الثاني: إحياء التراث الديني وذلك بإعادة طبع ونشر وتوزيع مؤلفات السادة أئمة الشريعة والتصوف، مع التيسير على الأفراد والهيئات الدينية وللحصول عليها بقيمة التكلفة.

(٣) الهدف الثالث: الاتصال بالمسلمين عامة في جميع دول العالم لإيجاد الترابط الروحي.

(٤) الهدف الرابع: تخصيص مجلة تصدر عن بيت الإمام الشعراني وتوزع بالمجان لنشر كل ما يخص الإسلام والمسلمين وتوزيعها داخل البلاد وخارجها من بلاد العالم الإسلامي.

(٥) الهدف الخامس: تعمير وإنشاء المساجد وتزويدها بالكتب والمراجع الدينية تيسيراً للمسلمين للتزود بالمعارف والثقافة الدينية.

(٦) الهدف السادس: المشاركة المادية والمعنوية والثقافية في جميع المناسبات الدينية المشروعة.

(٧) الهدف السابع: تنظيم الاجتماعات واللقاءات الدينية ودعوة علماء

(١) اشتهرت الجمعية في جريدة الوقائع المصرية، العدد ١٦٤ الصادر في يوم الأحد الموافق الأول من رجب سنة ١٣٩٤ هـ / ١٩٧٤ م.

المسلمين من داخل الجمهورية وخارجها بغرض غرس
الوازع الديني في المجتمع.

(٨) الهدف الثامن: طبع طبعات خاصة من كتاب الله توزع بالمجان تيسيرا
للأفراد للحصول على كتاب الله.

أثر الشعراني

في الحياة الاجتماعية والدينية:

تمثلت في الشعراني خصائص الزعيم الشعبي، فقد كان من فقراء الشعب ولديه الإحساس الصادق بما تعانيه الجماهير الكادحة من قسوة وظلم وفقر، فكان يتألم لآلامهم، ومقدراً تماماً لحالاتهم.

وكانت تكمن في نفسه قوة متمردة على الظلم وأهله وما تقرب إلى الحكام الظلمة وصادقهم إلا ليسخر تلك الصداقة في رفع الأثقال التي النساء أفراد الشعب بحملها كما وضعنا ذلك عند حديثنا عن علاقته بالحكام^(١).

فكرس حياته لخدمة أفراد الشعب سواء لحل مشاكلهم الخاصة وفض المنازعات التي تقوم بينهم، أو برفع المظالم عنهم لدى الحكام وولاية الأمر.

فكان يلجأ إليه كل ذي مشكلة فيجد له الحل السليم لأن حكمه في فض المنازعات وحل المشكلات هو حكم الإنسان الذي تنزهت عن الأغراض نفسه وامتلاً بحب الحق قلبه وصفيت لله روحه وتطهرت سيرته.

ولذلك أحبه الناس والتفوا حوله فكان له مكانة قوية في نفوسهم فاقتدوا بأخلاقه الكريمة، فكان إلى جانب زعامته الروحية مربياً ومصلحاً اجتماعياً.

يقول عنه الأستاذ سرور: (ولقد كان موقف الشعراني في وجه القوة التركية مثلاً في الولاية والوزراء البداية الحقيقية لبناء الشخصية المصرية والمستقلة التي توارت طويلاً تحت حكم المماليك والأتراك حتى وجدت في الشعراني فجرها وصاحبها فتركزت حوله آمالها وأمانيتها وأخذت تتكون حوله شيئاً فشيئاً. أولى المجموعات الشعبية المصرية بخصائصها ومميزاتها لتأخذ دورها التاريخي الذي تجلّى مشرقاً غالباً خلال حملة نابليون على مصر وما تلاها من أحداث)^(٢).

(١) انظر: البحث، ص ٣٧.

(٢) التصوف الإسلامي والإمام الشعراني: طه عبد الباقي سرور، دار نهضة مصر، الفجالة، القاهرة، الطبعة الثانية، ص ١٦٨.

وقد كان للشعراني أيضًا أثرًا لا ينكر في الحياة الدينية فقد أعاد إلى الدين حرارته التي كانت قد فترت إلى حد كبير مع أحداث التاريخ. وحارب المشعوذين ومدعي التصوف الذين اتخذوا من الدين وسيلة للعيش والشحاذة وأنكر على المبتدعة بدعهم وعلى الخارجين على قواعد الكتاب والسنة شطحاتهم. وكان له فضل كبير في أن يقوي رابطة التصوف بالفقه، فالتصوف عنده عمل قائم على العلم بكتاب الله وسنة رسوله. أما التصوف القائم على الجهل بالشرعية فإن صاحبه جاهل لا يصل إلى درجة الكمال الخلقي والمعرفة الكشفية لله.

وكان في ابتعاده عن الوظائف الحكومية والمناصب منطلقًا عظيمًا له فكان حر الحركة في نشاطه الاجتماعي والديني.

ومن الجدير بالذكر أن الشعراني في سلوكه الطريق إلى الله، لم يشغل عن أداء واجبه نحو الجماهير، وبذلك ربط الشعراني بين الدين والدنيا وأحيا الصلة الوثيقة التي لا تنفصم بين الدين والمجتمع، أو بين رسالة السماء التعبدية والناحية الاجتماعية.

مكانة الشعراني:

عرف المترجمون - العرب منهم والمستشرقون للشعراني مكانته.

فقد قال عنه عبد الرؤوف المناوي توفي سنة ١٠٣١ هـ: (لم يكن عنده جمود المحدثين ولا لدونة النقلة بل هو فقيه النظر صوفي الخبر له دراية بأقوال السلف ومذاهب الخلف، وكان ينهي عن الحط على الفلاسفة وينفر ممن يذمهم في حضرته فيقول: (هؤلاء عقلاء)^(١).

وقال عنه المؤرخ الفقيه أبو الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي المتوفى سنة ١٠٨٩ هـ: (كان مواظباً على السنة، مبالغاً في الورع، مؤثراً، ذوي الفاقة على نفسه)^(٢). وقال عنه الحسن الكوهن الفاسي: (تستر بالفقه حتى كمل رشده وطار ذكره واشتغل بالطريق فلاحت عليه بشارات أهل التحقيق، وصار ركناً من أركان الطريق يعتمد عليه وقد أقامه الله رحمة للعباد)^(٣).

وشهد له صاحب المناقب الكبرى وهو من علماء القرن الثاني عشر الهجري بأنه جامعاً بين أنواع العلم المعروفة في عصره وأنه كان مضرب المثل في ثقافته وغزارة مؤلفاته)^(٤). ومن المحدثين نجد الدكتور زكي مبارك يصف الشعراني بأنه أحمق ساذج العقل، ثم يعود فيصفه بأنه ليس بالأحمق فيقول: (وما كتب أي الشعراني، عن نفسه يدل على حمق)^(٥). ويقول عنه أيضاً في نفس الصفحة: (والتعليل نفسه يدل على سذاجة عقلية، غير أنه ما لبس أن قال في موضع آخر: (وما كان الشعراني بالأحمق فكيف وهو

(١) الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية: نسخة خطية بدار الكتب المصرية ٢٥٩ تاريخ، ل ١٤١ و.

(٢) ابن السماد - شذرات الذهب في أخبار من ذهب، مكتبة القدسي، ١٣٥١ هـ، ج ٨، ص ٣٧٣.

(٣) جامع الكرامات العلية في طبقات السادة الشاذلية: الحسن الكوهن الفاس، طبعة أولى، ١٣٤٧ هـ، المطبعة العالمية، ص ١٤٠.

(٤) تذكرة أولي الألباب في مناقب سيدي عبد الوهاب: محيي الدين أبو الأنس المليجي، ص ٤٢.

(٥) التصوف الإسلامي في الآداب والأخلاق: ج ٢، ص ٢٨٣.

الذي أحصيت عليه أنه قال أكثر من خمسين مرة في مؤلفه، العاقل من عرف زمانه فساس أهله بما ينبغي أن يساس به^(١).

فقد وصف الأستاذ الدكتور زكي مبارك الشعراني بالحمق والسذاجة العقلية حيناً أراد أن يسخف كلامه وآراءه، ويصفه بعدم الحمق ليبين أنه حاول بذكائه ودهائه أن يجمع حوله أنصار الشريعة وأصحاب الحقيقة ليسكب الجميع في صفه ويظفر بالزعامة.

فنحن الآن لا نعرف على وجه التحديد، هل الشعراني في رأي الأستاذ الدكتور زكي مبارك أحمق أم ليس بالأحمق؟ وعلى أي حال فالشعراني في نظره لم يخرج عن كونه ماكرًا داهياً كغيره من الصوفية الذين يصفهم بقوله: (وقد استطاع الصوفية بدهائهم المصقول وكبريائهم المكبوت أن يجعلوا كلمة الحرمان هي العليا فما زالوا يغمزون أهل الدنيا ويلمزونهم ويسوئون سمعتهم ويرمقونهم بالبهتان حتى صح عند السواد أن الفقراء هم الملوك حقاً وأن الملوك المتوجين لا يملكون غير الدنيا وهي متاع المفتونين)^(٢).

أما الأستاذ الدكتور توفيق الطويل فإنه يرى أن الشعراني متناقض الآراء^(٣) غير أن سيادته يميل إلى حسن الظن بتفكيره إذ يقول: (ولكننا رغم ما أبنا عنه من وجوه التناقض مع نفسه نميل إلى حسن الظن بتفكيره، وأن كنا على حذر عن المبالغة في تقديره إذ أن في الإمكان - على سبيل الاحتمال - أن نقول: أن كثير من وجوه التناقض في آراءه قد تحراه وقصد إليه عمداً أو اضطر إليه كوسيلة لتحقيق غاية تعلق على كل غاية)^(٤).

(١) المرجع السابق: ص ٢٨٥.

(٢) نفس المرجع السابق: ص ٢٨٥.

(٣) الشعراني إمام التصوف في عصره: د توفيق الطويل، ص ١٤٧.

(٤) نفس المرجع السابق.

ويعني سيادته بالغاية الوصول إلى الزعامة، فقد استطاع أن يستنتج من دراسته للشعراني أنه يسعى للزعامة مما يجعله يقع في التناقض في كثير من الأحيان^(١).

وقد حرص الأستاذ توفيق الطويل على أن يوضح أن صوفينا سعى إلى الوصول إلى الزعامة^(٢)، غير أنه عاد من حيث لا يدري إلى القول بأن الزعامة هي التي سعت إليه لعلو كعبه في التصوف والفقه، ويقول في ذلك: (وقد سعت إليه الزعامة في الفقه والتصوف حتى انفرد بها أواخر عصره، وعند هذين كانت تلتقي وجوه العلم في عصره، وبهما استبد بهوى الجماهير وانتزع إعجاب الفقهاء واستل افتتاح الأمراء ومن إليهم من الحكام حتى أصبت زاويته مركز للحكم السياسي في مصر)^(٣).

ولما كان الأستاذ الدكتور توفيق الطويل يميل إلى حسن الظن بتفكير الشعراني فقد علل ما شعر به من تناقض في آراء الشعراني بقوله: (وربما اقتضانا الإنصاف إلى أن نرد مسلكه "أي الشعراني" إلى غرض نبيل وهو رغبته في إصلاح الأحوال عند الناس واعتقاده بأنه أقدر شيوخ الفقه والطريق على تحقيق هذا الإصلاح ولكنه أساء اختيار الطريق التي تحقق غايته)^(٤).

أما الأستاذ عبد الباقي سرور، فإنه يعتبر الشعراني من رجال المدرسة المحمدية أي رجال السنة الذين لا يحيدون عنها، ويقول: (والشعراني عجيبة من عجائب تلك المدرسة، وإن شئت فعجيبة من عجائب التصوف، وصنعة من صنائع الإيمان ولطيفة من لطائف التقوى، وقبس من أقباس النور المفاض على الأرواح المطهرة العابدة)^(٥).

وكان للمستشرقين دراسات وترجمات حول شخصية الشعراني ومكانته.

(١) انظر: موقف الشعراني من حكام عصره، في حديثنا عن علاقة الشعراني بالحكام في الطور الرابع من أطوار حياة الشعراني في هذا البحث.

(٢) انظر: ش إمام التصوف في عصره، د. توفيق الطويل، ص ١٤٧.

(٣) المرجع السابق: ص ١٤٢.

(٤) نفس المرجع السابق: ص ١٤٩.

(٥) التصوف الإسلامي والإمام الشعراني: طه عبد الباقي سرور، الطبعة الثانية، ص ١٠.

ويقول عنه فولزر: (إن الشعراني كان من الناحية العلمية والنظرية صوفيا من الطراز الأول، وكان في الوقت نفسه كاتباً بارزاً أصيلاً في ميدان الفقه وأصوله، وكان مصلحاً يكاد الإسلام لا يعرف له نظير)^(١).

أما ماكدونالد فيري أن الشعراني يجمع بين أعظم المميزات وأنه واسع العقل مخلصاً لدينه، ومشروعاً أصيلاً إذ يقول عنه: (إنه كان يجمع بين أعظم المميزات، وإنه كان مشروعاً ذا أصالة ونفاذ. وكان عقله من العقول النادرة في الفقه بعد القرون الثلاثة الأولى في الإسلام. وإنه رجل أخلاق تهزه أنفة عالية)^(٢).

وقد اعتبره نيكلسون أعظم صوفي عرفه العالم الإسلامي، وإنه باعث الحركة الفكرية بعد ركود، وأنه مفكر مبدع مبتكر فيقول: (إنه أعظم صوفي عرفه العالم الإسلامي كله، وأنه منذ فتح المغول العالم الإسلامي ركبت الحركة الفكرية في الإسلام واقتصر علماؤه على الجمع والتقليد فلا نجد برأي انطلاق أو إنتاج خصب أو أي أثر لفكر أصيل منير باستثناء شخصيتين شاذتين هما: ابن خلدون المؤرخ والشعراني الصوفي)^(٣).

ولا شك أن الشعراني كان شخصية مجددة وخاصة في الفقه، وقد تنبأ له شيخه جلال الدين السيوطي بأنه سيصير من العلماء العاملين حينما أجازاه بجميع مؤلفاته ومروياته وهو في غضون العاشرة من عمره كما سبق أن أوضحنا عند الحديث عن نشأته الأولى)^(٤).

(١) انظر مادة شعراني: Encyclopedia of religion and Ethics, Volume XI , P. ٤٤٨.

(٢) Macdonald: Muslim Theology Jurisprudence and Constitutional Theory, New York, ١٩٠٣, p. ٢٧٩.

(٣) Nicolson: A. Literary History of the Arabs, Paress , ١٩٦٦, p. ٤٦٤.

(٤) انظر: الطبقات الصغرى للشعراني: تحقيق عبد القادر أحمد عطا، مكتبة القاهرة، سنة ١٣٩٠ هـ

ويجب عند تقنين شخصية الشعراني ألا نغفل ظروف العصر الذي ظهر فيه ومدى التخلف الثقافي والفكر الذي غلب على روح العصر، وما لهذا من تأثير أكيد في جميع أنواع الإنتاج الفكري حينذاك، فالشعراني وإن كان يعتبر بحق مجدداً في الفكر الإسلامي، إلا أنه تحدث في مواطن كثيرة من مؤلفاته عن الجن والكثير من الأمور الغيبية، وقد يكون بعض تلك الأحاديث مدسوسة عليه حيث أن بعض مؤلفاته، كما سبق أن أوضحنا قد تعرضت لدس خصومه.

حقاً وكما يقول عبد الباقي سرور: أن الجن مخلوقات موجودة وذكرت في القرآن الكريم ولا سبيل لنا في إنكارها طالما نحن نؤمن بالقرآن، غير أن صوفينا أسرف في الحديث عنها في بعض مصنفاته، وإن كان هذا يجب إلا يبعدنا عن إحقاق الحق وإبراز ما تميز به صوفينا من جوانب وضاعة لا يمكن إغفالها بل أنها تسطع مضيئة من ثانيا ما ترك للأجيال من ثروة فكرية وتراث غزير خالد، وكفى بالشعراني أنه لم يخالف الكتاب والسنة والتزم بها التزاماً تاماً، وخلق تصوفه تماماً من الشطحات الصوفية، ودعا إلى الجمع بين العلم والعمل وجعل شرط الصوفي لكي يكتمل في طريق التصوف أن يكون متفقهاً في علوم الشرع كما كان له دوره في مواجهة مدعي التصوف والتصدي لهم ومحاربة من يأكل دينه والوقوف ضد أي بدعة في الدين.

وقام في مجال الشريعة بعمل لم يسبق إليه وهو التوفيق بين المذاهب الأربعة في الفقه في كتابه "الميزان" وكان له إنتاجه الفكري في معظم العلوم التي عرفها عصره. وإنه كان نزيهاً في حياته الخاصة، عفيف النفس، لم تمتد يده لتأخذ عطاء^(١) من حاكم أو محكوم، وساهم مساهمة فعالة في حل مشاكل الشعب المصري وحاول جهده أن يرفع الظلم عن كل متظلم لاذ به، وأن يفرج كرب من يقصده.

(١) كان الشعراني يستأجر الأراضي الزراعية من ملاكها ويستأجر من يزرعها له وينفق من ريعها على نفسه وعلى أسرته، انظر لطائف المنن والأخلاق للشعراني، ج ١، ص ١٣٩.

الفصل الثاني

مصنفات الشعراني

- ١- تمهيد.
- ٢- التصنيف الأبجدي لمصنفات الشعراني.
- ٣- التصنيف حسب الموضوع:
 - أولاً: مصنفات الشعراني في التصوف.
 - ثانياً: مصنفات الشعراني في الفقه.
 - ثالثاً: مصنفات الشعراني في أصول الفقه.
 - رابعاً: مصنفات الشعراني في الأخلاق الدينية.
 - خامساً: مصنفات الشعراني في علم الكلام.
 - سادساً: مصنفات الشعراني في النحو.
 - سابعاً: مصنفات الشعراني في علم الحديث.
 - ثامناً: مصنفات الشعراني في علم التاريخ.
 - تاسعاً: مصنفات الشعراني في الطب.
- ٤- التصنيف الزمني لمصنفات الشعراني:
 - أولاً: مصنفات محددة التاريخ.
 - ثانياً: مصنفات مؤرخة على سبيل الترجيح.
 - ثالثاً: ما تعذر تحديد تاريخه من المصنفات.
- ٥- تعقيب على المصنفات.
- ٦- تقسيم الكتاب والمستشرقون لمصنفات الشعراني.

الفصل الثاني

مصنفات الشعراني

تمهيد:

يعتبر الشعراني فريد عصره في كثرة التأليف والتصنيف في شتى فروع العلم التي عرفها عصره، وقد انتشرت مصنفاته انتشاراً واسعاً في أرجاء العالم الإسلامي كالحجاز، تركيا، إيران، الجزائر، تونس والمغرب وغيرها من البلاد الإسلامية، كما يوجد بعضها في المكتبات المختلفة في البلاد الأوروبية والهند وغيرها.

وقد تعرضت مصنفات الشعراني للدس، فكان خصومه يدخلون عليها الزيادات التي تخالف الشرع، ويشير الشعراني إلى ذلك الدس في الكثير من مصنفاته ويحذر القارئ منه.

فزيف خصوم الشعراني كتابه (البحر المورود في المواثيق والعهود) فأضافوا إليه من العقائد ما يخالف الشرع وكتبوا عدة نسخ مزيفة وأرسلوها إلى الحجاز وتركيا وإلى العلماء في مصر، وأثاروا بذلك فتنة عظيمة، كذلك زيفوا مقدمة كتابه (كشف الغمة عن جميع الأمة)، ولم تخمد الفتنة إلا بعد أن أرسل الشعراني النسخ الأصلية التي عليها خطوط العلماء وإيجازاتهم فوجدا أنها خالية مما جاء على النسخ التي تعرضت للدس من عقائد زائفة^(١).

وكان الشعراني يهتم كثيرا بأن يضع علماء عصره من أهل المذاهب الأربعة إيجازاتهم على النسخة الأصلية من كل مؤلف ليقروا أن ما جاء به من مادة علمية يتفق مع ظاهر الكتاب والسنة الشريفة. وبهذه الطريقة استطاع الشعراني أن يقف على أي زيادة أو تحريف يدخل على النسخ الأخرى التي تنقل عن النسخة الأصلية وبذلك استطاع أن يبرئ نفسه مما ينسب إليه من البدع والأمور المخالفة للدين.

وقد اعتمدنا في إحصاء مصنفات الشعراني على أربعة مصادر هي:

(١) انظر: اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر، ج ١، ص ٧.

١- كتب الشعراني نفسه، فقد ذكر في كتابه "لطائف المنن"^(١) بعض مصنفاته التي بلغ عددها أربعة وعشرون كتاباً، ومن الجدير بالذكر أن الشعراني فرغ من تأليف "لطائف المنن" سنة ٩٦٠ هـ وقد عمّر بعدها حوالي ثلاثة عشر عاماً وله خلال تلك السنوات مصنفات أخرى عديدة، وقد وقعنا عليها.

٢- كما اعتمدنا على كتب التراجم العربية القديمة وأولها ما ذكره عبد الرؤوف المناوي^(٢) الذي أحصى للشعراني اثنين وثلاثين مصنفاً ولم يذكر عدد مصنفات الشعراني واكتفى بقوله: (تصدى للتأليف فألف كتباً كثيرة). وكتاب شذرات الذهب في أخبار من ذهب^(٣)، جاء به أسماء خمسة وعشرون مصنفاً للشعراني.

أما صاحب المناقب الكبرى^(٤) فيقول: (أن مؤلفات الشعراني تزيد على ثلاثمائة كتاب، وأورد منها أسماء مائة وثمانية كتاباً - وانفرد بذكر هذا العدد الكبير من مصنفات الشعراني).

٣- ثم هناك الدراسات الحديثة عن الشعراني سواء العربية منها أو الأجنبية فقد جاء "بالخطط التوفيقية الجديدة"^(٥) أن مصنفات الشعراني تزيد على السبعين كتاباً واكتفى صاحبها بذكر ستة وعشرين كتاباً منها.

وجاء في فهرس الفهارس^(٦) أن مؤلفات الشعراني تزيد على الثلاثمائة كتاباً في علوم الشريعة وآلاتها. وهذا الرقم يتفق مع ما ذكره الأستاذ الدكتور توفيق الطويل لمصنفات الشعراني^(٧).

-
- (١) لطائف المنن والأخلاق: في بيان وجوب التحديث بنعمة الله على الإطلاق، ص ٤٣ - ٤٤.
 (٢) الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية: عبد الرؤوف المناوي، نسخة خطية بدار الكتب المصرية ٢٥٩ تاريخ.
 (٣) شذرات الذهب في أخبار من ذهب: عبد الحي بن العماد الحنبلي، ج ٨، ص ٣٧٢.
 (٤) تذكرة أولي الألباب في مناقب سيد عبد الوهاب، محيي الدين أبو الأنس المليجي، ص ٦٨.
 (٥) الخطة التوفيقية الجديدة: علي مبارك، ج ١٤، ص ١٠٨.
 (٦) فهرس الفهارس: محمد إدريس الكتاني، ص ٤٠٥.
 (٧) الشعراني إمام التصوف في عصره: د. توفيق الطويل، ص ٣.

وقد أحصى له المستشرق الألماني بروكلمان^(١) أربعة وستين مصنفًا بعضها مخطوط والآخر مطبوع.

كما جاء في دائرة المعارف الإسلامية^(٢) أسماء عشرون كتابًا.

أما دائرة المعارف الدينية والأخلاقية^(٣) فقد جاء بها أن مصنفات الشعراني تزيد على السبعين كتابًا وإن اثنتين وأربعين منها تعد ابتكارًا.

٤- وقد جاء في فهرس المكتبات عن مصنفات الشعراني ما يلي:

جاء في فهرس المكتبة الأزهرية الخاص بالفقه العام خمس مؤلفات، وبالجاء الخاص بالآداب والفضائل أسماء كتابين، والجزء الخاص بأصول الفقه جاء به أسماء كتابين، والجزء الخاص بالتصوف أثبت واحد وأربعين كتابًا، وبذلك يكون جملة ما جاء من كتب الشعراني في فهرس المكتبة الأزهرية حوالي خمسون كتابًا ما بين مطبوع ومخطوط.

وأما فهرس مخطوطات دار الكتب المصرية فذكر للشعراني به أسماء ثمانية وعشرون كتابًا.

وهناك فهرس المكتبة البلدية بالإسكندرية التي تحتوي على أسماء سبعة كتب للشعراني.

وفهرس الخزانة التيمورية يحتوي على أحد عشر كتابًا للشعراني وغير ذلك من فهرس المكتبات الأخرى التي اطلعنا عليها.

٥- كما وجدنا نسخ خطية في بعض المكتبات الخاصة لدى بعض المهتمين بالدراسات الإسلامية.

(١) Brockelman: Geschichte Der Arabischen litteratur, supplement hand II, Leiden, ١٩٣٨, p. ٤٦٤-٤٦٧.

(٢) The Encyclopedia of Islam, Volume IV, ١٩٣٤, p. ٣١٨-٣١٩.

(٣) Encyclopedia of Religion and Ethics: Volume XI, p. ٤٤٨.

وليس هناك مصدرًا واحدًا من تلك المصادر يمكن أن يعد كاملاً، فلم يكن أمامنا إلا محاولة الجمع والمقارنة بينها جميعاً لنقف على تصنيف شامل لمصنفات الشعراني ومن خلال هذه المصادر أمكن الوقوف على ما تم طبعه من المصنفات وما لم يتم طبعه ولا زال مخطوطاً.

ولقد لفت نظري تقارب أسماء الكتب فتنبهت إلى إمكان وجود أكثر من اسم للمصنف الواحد وقد دعم ذلك ما ذكره الأستاذ الدكتور توفيق الطويل^(١) من أن هناك أربع تسميات لأحد كتب الشعراني - الأمر الذي انتهى بنا إلى مراجعة جميع التسميات التي حصرناها في التصنيف الأبجدي من أجل التعرف على ما إذا كانت تشير إلى مصنفات مختلفة كل على حدة أم يعرف بعضها بكتاب واحد.

وإزاء هذا، رجعنا إلى النصوص نفسها للفحص والمقارنة فإذا بنا نكتشف أن هناك تسميات لم ترد في التراجم ولا في الفهارس وإنما هي نسخ غير مرصودة الأمر الذي جعل تعدد التسميات على الكتاب الواحد حقيقة تقتضي منا الدراسة والبحث. وقد تبيننا أن هذا المجهود يجب أن يكون إلى أكثر من نصف مصنفات الشعراني.

وقد اكتشفنا أن البعض الآخر متقارب في التسمية ولكنه ينصب على مصنف مختلف المضمون تماماً مثل: كتابا (اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر، اليواقيت والجواهر في عقوبة أهل الأكابر). فهذان الكتابان يختلف مضمونهما، وإن تشابهت أسمائهما.

وبعض التسميات تختلف تماماً عن بعضها على الرغم من أنها لكتاب واحد كما سيتضح ذلك في ثنايا الفصل.

وقد وقعت على بعض المصنفات التي لم يرد ذكرها في كتب التراجم ولم يشير إلينا بروكلمان وهي مجموعة مخطوطة من ثمانين كتاباً للشعراني بالمكتبة الأزهرية وهي:

١- الطريقة المحمدية وسيلة للسعادة السرمدية.

(١) انظر: الشعراني إمام التصوف في عصره، د. توفيق الطويل، ص ١٥٦.

- ٢- مفتاح الصلاة.
 - ٣- فتح الباب ورفع الحجاب.
 - ٤- حبة المحبة.
 - ٥- كشف القناع عن وجه السماع.
 - ٦- جامع الفضائل وقامع الرذائل.
 - ٧- خلاصة الأخبار.
 - ٨- حياة الأرواح ونجاة الأشباح.
- وقبل أن نشرع في التعريف بالمصنفات نقدم ثبّتاً لها مصنفاً تصنيفاً أبجدياً لتيسير الحصر الأولى لها:

التصنيف الأبجدي لمؤلفات الشعراني: (١)

- ١- الأجوبة المرضية عن أئمة الفقهاء والصوفية.
- ٢- الأخلاق المتبوية المفاضة من الحضرة المحمدية.
- ٣- إرشاد الطالبين إلى مراتب العلماء العاملين.
- ٤- الاقتباس في علم القياس.
- ٥- الأنوار في صحبة الأخيار.
- ٦- الأنوار القدسية في معرفة آداب العبودية.
- ٧- الأنوار القدسية في معرفة بيان العهود المحمدية.
- ٨- الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية.
- ٩- البحر المورود في الموائيق والعهود.
- ١٠- البدر المنير في غريب أحاديث البشير النذير.
- ١١- البروق الخواطف لبصر من عمل بالهواتف.
- ١٢- بهجة النفوس والأحداق فيما تميز به القوم من الآداب والأخلاق.
- ١٣- التتبع والفحص على حكم الإلهام إذا خالف النص.
- ١٤- تطهير أهل الزوايا من خبائث الطوايا.
- ١٥- تنبيه الأغبياء إلى قطرة من بحر علوم الأولياء.
- ١٦- تنبيه المغترين في القرن العاشر على ما خالفوا فيه سلفهم الطاهر.
- ١٧- جامع الفضائل وقامع الرذائل.
- ١٨- الجواهر والدرر الكبرى.
- ١٩- الجواهر والدرر الصغرى.
- ٢٠- الجوهر المصون والسر المرقوم.

(١) هذا التصنيف لكتب الشعراني التي وقعنا عليها بالفعل أو التي ذكرها هو بنفسه في كتبه.

- ٢١- الجوهر المصون في كتاب الله المكنون.
- ٢٢- حبة المحبة.
- ٢٣- حد الحمام على كل من أوجب العمل بالإلهام.
- ٢٤- حزب الشيخ عبد الوهاب الشعراني.
- ٢٥- حقوق أخوة الإسلام.
- ٢٦- حياة الأرواح ونجاة الأشباح.
- ٢٧- خلاصة الأخبار.
- ٢٨- الدرر السنية على الوصية المتبولية.
- ٢٩- درر الغواص على فتاوى سيدي على الخواص.
- ٣٠- الدرر المنشورة في زبدة العلوم المنشورة.
- ٣١- رياض الصالحين.
- ٣٢- سر المسير والتزود ليوم المصير.
- ٣٣- سواطع الأنوار القدسية فيما صدرت به الفتوحات المكية.
- ٣٤- الطبقات الصغرى.
- ٣٥- الطبقات الكبرى.
- ٣٦- الطبقات الوسطى.
- ٣٧- الطريقة المحمدية وسيلة للسعادة السرمدية.
- ٣٨- طهارة الجسم والفؤاد من سوء الظن بالله تعالى والعباد.
- ٣٩- فتح الباب ورفع الحجاب.
- ٤٠- الفتح في تأويل ما صدر عن الكُمل من الشطح.
- ٤١- الفتح المبين في ذكر شيء عن أسرار الدين.
- ٤٢- فرائد القلائد في علم العقائد.
- ٤٣- القواعد الكشفية الموضحة لمعاني الصفات الإلهية.

- ٤٤ - القول المبين في دليل لبس الخرقة والتلقين.
- ٤٥ - القول المبين في الرد على الشيخ محيي الدين.
- ٤٦ - الكبريت الأحمر في علوم الشيخ الأكبر.
- ٤٧ - كشف الحجاب والران عن وجه أسئلة الجان.
- ٤٨ - كشف الشبهات.
- ٤٩ - كشف الغمة عن جميع الأمة.
- ٥٠ - كشف القناع عن وجه السماع.
- ٥١ - لباب الأعراف المانع عن اللحن بالسنة والكتاب.
- ٥٢ - لطائف المنن والأخلاق في بيان وجوب التحدث بنعمة الله على الإطلاق.
- ٥٣ - لوائح الغزلان على كل من لا يعمل بالقرآن.
- ٥٤ - مختصر الألفية لابن مالك.
- ٥٥ - مختصر تذكرة الإمام السويدي في الطب.
- ٥٦ - مختصر تذكرة القرطبي.
- ٥٧ - مدارج السالكين إلى رسوم طريق العارفين.
- ٥٨ - المرید الصادق مع مرید الخالق.
- ٥٩ - مفتاح الصلاة ومراقبة النجاة.
- ٦٠ - مفعم الأكباد في بيان مواد الاجتهاد.
- ٦١ - المقدمة النحوية في علم العربية.
- ٦٢ - المنح السنية على الطريقة المتبوية.
- ٦٣ - منح المنة في التلبس بالشرعة والسنة.
- ٦٤ - المنهج المبين في بيان أدلة المجتهدين.
- ٦٥ - منهج الوصول إلى علم الأصول.
- ٦٦ - الميزان الخضرية.

٦٧- الميزان الكبرى الشعرانية المدخلة لجميع أقوال الأئمة المجتهدين ومقلديهم
في الشريعة المحمدية.

٦٨- نزهة الأفكار.

٦٩- نصيحة الإخوان.

٧٠- اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر.

٧١- اليواقيت والجواهر في عقوبة أهل الأكابر

التصنيف حسب الموضوع:

تمهيد:

كتب الشعراني في مختلف الموضوعات التي كانت سائدة في عصره، فزخرت مصنفاته بهذه الموضوعات، فمنها ما اختص بالتصوف، ومنها ما اختص بالفقه وأصول الفقه، ومنها ما غلب عليه الطابع اللغوي، ومنها ما صنفه في الحديث، وكل هذه الموضوعات تكاد ترتبط بعضها ببعض، فإننا نجدتها جميعا مصنفات في القرآن والحديث وعلومهما.

على إنه لم يكتف بالكتابة في هذه الموضوعات، وإنما كتب في موضوعات أخرى تكاد تكون بعيدة كل البعد عما اشتهر به، فنجد له مصنفات في الطب وعلم الكلام والكيمياء، وبعض هذه الموضوعات تناوله في كتب منفردة، وبعضه جاء في ثنايا ما تضمنته كتب متعددة، كما اختصر كتباً في الطب وأخرى في التصوف على نحو ما سنبينه في موضعه من البحث.

أولاً: مصنفات الشعراني في التصوف

١- فتح الباب ورفع الحجاب:

نسخة خطية ضمن مجموع من ثمانية كتب في مجلد كبير بالمكتبة الأزهرية رقم (٤٩٢) حلیم ٣٣٥٧٦ تصوف، والكتب الثمانية من مؤلفات الشعراني وهي بالترتيب:

١- حياة الأرواح ونجاة الأشباح.

٢- خلاصة الأخبار.

٣- فتح الباب ورفع الحجاب.

٤- جامع الفضائل وقامع الرذائل.

٥- مفتاح الصلاة ومراقبة النجاة.

٦- كشف القناع عن وجه السماع.

٧- الطريقة المحمدية وسيلة للسعادة السرمدية.

٨- حبة المحبة.

وبعضها مكتوبة بخط جيد، ومجدولة بالمداد الأحمر، ويفصل بين كل كتاب والذي يليه ورقة خضراء مزخرفة كتب عليها اسم الكتاب التالي وليس على المخطوطة اسم الناسخ ولا تاريخ النسخ.

والرسالتان الأولى والثانية من المجموعة في علم الكلام، والرسالة الرابعة منها وهي (جامع الفضائل وقامع الرذائل) في الآداب والأخلاق، ورسالة (فتح الباب ورفع الحجاب) هي الرسالة الثالثة وتبدأ من ل ١٣٣ وإلى ١٤١ ظ.

أولها: الحمد لله له العظمة والكبرياء، والصلاة والسلام على سيد الأنبياء ورشد الأنبياء وعلى آله وأصحابه الذين وجدوا الحق عند الفناء وعبدوه عند البقاء... الخ وبعد: فهذه رسالة في تحقيق بعض ما خصه الله تعالى بالإنسان من الفضائل والكرامات والإحسان وسميتها "فتح الباب ورفع الحجاب"، وجعلتها على ثلاثة أبواب والله ملهم الصواب.

مضمونها: تتضمن الرسالة ثلاثة أبواب: الباب الأول في خلق الإنسان، الباب الثاني في التوبة، والباب الثالث في جامعية الإنسان واحتجابه بالسر الإلهي.

آخرها: روى أنه وقف صبي في بعض المغازي ينادي عليه في يوم صائف شديد الحر فأقبلت امرأة حتى أخذت الصبي والصقته على صدرها ثم ألقت ظهرها على البطحاء وجعلته على بطنها تقيه الحر وقالت: ابني... ابني فبكى الناس وتركوا ما هم فيه أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى وقف فأخبروه فسر برحمتهم، ثم قال: يشرهم، أعجبتهم من رحمة هذه لابنها قالوا: نعم، قال: إن الله أرحم بكم من رحمة هذه لابنها، فتفرق المسلمون على أفضل سرور وأعظم بشرى.

٢- مفتاح الصلاة ومراقبة النجاة:

وهي الرسالة الخامسة من المجموعة السابق الحديث عنها تحمل رقم (٩٢٤٢) حلیم ٣٣٥٧٦ تصوف بالمكتبة الأزهرية وتشغل ١٢ ورقة عن ١٩٩ وإلى ١١٠ ظ.

أولها: الحمد لله الذي أمر عباده، بالمحافظة على الصلاة والصلاة الوسطى على من دنى فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى، وعلى آله وأصحابه أئمة الدين... الخ. وبعد، فهذه رسالة سميتها مفتاح الصلاة ومراقبة النجاة جعلتها على ثلاثة أبواب والله الهادي ملهم الصواب.

مضمونها: تتضمن الرسالة ثلاثة أبواب: الباب الأول في كيفية إقامة الصلاة، الباب الثاني فضل صلاة الجمعة، والباب الثالث في النوافل.

آخرها: واتبع سبيل من أناب، من أناب الله تعالى كل حين فإن الطريق مسدودة كلها على الخلق إلا على من اقتفى أثر سيد المرسلين واجتهد في إقامة أهل الدين وأعبد ربك حتى يأتيك اليقين.

٣- كشف القناع عن وجه السماع:

رسالة ضمن مجموعة من ثمان كتب مخطوطة والتي سبق الحديث عنها بالمكتبة الأزهرية رقم (٩٤٢) حليم ٣٣٥٧٦ تصوف تشتمل على ١٢ لوحة من ل ٣١١ ط إلى ٢١٦ ظ وهي الرسالة السادسة.

أولها: الحمد لله الذي لا تأخذه غفلة ولا سنة، والصلاة على سيدنا محمد أفضل من نهى عن السيئة وأمر بالحسنة وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم... الخ. وبعد، فهذه رسالة سميتها كشف القناع عن وجه السماع واعلم أن السماع سر من أسرار الله تعالى ليظهر في الصادقين من العشاق ولا يعرفه حق المعرفة إلا من ذاق.

مضمونها: تتضمن الرسالة تعريف السماع وأنواعه وآدابه وفضله كوسيلة عملية لمجاهدة نفسه في الوصول إلى الوجد والفناء.

آخرها: وعليك بسر الصالحين ومتابعة سيد المرسلين وملازمة باب رب العالمين. اللهم إنا نسألك التوفيق والهدايا والعناية في البداية والنهاية.

٤- الطريقة المحمدية وسيلة للسعادة السرمدية:

رسالة مخطوطة ضمن مجموعة الثمان رسائل التي سبق الحديث عنها وهي: الرسالة السابعة بالمجد رقم (٩٤٢) حليم ٣٣٥٧٦ تصوف بالمكتبة الأزهرية وتشمل حوالي ١٧ من ل ٢١٦ وإلى ٢٣٣ و.

أولها: الحمد لله الذي قدا ما قدا في الأزل ويسر أمور الخلق، وخلق ما خلق وفق حكمته من غير قصور ولا خلل... الخ، وبعد فهذه الرسالة في الطريقة المحمدية وسيلة للسعادة السرمدية جعلتها للصادقين من أهل الإرادة طوبى لهم من عند الله وزيادة.

مضمونها: وتتضمن الرسالة آداب المريد الصادق، وشروط السير في طريق الصوفية ثم يتناول فيها الشعراني الحديث عن أحوال الصوفية، وفي آخرها يناقش الشعراني معنى التوحيد.

آخرها: ولما سئل الشيخ أبو عبد الله الأنصاري عن توحيد الصوفية قال: ما وحد الواحد من واحد إذ كل من وحده جاحد، توحيد من ينطق عن نعته عادية أبطلها الواحد، توحيد إياه ونعت من بنعته لأحد.

٥- حبة المحبة:

رسالة مخطوطة ضمن مجموعة الرسائل الثمانية التي سبق الحديث عنها وترتيبها الثامنة والأخيرة تشتمل على عشر لوحات من ل ٢٢٢ وإلى ٢٣٢ ظ بالمكتبة الأزهرية (٩٤٢) حلیم ٣٣٥٧٦ تصوف.

أولها: الحمد لله الذي أنبت هبة المحبة في قلوب من أحب وأصافي... الخ. وبعد فهذه الرسالة إلى المحبين سميتها حبة المحبة لأنها كمثل حبة أنبتت في سبع سنابل مائة حبة وهي مشتملة على فصول جعلها الله ذريعة الوصول.

مضمونها: يتناول الشعراني في هذه الرسالة الحديث عن مقام المحبة حديثاً مستفيضاً ففي الفصل الأول يتناول الحديث عن محبة الله تعالى - وفي الفصل الثاني - يتحدث عن محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم - وفي الفصل الثالث والأخير يتناول محبة آل البيت.

آخرها: تمت رسالة حبة المحبة، والحمد لله رب العالمين، حمداً يوافي نعمه ويكافئ مزيدة، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والرسل وعلى آله وصحبه وسلم.

٦- الجوهر المصون في كتاب الله المكنون:

مخطوط بدار الكتب المصرية رقم (٢٠ مجاميع) تصوف في مجلد يقام معتاد بخط جيد ومحلي بحلية ذهبية ومزخرف بالألوان الأحمر والأزرق والأصفر، بأوله فهرس، وهو في مجلد ضخيم ضمن مجموعة مخطوطة من كتب الصوفية بعضها للشعراني والبعض الآخر لصوفية غيره.

أوله: بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله فاطر السموات والأرض... الخ وبعد: هذا الكتاب الجواهر المصون في كتاب الله المكنون، ذكرت فيه من علوم القرآن الكريم نحو ثلاثة آلاف علم... الخ.

مضمونه: يتضمن الكتاب تفسير لآيات من القرآن الكريم تفسيراً قائماً على اكتشاف الصوفي والمعرفة الذهبية، وقد ذكر فيه الشعراني ما يقرب من ثلاثة آلاف علم من علوم القرآن، وقد شملت هذه العلوم أغلب لوحات المخطوط.

آخره: هذه علوم وأسرار قل من يعرفها في هذا الزمان ذكرناها حتى ينظر فيها كل من ادعى الولاية، فإن وجد إنه متحقق يعلمها فإنه يكون من الصادقين وإلا فإنه لم يشم للطريق رائحة.

٧- الدرر السنية على الوصية المتبولية^(١):

مخطوطة بالمكتبة الأزهرية رقم (٣٠٣) مجاميع ٩٣٣٦ في مجلد بقلم معتاد مزخرف بالألوان ومجدولة بالمداد الأحمر وبداخل صفحاتها زخرفة باللون الأزرق والأصفر والأحمر، بخط مغربي، جيد مسطرتها ١٧ سطراً مقاس ٢١ × ٢٠ سم. والمخطوطة إحدى كتابين في نفس المجلد، الكتاب الأول (الدرر السنية) الذي نحن بصدد الحديث عنه. والثاني (الشجرة في ذكر النبي والعشرة) لعبد العزيز الدريني. وكتاب الدرر السنية بخط عمار إبراهيم المليتي التونسي، فرغ من كتابته سنة ١٣١٩ هـ وهو ٣٥ ورقة.

(١) ذكرها أبو الأنس المليجي في المناقب الكبرى، ص ٦٨ تحت اسم (الدرر السنية على الوصية المتبولية).

أوله: هذا الكتاب الدرر السنية على الوصية المتبولية تأليف الشيخ العارف بالله تعالى عبد الوهاب الشعراني... الخ وبعد، ومما نقل من خط الشعراني رضي الله عنه أنه قال، شروط الاجتماع بمولانا الخضر عليه الصلاة والسلام ثلاثة، الأولى: أن يكون على السنة لا يتدين ببدعة في قول أو فعل أو اعتقاد، والثانية: ألا يكون له حرص الدنيا فلو خبأ العبد لنفسه رغيفا أو درهما فهو لا يجتمع به، والثالثة: ألا يكون ببطانة غلا ولا حقدا ولا مكررا لأحد من المسلمين.

مضمونه: يتضمن الكتاب بعض الوصايا التي يقدمها أبو إسحق إبراهيم المتبولي للمريدين الذين يسلكون الطريق إلى الله، ويعرض الشعر في تلك الوصايا ويعلق عليها ويشرحها.

آخره: هذا آخر ما تيسر جمعه من الوصية الثانية واسأل الله تعالى المان بفضله أن ينفع به كل من وقع عليه وأن يعالجنا بالعقوبة وإن يحسن عافيتنا في الأمور كلها. كما توجد من الكتاب نسخة خطية أخرى بدار الكتب المصرية (٥٢٣) مجاميع.

٨- سر المسير والتزود ليوم المصير^(١):

توجد منه نسخة خطية بدار الكتب المصرية (٢٠ مجاميع) ضمن مجموعة مخطوطة بقلم معتاد نسخ جيد به حلية ذهبية ومزخرفة بالألوان الأحمر والأزرق والأخضر وبأوله فهرس للكتب التي يضمها المجلد، وليس عليه اسم الناسخ ولا تاريخ النسخ.

أولها: قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾^(٢). يعني أن النظر في المصنوعات وتدبير عجائب المخلوقات والموجودات طريق العقل إلى معرفة رب الأرض والسماوات والاشتغال بذكره في سائر الأوقات.

(١) جاء في هدية العارفين: إسماعيل باشا البغدادي، المجلد الأول، ص ١٥٩.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٩٠.

مضمونها: تتضمن المخطوطة ما يجب على المرید أن يجاهد به نفسه من الرياضات العملية ليصل إلى الحضرة الإلهية ويتحقق بمعرفة الله معرفة وهبية ذو قيمة.

آخرها: تم كتاب سر المسير والتزود ليوم المصير والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

٩- إرشاد الطالبين إلى مراتب العلماء العاملين^(١):

توجد منه نسخة خطية بالمكتبة الأزهرية تحلم رقم (٧٩٦) ٣٣٤٣٠ تصوف صغيرة الحجم بقلم معتاد مسطرتها ٢٥ سطرًا ٢٢ ورقة بآخرها شعر صوفي ليس عليها اسم الناسخ ولا تاريخ النسخ.

أولها: الحمد لله رب العالمين... الخ وبعد: فهذه رسالة شريفة مشتملة على أمور نفيسة ينبغي لطالب العلم ألا يهمل شيئًا منها، لخصتها من كلام العارفين أصحاب الدوائر الكبرى رضي الله عنهم أجمعين، وسميتها إرشاد الطالبين إلى مراتب العلماء العاملين.

مضمونها: تتضمن المخطوطة خمسة فصول هي:

٥- الفصل الأول: في كيفية تنزيل الصحف الإلهية وبيان من أي محل تنزل كلا من أحكام الدين الخمسة.

٦- الفصل الثاني: في بيان حكمة بعث الرسل.

٧- الفصل الثالث: في بيان علم وآداب كاشفة لكل من ادعى العالم.

٨- الفصل الرابع: فلا بأس ببيان سبب مشروعية جميع التكاليف.

٩- الفصل الخامس: ميزان من ذاقها وزن بها كل عمل.

آخرها: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم عدد كل حرف كتب ويكتب أبد الآبدين ودهر الدهرين.

(١) جاء هذا الكتاب في المناقب الكبرى: محيي الدين أبي أنس المليجي، ص ٦٩.

١٠ - تطهير أهل الزوايا من خبائث الطوايا^(١):

نسخة خطية في مجلد بقلم معتاد مجدولة بالمداد الأحمر بأوله حلية ذهبية ١٧ × ١٤ سم، ٢٦٨ ورقة مسطرتها ١٩ سطرا نسخت سنة ١٠٥٤ هـ وليس عليها اسم الناسخ - بالمكتبة الأزهرية (٨٥١) حلیم، ٣٣٩٨٥ تصوف.

أولها: الحمد لله رب العالمين... الخ وبعد: فهذا كتاب نافع ضمته جملة نافعة عن آداب شيخ الزاوية وفقائها بحسب مقامي في الإرث من آدابهم وأخلاقهم.

مضمونها: رتب صوفينا هذه المخطوطة على سبعة أبواب وخاتمة تناول في الباب الأول الآداب والأخلاق التي يجب أن يتحلى بها شيخ الزاوية، أما باقي الأبواب الأخرى فقد خص بها فقراء الزاوية وروادها، وفصل فيها ما يجب عليهم عمله والتحلي به من الأخلاق والسلوك.

وفي الخاتمة ذكر بعض أعلام الصوفية فتحدث عن آدابهم وأخلاقهم.

آخرها: فنسأل الله تعالى من فضله أن يوقظنا في هذه الدار لحل ما فيه صلاحنا وصلاح إخواننا وأن يلطف بنا من سائر الحركات والسكنات إلى أن نجاوز الصراط إنه سميع مجيب.

١١ - رياض الصالحين:

توجد منه نسخة خطية بدار الكتب المصرية تحمل رقم (٧٩٠) تصوف في مجلد صغير ثمانية أوراق مسطرتها مختلفة أوراقها قديمة وبها بقع صفراء ٢٠ × ١٦ سم وليس عليها اسم الناسخ ولا تاريخ النسخ.

أولها: بسم الله الرحمن الرحيم قال الشيخ العارف بالله رسلان الدمشقي كلك شرك خفي وما تبين توحيذك إلا إذا أخلصت... الخ.

(١) جاء في بروكلمان بالملحق ص ٤٦٦، في المناقب الكبرى: أبو الأنس المليجي، ص ٧٠ كتاب باسم (تطهير أهل الزوايا والرواق من خبائث الطوايا والأخلاق)، ونرجح أن يكون هو نفس كتاب (تطهير أهل الزوايا من خبائث الطوايا).

مضمونها: تتضمن المخطوطة الحديث عن بعض المقامات الصوفية كالصبر والرضا، ثم تناول الشعراني فيها الحديث عن الفناء والبقاء والكشف والشهود.

آخرها: بأخر المخطوطة أبيات من الشعر الصوفي كتبت بخط صغير ورسم على شكل مربعات بها حروف.

١٢- حزب الشيخ عبد الوهاب الشنواني:

توجد منه نسخة خطية بدار الكتب المصرية رقم (١٦٣٤) تصوف مكتوبة بخط جيد ومجلدة تجليد فاخر ومحلاة بزخرفة ذهبية وملونة بالألوان الأحمر والأزرق، ٢٠ × ١٦ سم مسطرتها ١٧ سطرا ليس عليها اسم الناسخ ولا تاريخ النسخ، وهي إحدى مجموعة أحزاب عديدة لأعلام الصوفية يضمها مجلد واحد مكون من ٢٥ ورقة ويشمل حزب الشعراني من ل ٢٦ ظ إلى ل ٣٢ و.

أولها: بسم الله الرحمن الرحيم، السلام على الملكين الكريمين الكاتبين الحافظين ورحمة الله وبركاته، أكتب: بسم الله الرحمن الرحيم... الخ.

مضمونها: يتضمن الحزب أدعية آيات الكتاب الكريم ثم الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعلى جميع الأنبياء والرسل.

آخرها: ويقرأ صلاة الغزالي المسماة بالكنز فإذا فرغ منها يقول " لا إله إلا الله تكررهما ما تشاء ثم الله - الله - الله.

١٣- الفتح المبين في ذكر شيء عن أسرار الدين:

توجد منه نسخة خطية بدار الكتب المصرية (٧٩٤) تصوف، وهي صغيرة الحجم ١٥ × ١٤ سم، ٤٤ ورقة مسطرتها ١٧ سطرا، بخط معتاد ليس عليها اسم الناسخ ولا تاريخ النسخ.

أولها: بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين... الخ، وبعد: فهذه آداب وأسرار يحتاج إلى مراعاتها كل من صح له قدم الإرادة اقتبستها من شعاع نور طريق المقربين وجعلتها مقصورة على ركن أسرار الدين.

مضمونها: تتضمن المخطوطة الحديث عن أركان الإسلام الخمسة وهي: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمد رسول الله، وآداب إقامة الصلاة، وآداب الصوم، وحج البيت، والزكاة. كما ذكر فيها آداب الوضوء والغسل.

آخرها: وصلى الله على سيدنا محمد وأزواجه وذريته وأهل بيته أجمعين، وكان الفراغ من تعليق ذلك في يوم الثلاثاء المبارك ثاني عشر شوال المبارك من شهر سنة (ثم لم يذكر السنة).

١٤ - كشف الشبهات:

توجد منه نسخة خطية بدار الكتب المصرية رقم (١٤١١) تصوف، في مجلد صغير مقاس ٢١ × ١٣ سم، مسطرتها ١٩ سطرا، ٩ ورقات بخط سليمان البع سنة ١٢٠٩ هـ بخط نسخ رديء بأوراقها تآكل.

أولها: بسم الله الرحمن الرحيم، اعلم رحمك الله أن التوحيد هو أن الله سبحانه وتعالى واحد، بالعبادة وهو دين الرسل الذي أرسلهم به إلى عباده، فأولهم نوح عليه السلام أرسله إلى قومه... الخ.

مضمونها: تتضمن المخطوطة حديث للشعراني عن التوحيد وعقاب الشرك بالله وشفاعة الرسول صلى الله عليه وسلم للمسلمين يوم القيامة، ثم قصص الأنبياء والرسل.

آخرها: وقال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَيْتُكُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ أَوْ أَتَيْنُكُمْ بِسَاعَةٍ أَعْيَاكُمْ أَوْ أَتَيْنُكُمْ بِسَاعَةٍ أَعْيَاكُمْ أَوْ أَتَيْنُكُمْ بِسَاعَةٍ أَعْيَاكُمْ﴾ (١). والله تعالى أعلم وإليه المرجع والمآب، تم في عشر بقيت من جمادي الآخرة سنة ١٢٠٩ هـ تسعة ومائتي وألف على يد كاتبها سليمان السبع.

١٥ - رسالة الأنوار القدسية في معرفة آداب العبودية (٢):

(١) سورة الأنعام: الآية ٤٠.

(٢) جاء في هدية العارفين: إسماعيل باشا البغدادي، المجلد الأول، ص ٥٠، كما جاء في المناقب الكبرى: محيي الدين أبو الأنس المليجي، ص ٦٨، وفي كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون حاجي خليفة، ج ١، ص ١٩٤، وفي شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ابن العماد الحنبلي، ج ٨، ص ٣٧٢، وذكرها الشعراني في لطائف المنن ضمن ما ذكر من مصنفاته، ج ١، ص ٤٢.

ألفه الشعراني في مستهل حياته الفكرية، ويعد أول مصنف له.

١- توجد منه نسخة خطية بالمكتبة الأزهرية رقم (١٥)، ١٠١٦ تصوف، في مجلد بقلم معتاد بخط علي بن علي الأُزْبَكَاوِي الشافعي سنة ١٢٠١ هـ بها أكل أرضه في ١٠٩ ورقة مسطرتها ٢١ سطرا مقاس ٢٢ × ١٩ سم.

أولها: الحمد لله رب العالمين حمدا يوافي نعمه ويكافئ مزيده... الخ. وبعد ولما كان يوم الاثنين سابع عشر رجب الفرد سنة أحد وثلاثين وتسعمائة تحرك عندي خاطر قوي يطلب مقامات الأولياء رضي الله عنهم وازدريت جميع ما أن فيه وتكدر بذلك عيشي لعلمي أن في ذلك عدم رضا بما قسمه الله تعالى وخفت سوء العاقبة والمقت... الخ.

مضمونها: تتضمن الرسالة ثلاثة أبواب وخاتمة:

الباب الأول: تناول فيه الشعراني آداب العبودية على الإطلاق.

الباب الثاني: تناول فيه آداب طلب العلم النافع.

الباب الثالث: جعله في آداب الفقراء السالكين.

ثم خاتمة للرسالة في بيان جملة عن المقامات الصوفية وهي عمدة الرسالة كما يقول الشعراني.

آخرها: وقد قربنا لك الطريق فافهم ذلك فهما الله وإياك ونسأل الله أن يحففنا بالعبودية وإنه على كل شيء قدير.

طبعت هذه الرسالة طبع حجر بالقاهرة سنة ١٢٦٩ هـ ثم ١٢٧٧ هـ، كما جاء ذلك في بروكلمان^(١).

طبعت سنة ١٣١٧ هـ على هامش كتاب الطبقات الكبرى للشعراني وهذه الطبقات كانت جميعها طبعات تجارية.

Brockelman: Geschichte Der Arabischen litteratur, (١)
supplementband II, Leiden, Brill, ١٩٣٨, p. ٤٦٤.

١٠٦ _____ الإمام عبد الوهاب الشعراني وتصوفه

٢- توجد من الرسالة نسخة خطية بالمكتبة الأزهرية أيضًا رقم (٧٨) ٤٩٣٣ تصوف.

٣- ونسخة ثالثة بالمكتبة الأزهرية (٨١٨) مجاميع ٤٩٤٠ تصوف.

٤- كما توجد منها نسخة خطية بدار الكتب المصرية (١٢٣ م) وتوجد بدار الكتب أيضًا ثلاث نسخ طبعة حجر رقم (٣٤، ٦٨٣، ٢٦٩٣).

٥- بالمكتبة البلدية بالإسكندرية توجد نسخة خطية رقم (ن ١٢١٦ ج)

١٦- الأنوار القدسية في بيان العهود المحمدية^(١):

طبع هذا الكتاب مرارا بالقاهرة، سنة ١٢٧٨ هـ، ١٣٠٨ هـ وطبع هامش البحر المورود في الموثيق والعهود للشعراني سنة ١٣٢١ هـ وذكر بروكلمان أنه طبع بالأستانة سنة ١٢٨٧ هـ وبالقاهرة ١٣١٩ هـ ولم يحقق هذا الكتاب تحقيقا علميا وكانت جميع طبعاته تجارية.

أما عن النسخ الخطية:

١- فتوجد منه نسخة خطية بدار الكتب المصرية رقم (٦٩٤) تصوف.

٢- كما توجد منه نسختان خطيتان بالمكتبة الأزهرية أرقام (١٠٢)، ٥٦٩٧ تصوف، (٨٧) ٤٩٣٣ تصوف.

٣- وتوجد نسخة خطية بالمكتبة البلدية بالإسكندرية (ن ٩٨٢ ب). وهناك نسخة خطية ثالثة بالمكتبة الأزهرية تحمل رقم (٥٦٥)، ٢١٥٠٣ تصوف في مجلد بقلم نسخ ومجدولة بالمداد الأحمر مسطرتها ٢٤ سطرا، مقاس ٢٥ × ١٦ سم عدد أوراقها ٤٠٨ ورقة بقلم علي محمد كمال وتم نسخه سنة ١١٤١ هـ.

أولها: الحمد لله رب العالمين واشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين، واشهد أن محمد عبده ورسوله... الخ: وبعد: فهذا كتاب نفيس لم يسبقني أحد إلى وضع مثله

(١) ذكر الشعراني في لطائف المنن والأخلاق ضمن ما ذكر من مصنفاته، ص ٤٣ كتاب (لوائح الأنوار القدسية في بيان العهود المحمدية)، كما ذكر بروكلمان في الملحق ص ٤٦٤، كتاب للشعراني باسم: (مشارك الأنوار في بيان العهود المحمدية) ويحتمل أن يكون هو نفس الكتاب السابق الذكر.

ولا أظن أحد نهج على منواله ضمنته جميع العهود التي بلغني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من فعل المأثورات وترك المنهيات وسميته: لوائح الأنوار القدسية في بيان العهود المحمدية.

مضمونها: تتضمن ٣١٨ عهودا قطعها الشعراني على نفسه وهي جميعها عبارة عن تعهد من الشعراني بالعمل بالكتاب والسنة والسير في طريق الصوفية وإتباع آداب الطريق.

آخرها: روى البيهقي بإسناد جيد مرفوعا تعوذوا بالله من جب الحزن أو قال وادي الحزن قيل يا رسول الله وما جب الحزن؟ قال: واد في جهنم أعد للقراء المرائين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم. والأحاديث في ذلك كثيرة مشهورة في كتب الترغيب والترهيب وغيرهم من الكتب، وفي هذا القدر كفاية، والله سبحانه أعلم وهو أرحم الراحمين وليكن ذلك آخر كتاب لوائح الأنوار القدسية في بيان العهود المحمدية.

١٧- الأجوبة المرضية عن أئمة الفقهاء والصوفية^(١):

طبع هذا الكتاب طبعة تجارية بالقاهرة سنة ١٢٦١هـ.

١- توجد منه نسخة خطية بدار الكتب المصرية رقم (٢٥) تصوف، بقلم معتاد مسطرتها ٢١ سطرا مقاسها ١٦ × ١٢ سم بها ثقب تشتمل على ٢٨٨ ورقة ليس عليها اسم الناسخ أو تاريخ النسخ.

أولها: بسم الله الرحمن الرحيم، ذو الفضل والجود الذي اصطفى من عباده أقواما لحضرته فخضعوا لعزته وكبريائه... الخ، وبعد: فهذا كتاب نفيس ضمنته جملة صالحة من العلوم الدنية والأحوال السنية والأخلاق الذكية والأجوبة المترتبة عن أئمة الفقهاء والصوفية.

(١) ذكره بروكلمان في الملحق ص ٤٦٥، جاء في المناقب الكبرى: أبو الأنس المليجي ص ٦٩، وفي هدية العارفين: إسماعيل باشا البغدادي، المجلد الأول، ص ٥٠، كشف الظنون: حاجي خليفة، المجلد الأول، ص ١٩٤.

مضمونها: تتضمن مقدمة وعشرة أبواب وخاتمة، ذكر الشعراني في المقدمة جملة من علوم الصوفية:

في الباب الأول: يوضح أن التصوف ليس أمراً خارجاً عن الشريعة الإسلامية.

الباب الثاني: يبين جهل من قال أن مشايخ السلف لم يذوقوا شيئاً من المقامات وكانوا متعبدين فقط.

الباب الثالث: ذكر فيه أن الحقيقة والشريعة أمران متلازمان.

الباب الرابع: يوضح فيه أن القوم يصلوا أولاً إلى درجة الاجتهاد المطلق في الشريعة ثم يصلون إلى الحقيقة.

الباب الخامس: نبذة عن أخلاق القوم.

الباب السادس: أثنى فيه على الصوفية العلماء وعلومهم.

الباب السابع: ذكر فيه إنكار الفقهاء على الصوفية من المصالح والفوائد.

الباب الثامن: ذكر فيه سبب رمز القوم علومهم بعبارات لا يفهمها غيرهم.

الباب التاسع: في تأويل كلمات صدرت عن محيي الدين بن عربي وغيرهم من الصوفية في حال غيبتهم.

الباب العاشر: يوضح فيه عذر القوم في استعمال الرمز.

الخاتمة: ذكر فيها جملة من الأحوال التي تميز الصوفية عن الفقهاء والأحوال التي تميز الفقهاء عن الصوفية.

آخرها: فانظر يا أخي نفع الأستاذين لمريديهم والحمد لله رب العالمين.

انتهى كتاب الأجوبة المرضية عن أئمة الفقهاء والصوفية والحمد لله رب العالمين.

كما توجد من الكتاب نسختان خطيتان بدار الكتب المصرية أرقامهما: (١٩٣)،
تصوف، (١١٤م) تصوف.

١٨- القول المبين في دليل لبس الخرقه والتلقين^(١):

طبع بالقاهرة سنة ١٢٥٣هـ، ١٣٤٣ هـ طبعات تجارية.

١- توجد منه نسخة خطية بدار الكتب المصرية برقم (٧٤١) تصوف، بخط مغربي مجداول بالمداد الأحمر مقاس ٢١ × ١٩ سم مسطرتها ٢١ سطرا مكونة من خمس لوحات فقط وليس عليها اسم الناسخ ولا تاريخ النسخ.

أولها: هذه رسالة لطيفة وعمرة شريفة ضمنتها لإخواننا المحبين في الله لطريق الصوفية، مشتملة على ذكر سند التلقين للذكر ولبس الخرقه وفي آداب الذكر التي اجتمع عليها المشايخ رضي الله عنهم وسميتها القول المبين في دليل لبس الخرقه والتلقين.

مضمونها: تتضمن الرسالة سند تلقين الذكر وسند لبس الخرقه الصوفية من الشعراني إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بسند متصل من مشايخ الطريق، وبآخر الرسالة يتناول الشعراني الحديث عن آداب الذكر.

آخرها: فيمر الذاكر على هذه الآداب الثلاثة فإن نعمة الذكر إنما تتم بها واعلم أن من لم يمكن له شيخ فالشيطان شيخه.

٢- وتوجد من الرسالة نسخة خطية بدار الكتب المصرية تحت رقم (١ مجاميع) تصوف.

٣- كما توجد منها نسخة خطية بالمكتبة الأزهرية رقم (٩٦٠) حلیم ٣٣٥٩٤ تصوف.

١٩- الجوهر المصون والسر المرقوم فيما تنتجه الخلوة من الأسرار والعلوم^(٢):

(١) ذكره بروكلمان في الملحق ص ٤٦٥، كما ذكره في المناقب الكبرى أبو الأنس المليجي ص

(٢) جاء في بروكلمان بالملحق ص ٤٦٦ كتاب الشعراني يحمل اسم (الجوهر المصون والسر المرقوم فيما تنتجه الخلوة من الأسرار والعلوم)، ونحن نرجح أن يكون نفس الكتاب المذكور أعلاه هدية العارفين: إسماعيل باشا البغدادي، المجلد الأول، ص ٥٢.

طبع بالقاهرة سنة ١٢٨٧هـ، طبعة تجارية، وقد عثرنا على نسخة خطية منها بالمكتبة الأزهرية رقم (٨٥٨) حلیم، ٣٣٤٩٢ بقلم معتاد مجدولة بالمداد الأحمر عدد أوراقها ١٢٦ ورقة مسطرتها ٢٣ سطرا مقاسها ٢٩ × ١٧ سم ليس عليها اسم الناسخ ولا تاريخ النسخ ببعض أوراقها تقديم وتأخير.

أولها: الحمد لله رب العالمين واشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين... الخ وبعد، فهذا الكتاب نفيس ليس في ذخائر ملوك الدنيا مثله سميته الجوهر المصون والسر المرقوم فيما تنتجه الخلوة من الأسرار والعلوم، ضمته أسرار هدية وعلوم شريفة فاخرة مجيبة، لا مرقى لأحد إلى تسلق شمس أسرارهِ وعلومهِ بالفكر ولا بامعان نظر... الخ.

مضمونها: تتضمن المخطوطة^(١) حديثا مستفيضا للشعراني عن الخلوة الصوفية ونتائجها وما يستنبطه المختلي الصادق من العلوم وأسرار من القرآن الكريم.

وفي نهاية الكتاب يفرق الشعراني بين السالك والمجذوب.

آخرها: تم الكتاب تكاملت نعم السرور لصاحبه وعفى الإله بفضه وسننه عن كاتبه.

٢٠- المنح السنية على الوصية المتبولية^(٢):

طبع هذا الكتاب بمصر طبع حجر سنة ١٢٧٦هـ ويوجد من هذا الطبع نسخة بدار الكتب المصرية رقم (٢١١ تصوف).

(١) يقول الأستاذ الدكتور توفيق الطويل في نهاية كتابه: الشعراني إمام التصوف في عصره، ص ١٦٥: (أن كتاب الجوهر المصون والسر المرقوم فيما تنتجه الخلوة من الأسرار والعلوم) ربما يكون هو كتاب (الجوهر المصون في علوم كتاب الله المكنون). ولكننا بالبحث تأكدنا أنه ليس هو نفس الكتاب وأن الكتاب الأخير مختلف تماما عن الأول، وقد ذكره بروكلمان على أنهما كتابين منفصلين، كذلك جاء في فهرس المكتبات على أنهما كتابين مختلفين.

(٢) جاء في بروكلمان بالملحق ص ٤٦٦ كتاب الشعراني يحمل اسم (الجوهر المصون والسر المرقوم فيما تنتجه الخلوة من الأسرار والعلوم)، ونحن نرجح أن يكون نفس الكتاب المذكور أعلاه هدية العارفين: إسماعيل باشا البغدادي، المجلد الأول، ص ٥٢.

كما توجد بالدار نسخة أخرى طبع مكة سنة ١٣٠١ هـ رقم ٦٦٥ تصوف وتوجد بالمكتبة الأزهرية نسخة طبع حجر ليس عليها تاريخ الطبع رقم (٩٣٦) حلیم ٣٣٥٧٠ تصوف، كما توجد منه بالمكتبة الأزهرية أيضاً نسخة خطية رقم (٩٠) ٥٠٠١ تصوف، في مجلد بقلم نسخ مجهول صاحبه في ٥٨ ورقة مسطرتها مقاس ١٧ × ١٥ سم.

أولها: بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله رب العالمين... الخ وبعد: هذا كتاب المنح السنية على الوصية المتبولى حاولت فيه شرح وصية العارف بالله أبي إسحق إبراهيم المتبولى... الخ.

مضمونها: تتضمن المخطوطة شرح للشعراني على وصية أبي إسحق إبراهيم ابن علي الأنصاري المتبولى الأحمدي، وهي في الآداب الصوفية والأخلاق الدينية.

آخرها: تم بحمد الله تعالى كتاب المنح السنية على الوصية المتبولى ادعو الله أن ينفع به كل من طالعه، وأن يوفق المؤمنين للعمل بما جاء به.

٢١- الجواهر والدرر الوسطى:

طبع بمصر بمطبعة شاهين سنة ١٢٧٦ هـ، وتوجد منه نسختان خطيتان بدار الكتب المصرية (٢١١) تصوف، (٢٠) مجاميع،، والنسخة الثانية في مجلد بقلم معتاد مسطرتها ٢١ سطرا مقاس ١٧ × ١٥ سم ليس عليها اسم الناسخ ولا تاريخ النسخ.

أولها: بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله رب العالمين... الخ وبعد: هذا الكتاب الجواهر والدرر الوسطى انتخبته من فتاوى شيعي وقُدوتي إلى الله الشيخ علي الخواص... الخ.

مضمونها: تشتمل هذه المخطوطة على بعض فتاوى للشيخ علي الخواص شيخ الشعراني وأستاذه ويشرح الشعراني فيها معاني بعض هذه الفتاوى ويعلق عليها وهي جميعها تتعلق بالأمور الدينية.

آخرها: هذا آخر ما تيسر جمعه من فتاوى سيدي علي الخواص والحمد لله رب العالمين، ونسأل الله تعالى أن يحفظنا بالعبودية إنه على كل شيء قدير.

٢٢- الجواهر والدرر الكبرى^(١):

(درر الغواص على فتاوى الخواص)

طبع هذا الكتاب مرارا بمصر وكانت جميعها طبعات تجارية وطبع للمرة الأولى سنة ١٢٧٧ هـ، وطبع بهامش كتاب (الإبريز) للسيد عبد العزيز الدباغ السجلماسي سنة ١٣٠٤ هـ بمصر.

توجد منه نسخة خطية بالمكتبة الأزهرية (١٦٤) ٥٧٩٣ تصوف، مسطرتها ٢٣ سطرا، مقاس ٢١ × ١٥ سم، ٣٢٠ صفحة بخط مجهول ناسخه، بآخرها أجازات لعلماء عصر الشعراني، نسخت سنة ١٦٠٤ هـ.

أولها: بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على أشرف المرسلين... الخ: وبعد فقد التمس مني بعض الإخوان الخصيصين بي حفظهم الله من الشيطان أن اذكر لهم ما تلقيته من شيخي وقودتي إلى الله تعالى الشيخ الكامل الراسخ المحقق صاحب الكشوفات والمعارف الدنية سيدي علي الخواص بمصر المحروسة رضي الله عنه... الخ.

مضمونها: تتضمن المخطوطة أسئلة يوجهها الشعراني لشيخه علي الخواص وأجوبة من الخواص عليها. وجميعها تتعلل بالتصوف وأمور الدين وشرح للخواص لبعض آيات القرآن الكريم.

آخرها: فكان العلم عوننا، والسهر عبادة، إذا أخذني القلب بالتوجه إلى الله، توجد من الكتاب نسخة خطية بمكتبة المسجد الأحمدى بطنطا بخط أحمد صدقة سنة ١٠٩٤ هـ في ١٨٠ صفحة مقاس ٢٢ × ١٣ سم. (خ ٣٠ - ع ٧٢٦).

كما توجد منه نسخة خطية بالمكتبة البلدية بالإسكندرية (ن ٥٢٤ - ب).

(١) ذكره الشعراني ضمن مصنفاته في لطائف المنن، ج ١، ص ٤٣، ذكر في المناقب الكبرى، أبو الأنس المليجي، ص ٦٨ على أنه كتابين الأول باسم (الجواهر والدرر الكبرى) وقال أنها نحو مجلدين، ثم ذكر بعدها (الجواهر والدرر)، وقال إنها ست مؤلفات غير الأولى كل كتاب منها على غير طريقة الآخر، ولم نجد مثل هذه الإشارة في غيره من المراجع أو فهرس المكتبات.

كتبت مجلة هسبريس. Hespress الإسبانية عن هذا الكتاب في ج ١٢، ص ١٢٥.
كما كتبت عنه مجلة الدراسات الإسلامية ج ١، ص ١٣٢٩.
وقد ذكر كل من بروكلمان والأستاذ الدكتور توفيق الطويل^(١) أن كتاب (الجواهر والدرر الكبرى)، وكتاب (درر الغواص على فتاوى الخواص) كتابان وهما في الحقيقة كتاب واحد وهذا مما وصلنا إليه بالبحث الدقيق.

٢٣- اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر:

طبع بالقاهرة سنة ١٢٧٧ هـ وطبع بهامش الكبرى الأحمر للشعراني سنة ١٣٠٥ هـ وطبع بمصر سنة ١٣٠٦ هـ ثم سنة ١٣٢١ هـ وسنة ١٣٥١ هـ. وجاء في بروكلمان إنه طبع سنة ١٣٧١ هـ، ١٣٧٦ هـ وجميعها طبعات تجارية.

توجد منه عدة نسخ خطية بدار الكتب تحمل الأرقام التالية:

(٢٣١)، (٣٥٠)، (٥٢٢)، (٦٠٩)، تصوف.

كما توجد نسخة خامسة ضمن مجموعة مخطوطة (٢٠٣) تصوف.

ومنه نسخة مخطوطة بالمكتبة البلدية بالإسكندرية (ن ٢٢٠٥ - ج) وهذا الكتاب تلخيص للفتوحات المكية لمحيي الدين بن عربي كما أشار الشعراني إلى ذلك في بداية الكتاب وقد تأكدنا من ذلك بمقارنة نصوص كتاب الفتوحات كما جاء في كتاب اليواقيت والجواهر.

وقد حاول الشعراني فيه المطابقة بين عقائد أهل الكشف وعقائد أهل الفكر وذكر في الفصلين الأولين نبذة عن أحوال محيي الدين بن عربي وما نسب إليه من اتهامات ودفاع الشعراني عنه، ثم ذكر في الفصل الثالث إقامة العذر للصوفية في استعمالهم العبارات المغلقة والرمز، والفصل الرابع ضمنه جملة من الضوابط التي يحتاج إليها كل من يريد تحقيق علم الكلام.

٢٤- المريد الصادق مع مريد الخالق:

(١) الشعراني إمام التصوف في عصره: الأستاذ الدكتور توفيق الطويل، ص ١٥٥.

توجد منه نسخة خطية بالمكتبة الأزهرية (٨١٠) حلیم، ٣٣٤٤٤ تصوف بقلم معتاد بها ثقب، مسطرتها ٢٣ سطرا، ١٦ ورقة مقاس ٣٠ × ١٧ سم، ليس عليها اسم الناسخ ولا تاريخ النسخ.

ولهذا الكتاب من الأسماء سبعة هي:

- ١- المريد الصادق مع مريد الخالق، وهي المخطوطة السابقة.
- ٢- آداب المريد الصادق مع من يريد الخالق، وقد جاء هذا الاسم على نسخة خطية بالمكتبة الأزهرية رقم (٨٠١) حلیم ٣٣٤٣٥ تصوف.
- ٣- كشف أحوال المتصوفة - جاء هذا الاسم على مخطوطة ملك الدكتور ماهر حسن فهمي أستاذ اللغة العربية بكلية البنات بجامعة عين شمس.
- ٤- ردع الفقراء عن دعوة الولايا الكبرى - ذكر هذا الاسم على مخطوطة بدار الكتب المصرية تحمل رقم (٤١١) مجاميع.
- ٥- موازين القاصرين: جاء هذا الاسم على نسخة خطية بدار الكتب المصرية تحمل رقم (٦٩٣) تصوف.
- ٦- موازين الرجال القاصرين: ذكر هذا الاسم صاحب المناقب الكبرى^(١). ونحن لا نستبعد أن يكون هو بعينه كتاب (موازين القاصرين).
- ٧- صحبة المريد الصادق مع مريد الخالق جاء هذا الاسم في كتاب هدية العارفين^(٢) ونحن لا نستبعد أن يكون هو بعينه كتاب (المريد الصادق مع مريد الخالق). وقد يكون هذا الكتاب هو أيضاً (النور الفارق بين المريد الصادق وغير الصادق)^(٣). كما قد يكون نفس الكتاب (منهج الصدق والتحقيق في تفليس غالب المدعين للطريق)^(٤).

(١) المناقب الكبرى: أبو الأنس المليجي، ص ٩٨.

(٢) هدية العارفين: إسماعيل باشا البغدادي، المجلد الأول، ص ٥٨.

(٣) جاء هذا الاسم في المناقب الكبرى، أبو الأنس المليجي، ص ٦٩.

(٤) جاء هذا الاسم في هدية العارفين: إسماعيل باشا البغدادي، إسطنبول سنة ١٩٥١م، ج ١، ص

وقد أوردتها بروكلمان وفهارس المكتبات على أنها كتب متعددة، وعندما اطلعنا عليها وجدناها بالبحث الدقيق أسماء متعددة لمضمون واحد لا يختلف عن نسخة إلى أخرى^(١). والكتاب يتضمن هجوما عنيفا من الشعراني على من يدعي التصوف، وكشف فيه أحوالهم وحذر الناس من كذب دعواهم.

طبع بمصر مرارا سنة ١٢٩٧ هـ، ١٣١١ هـ، ١٣٩٧ هـ، وكانت جميعها طبعات تجارية.

٢٥- البحر المورود في المواثيق والعهود:

هذا الكتاب قد ترض لدس خصوم الشعراني كما سبق أن ذكرنا. طبع بمصر طبع حجر سنة ١٢٧٨ هـ على هامش (لواقح الأنوار القدسية) للشعراني.

وقد جاء في بروكلمان إنه طبع بمصر سنة ١٢٧١ هـ، ١٣٢١ هـ. توجد منه نسخة خطية بالمكتبة الأزهرية في مجلد بقلم معتاد في آخرها إجازات للمؤلف من بعض أشياخه في ٢٩٤ ورقة مسطرتها ٢٣ سطرا مقاس ٢٣ × ١٥ سم بخط محمد بن محمد العزيزي الشافعي، فرع من كتابها سنة ١٢٠٥ هـ تحمل رقم (٨٤١) حليم ٣٣٤٧٥ تصوف.

أولها: بسم الله الرحمن الرحيم وأنا الفقير إلى رحمة ربه عبد الوهاب بن علي بن أحمد... الخ وبعد: هذه عهود ومواثيق أخذت علينا من ساداتنا ومشايخنا الذين عاصرناهم وبعضها اقتبسناها من نور صفائهم وأخلاقهم المحمدية.

(١) أشار الأستاذ توفيق الطويل إلى تعدد أسماء ذلك الكتاب وذكر من تلك التسميات:

- ١- ردع الفقراء عن دعوة الولايا الكبرى.
 - ٢- موازين القاصرين.
 - ٣- المريد الصادق مع مريد الخالق.
 - ٤- صحبة المريد الصادق مع من يريد معرفة الخالق.
- انظر: الشعراني إمام التصوف في عصره، ص ١٥٥.

مضمونها: يتضمن المخطوط العديد من العهود التي قطعها الشعراني على نفسه وتعهد أن يعمل ويتخلق بها، وفي بداية كل عهد يبدأ بعبارة (أخذت علينا العهود من ساداتنا مشايخ الطرق الصوفية رضي الله عنهم أن نفعل كذا - أو لا نفعل كذا). (وهو يختلف عن كتاب الأنوار القدسية في بيان العهود المحمدية).

آخرها: وبعد: فقد وقفت على هذا الكتاب الذي هو تحفة المريد وروضة الأحباب فإذا البحر عبابا، والمشروب الذي يحلو لأهل الطريق شرابا، وترويت فرادى محاسنه الصافي فالله تعالى يبقى مؤلفه، ويبدو من العبارة الأخيرة أن الناسخ قد نقل نسخته من أخرى كانت قد كتبت في حياة الشعراني.

توجد من الكتاب نسخ خطية أخرى بدار الكتب تحمل رقم (٥١٩)، (٦٥٨)، (٧٦٦)، (١٢٥) تصوف.

كما توجد نسخة طبع حجر بدار الكتب أيضاً تحمل رقم (٤١) تصوف. وتوجد منه نسخة خطية بالمسجد الأحمدى بطنطا نسخ متوسط سنة ١١٣٩ هـ في ٣٠٠ صفحة مقاس ٢٠ × ١٤ سم (١٢٢ ع - ٤٧٥٢).

٢٦- الكبرى الأحمر في علوم الشيخ الأكبر^(١):

طبع مرارا في مصر، وطبع لأول مرة طبع حجر سنة ١٢٧٧ هـ ثم طبع على هامش كتاب (اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر) سنة ١٣٠٦ هـ، وجاء في بروكلمان إنه طبع في القاهرة سنة ١٣٤٤ هـ وكانت جميعها طبعات تجارية.

يقول الشعراني في بداية الكتاب: إن الحضرة من كتاب (لواقح الأنوار القدسية) وهذا الأخير كان قد اختصره من (الفتوحات الملكية) لمحيي الدين بن عربي، ويقصد الشعراني بالكبرى الأحمر أكسيد الذهب، فكأن ما جاء بالكتاب من علوم نفيسة كأسيد الذهب، وأما الشيخ الأكبر فهو الشيخ محيي الدين بن عربي، والكتاب يتناول أسرار الشريعة وبيان منازع المجتهدين التي استنبطوا منها أقوالهم كما أشار فيه إلى مبدأ الصوفية في عدم الدخول في الجدل اللفظي، وتحدث عن الله والعالم والإنسان وعلوم

(١) ذكر في شذرات الذهب في أخبار من ذهب: ابن العماد الحنبلي، ج ٣، ص ٣٧٣.

القرآن وغيرها من الموضوعات التي تركها محيي الدين بن عربي (في الفتوحات المكية).

توجد من الكتاب نسخة خطية بالمسجد الأحمدى بطنطا نسخ جيد بخط حسن مصطفى في ٢٢٠ صفحة مقاس ٢٢ × ١٣ سم رقم (٣٥ ع ٧٣٥).

كما توجد منه أربع نسخ خطية بدار الكتب المصرية تحمل الأرقام: (١٩٣)، (٢٧٢)، (٦٠٦)، (١٦٤)، تصوف، كما توجد منه نسخة خطية بالمكتبة الأزهرية تحمل رقم (١١٥) أباطة ٦٤٠٣ تصوف.

٢٧- مدارج السالكين إلى رسوم طريق العارفين^(١):

وله اسم آخر هو: (مدارج السالكين إلى رسوم طريق السالكين)^(٢).

توجد منه نسخة طبع حجر بالمكتبة الأزهرية رقم (٩١٧) حليم، ٣٣٥٥١ تصوف، وهي نسخة قديمة وليس عليها تاريخ الطبع وتحمل الاسم الأول.

ورسالة مدارج السالكين تتكون من خمسة أبواب هي:

الباب الأول: في ذكر سند الشعراني لتلقي الذكر ولبس الخرقة الصوفية.

الباب الثاني: في آداب المريد.

الباب الثالث: في آداب المريد مع شيخه.

الباب الرابع: في آداب المريد مع إخوانه.

الباب الخامس: في مقامات الشيوخ.

توجد منها بدار الكتب المصرية ثلاث نسخ خطية تحمل الأرقام (١٩٠، ٦٨٥،

١٧٨ م)، ذكر بروكلمان^(٣) إنه طبع بالقاهرة سنة ١٣٥٧ هـ.

٢٨- الأنوار في صحبة الأخيار:

(١) جاء هذا الاسم في المناقب الكبرى: أبو الأنس المليجي، ص ٦٩.

(٢) جاء هذا الاسم على نسخة مطبوعة طبع حجر بدار الكتب المصرية رقم ١٦٨ تصوف.

(٣) انظر: Brockelman: Supplement hand , II , p. ٤٦٧.

هذا الكتاب قد حقق تحقيقاً علمياً ويعد من الكتب النادرة التي نالت رعاية في التحقيق، حققه الدكتور عبد الرحمن عميرة وقدم له الأستاذ الدكتور عبد الرحمن ببصار، وطبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية بالقاهرة سنة ١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣ م.

٢٩- الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية:

هذا الكتاب قد حقق تحقيقاً علمياً. حققه وقدم له السيد / عبد الباقي سرور والسيد / محمد عبد الشافي - طبع بدار نهضة مصر للطباعة والنشر.

٣٠- سواطع الأنوار القدسية فيما صدرت به الفتوحات المكية^(١):

جاء في بروكلمان^(٢) إنه طبع بالقاهرة سنة ١٣١٩ هـ.

توجد من الكتاب نسخة خطية بدار الكتب المصرية تحمل رقم (١٤٦ م) في مجلد بقلم معتاد مجدولة بالمداد الأحمر ليس عليها اسم الناسخ ولا تاريخ النسخ. أولها: الحمد لله رب العالمين واشهد أن لا إله إلا الله الحق المبين... الخ.

مضمونها: تتضمن المخطوطة بعض أبواب الفتوحات المكية وقد جمعها الشعراني بإشارة منامية من صاحب الفتوحات واختصرها.

آخرها: تم بحمد الله تعالى كتاب سواطع الأنوار القدسية فيما صدرت به الفتوحات المكية واسأل الله تعالى أن ينفع به كل من وقع عليه.

٣١- تنبيه الأغبياء إلى قطرة من بحر علوم الأولياء:

هذا الكتاب للشعراني لم نقع عليه، وقد أشار إليه في كتابه (إرشاد الطالبين إلى مراتب العلماء العاملين)، قائلاً: (ذكرت في هذا الكتاب من علوم الصوفية نحو أحد عشر وسبعين ألف علم، كل علم منها لا يدرك له قرار ولا يمكن لأحد من غير الأولياء ولو ارتفعت درجته التسلق إلى معرفة علم منها بفكر ومطالعة كتب، بل ولا يعرف

(١) ذكره الشعراني في لطائف المنن ضمن ما ذكر من مصنفاته، ج ١، ص ٤٣.

(٢) انظر: Brockelman: Supplement hand , II , p. ٤٦٧.

أسماءها فضلا عن الخوض فيها، ثم رأيت غالب العقول تحيرت فيه^(١). ويبدو أن هذا الكتاب لم يلق انتشارًا ولا رواجًا لصعوبة فهمه.

٣٢- الفتح في تأويل ما صدر عن الكُمَل من الشطح:

مخطوطة بمكتبة ولي الدين بتركيا: ذكرها الأستاذ الدكتور توفيق الطويل في كتابه (الشعراني إمام التصوف في عصره)^(٢). كما ذكرها بروكلمان^(٣).

والكتاب كما يبدو من عنوانه موضوع الشطح عند الصوفية ومحاولة من الشعراني لتأويل ما صدر عن الصوفية من شطحات.

٣٣- البروق الخاطف لبصر من عمل بالهواتف:

قال الشعراني في (لطائف المنن)^(٤): أنه ألفه قبل عام ٩٦٠ هـ ولم نقع عليه مخطوطا أو مطبوعا.

٣٤- حد الحسام على من أوجب العمل بالإلهام:

تم الشعراني تأليفه قبل عام ٩٦٠ هـ، كما ذكر ذلك في (لطائف المنن والأخلاق)^(٥). ولم نحصل عليه مخطوطا أو مطبوعا.

٣٥- القول المبين في بيان آداب الطالبين^(٦):

(١) إرشاد الطالبين إلى مراتب العلماء العاملين: للشعراني، نسخة خطية بالمكتبة الأزهرية (٩٦) حلیم ٣٣٤٣٠ تصوف ل ٤ ظ، كما جاء في هدية العارفين: إسماعيل باشا، المجلد الأول، ص ٥٦، والمناقب الكبرى: أبو الأنس المليجي، ص ٧٠.

(٢) الشعراني إمام التصوف في عصره: د. توفيق الطويل، ص ١٥٦.

(٣) انظر: Brockelman: Geschichte Der Arabischen litteratur, supplement hand, ١٩٣٨, II. p. ٤٦٥.

(٤) لطائف المنن والأخلاق: الشعراني، ج ١، ص ٤٤. كما ذكر في شذرات الذهب: ابن العماد: ج ٨، ص ٣٧٣ والمناقب الكبرى: أبو الأنس المليجي، ص ٦٨، وفهرس الفهارس: الكتاني، ج ٣، ص ٤٠٥.

(٥) لطائف المنن والأخلاق: ج ١، ص ٤٤، وانظر المناقب الكبرى: أبو الأنس المليجي، ص ٦٨.

(٦) هدية العارفين / إسماعيل باشا البغدادي، ج ١، ص ٥٠.

جاء في هدية العارفين، إلا أننا لم نعثر عليه من كتب الفهارس المخطوطة أو المطبوعة.

٣٦- المنهج المبين في أخلاق العارفين^(١):

جاء في شذرات الذهب ولم نقع عليه مخطوطا ولا مطبوعا، ولم تذكره فهارس المكتبات.

٣٧- وصايا العارفين لعوام التجار والفقراء المسلمين^(٢):

ذكره صاحب المناقب الكبرى ولم نقع عليه مخطوطا ولا مطبوعا.

٣٨- طهارة أجسام الموحدين من سوء الظن بأحد من السالكين^(٣):

لم نقع عليه مخطوطا ولا مطبوعا وجاء ذكره في المناقب الكبرى.

٣٩- الأجوبة عن الأنبياء والمرسلين والصحابة والتابعين^(٤):

جاء في المناقب الكبرى ولم نقع عليه مخطوطا ولا مطبوعا.

٤٠- وصايا المرسلين المتبعة في حضرة رب العالمين^(٥):

جاء في المناقب الكبرى، ولم نقع عليه مخطوطا ولا مطبوعا ولم تذكره فهارس المكتبات.

٤١- القواعد السننية في تحديد أهل الخصوصية^(٦):

جاء في المناقب الكبرى، إلا أننا لم نعثر عليه في أي من كتب الفهارس المخطوطة أو المطبوعة.

(١) شذرات الذهب: عبد الحي بن العماد، ج ٨، ٣٧٤، والمناقب الكبرى: أبو الأنس المليجي، ص ٧٠.

(٢) المرجع السابق: ص ٦٧.

(٣) المناقب الكبرى: أبو الأنس المليجي، ص ٧٠.

(٤) المرجع السابق: ص ٦٨.

(٥) المرجع السابق: ص ٦٩.

(٦) المرجع السابق: ص ٦٩.

٤٢- الفلك المشحون في بيان أن التصوف هو ما عليه العلماء العاملون^(١):

جاء في المناقب الكبرى، غير أننا لم نعثر عليه في أي من كتب الفهارس المخطوطة أو المطبوعة.

٤٣- ريع العبادات على مذهب الصوفية^(٢):

جاء في المناقب الكبرى، غير أننا لم نعثر عليه في أي من كتب الفهارس المخطوطة أو المطبوعة.

٤٤- تفسير القرآن على وجهي الشريعة والحقيقة^(٣):

جاء في المناقب الكبرى، ولم نقع عليه مخطوطاً ولا مطبوعاً ولم تذكره فهارس المكتبات.

(١) المرجع السابق: ص ٦٨.

(٢) المرجع السابق: ص ٧٠.

(٣) المرجع السابق: ص ٧٠.

ثانياً: مصنفات الشعراني في الفقه

١- الميزان الكبرى الشعرانية المدخلة لجميع أقوال الأئمة المجتهدين ومقلديهم في الشريعة المحمدية^(١):

يتكون كتاب الميزان الكبرى من جانبين كبيرين، طبع بمصر مراراً سنة ١٢٧٥ هـ، ١٢٧٩ هـ، ١٣٠٢ هـ، ١٣٠٦ هـ، ١٣١١ هـ، وبهامش كتاب (رحمة الأمة) لمحمد عبد الرحمن الدمشقي سنة ١٣٠٢ هـ، وجاء في بروكلمان أنه طبع بالقاهرة سنة ١٢٧٥ هـ، ١٢٩١ هـ، ١٣٢١ هـ، ١٣٥٤ هـ.

وقد حاول الشعراني في هذا الكتاب أن يوضح أن الشريعة المطهرة بحر يتفجع منه جميع العلوم النافعة كما حاول فيه التفريق بين المذاهب الأربعة في الفقه ويقول في مقدمة الكتاب: (هذه ميزان نفيسة عالية المقدار حاولت فيها ما بنحوه يمكن الجمع بين الأدلة المتغيرة في الظاهر وبين أقوال جميع المجتهدين ومقلديهم من الأولين والآخرين، كذلك لم أعرف أحداً سبقني إلى ذلك في سائر الأدوار، وضعتها بإشارة أكابر أهل العصر من مشايخ الإسلام وأئمة العصر. بعد أن عرضتها عليهم قبل إثباتها). ويستعين صوفينا في توضيح ما يهدف إليه من معاني بالرسم والأشكال الهندسية. يتضمن كتاب الميزان في الجزء الأول:

- ١- فصل فان قال قائل أن حطة أقوال الأئمة يرفع الخلاف.
- ٢- فصل فان قال قائل: فهل يجب عندكم على المقلد العمل بالأرجح.
- ٣- فصل: فان قال قائل: أن أحداً لا يحتاج إلى ذوق مثل هذا الميزان في طريقي صحة اعتقاده... الخ.
- ٤- فصل: فإن طعن طاعن في هذا الميزان... الخ.
- ٥- فصل: وإياك أن تسمح بهذه الميزان فتبادر إلى الإنكار على صاحبها.

(١) ذكرها شذرات الذهب في أخبار من ذهب: ابن اعماد، ج ٨، ص ٣٧٣، اكتفاء القنوع بما هو مطبوع، إدوارد فسنديك: ص ١٠٣، تاريخ آداب اللغة العربية: جورج زيدان، ج ٣، ص ٣٣٥.

٦- فصل فاعلم يا أخي أن مرادنا بالعزيمة والرخصة المذكورتين في هذه الميزان هما مطلق التشديد والتخفيف.

٧- فصل: يوضح لك صحة مرتبتي الميزان.

٨- فصل: فإن قلت أن القياس من جملة الأدلة الشرعية فهل تأتي فيه كذلك مرتبتي الميزان.

٩- فصل: كل من لازم من يعمل بهذه الميزان الذي ذكرنا وترك العمل... الخ.

١٠- فصل: ينبغي لكل مؤمن الإقبال على العمل بكل حديث ورد... الخ.

١١- فصل: فإن يقول قائل: كيف الوصول إلى الاطلاع على عين الشريعة.

١٢- فصل: فإن قلت فإذا انفك قلب الولي عن التقليد... الخ.

١٣- فصل: فإن قلت هذا في حق العلماء في أحكام الشريعة والحقيقة... الخ.

١٤- فصل: فإن قلت أن الأئمة المجتهدين قد كانوا من الكُمل.

١٥- فصل: فإن ادعى أحد من العلماء ذوق هذه الميزان.

١٦- فصل: في تقدير قبول من قال: إن كل مجتهد نصيب.

١٧- فصل: وإياك يا أخي أن تطالب أحدا من طلبة العلم الآن بصدق اعتقاده في أن كل مجتهد مصيب.

١٨- فصل: مما يدل على صحة ارتباط جميع أقوال علماء الشريعة بعين الشريعة.

١٩- فصل: ومما يؤيد هذا الميزان عدم إنكار العلماء لها.

٢٠- فصل: في بيان استحالة خروج شيء من أقوال المجتهدين... الخ.

٢١- فصل: إن قال قائل أي فائدة في تأليف هذه الميزان.

٢٢- فصل: في بيان جملة من الأمثلة المحسوسة التي يعلم عنها اتصال أقوال جميع المجتهدين بعين الشريعة.

٢٣- الشجرة المطهرة الممثلة بعين الشريعة - مثال الاتصال سائر مذاهب المجتهدين بعين الشريعة.

٢٤- مثال موقف الأئمة الأربعة وغيرهم عند الحساب والميزان.
٢٥- مثال صراط من استقام في الشريعة - مثال طريق مذاهب الأئمة المجتهدين إلى أبواب الجنة.

٢٦- مثال في باب الأئمة على نهر الحياة في الجنة.
٢٧- فصول ما ورد عن الشارع في ذم الرأي.
فصول فيما ورد عن الأئمة الأربعة ومقلديهم في ذم الرأي - ثم عدة فصول يتحدث فيها الشعراني عن الأئمة وإتباعهم للكتاب والسنة. ثم يبدأ الشعراني بعد ذلك في سرد مسائل الفقه كالطهارة - النجاسة - الحدث والوضوء - الصلاة - الصيام - الحج... الخ.

ويتضمن الجزء الثاني: كتاب الزكاة وهو سبعة أبواب: كتاب الصيام، كتاب الحج وهو سبعة أبواب - ثم كتاب الأطعمة.

٢- الميزان الخضرية:

طبع بمصر سنة ١٢٨٦ هـ وطبع بالجزائر سنة ١٨٧٠ هـ، وطبع حديثاً بالقاهرة سنة ١٣٥٤ هـ / ١٩٣٦ م. وقد جاء في بروكلمان^(١) أن (الميزان الخضرية) يسمى أيضاً (الميزان المدخلة لأقوال الأئمة المجتهدين) وقد تبين بالبحث الدقيق أن هذا الاسم الأخير يطلق على كتاب آخر للشعراني وهو الذي سبق ذكره.

كما ذكر بروكلمان أيضاً أن الميزان الخضرية تسمى أيضاً (الميزان المحمدية) (والميزان الصغرى). وذكر إنه طبع بمصر سنة ١٣٠٠ هـ وبدمشق سنة ١٣٤٩ هـ. وقد قام بترجمته إلى اللغة الفرنسية المستشرق الفرنسي دكتور بيرون^(٢) تحت عنوان: ميزان أو فكر التشريع الإسلامي، الشريعة الإسلامية واختلاف المذاهب الأربعة في علم الشريعة.

(١) انظر بروكلمان: الملحق ص ٤٦٦.

(٢) Dr. Perron: Balance de la lis Musulmane ou ésprite de la legislation Islamique et divergences des ses quartres rites Jurisprudentiels.

وقد جاء في كتاب المستشرقون: نجيب العقيقي، ج ١، ص ١٩٥.

وكتاب الميزان الخضرية عبارة عن رسالة في أحكام الشريعة ذكر الشعراني فيها أنه تلقى عن نبي الله أبو العباس الخضر عليه السلام سنة ٣٢١ هـ.

وقد كتب عنه المستشرق جولد تسيهر في مجلة الدراسات الإسلامية مقالاً^(١).

٣- اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر:

طبع بمصر سنة ١٢٧٧ هـ (وبهامش الكبريت الأحمر) للشعراني سنة ١٣٠٥ هـ. توجد منه نسخة خطية بالمكتبة الأزهرية رقم (١٤٢٠) ٤٣٠٢٢ آداب وفضائل - بقلم معتاد مسطرتها ١٣ سطرا، ٦٢ ورقة نسخت سنة ١١٧٩ وبأولها فهرس وليس عليها اسم الناسخ.

أولها: بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال قاسم السعادة والشقاء، والأرزاق والآجال... الخ.

مضمونها: تتضمن المخطوطة عقوبة تارك الصلاة وعقوبة شارب الخمر وعقوبة الزنا واكل الربا ومانع الزكاة وغير ذلك من أحكام الشريعة. وفي نهاية الكتاب باب في أحوال يوم القيامة ووصف الجنة والنار.

آخرها: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تمر على أهل الجنة ساعة إلا يزدادون فيها نعيما على نعيم ولا تمر على أهل النار ساعة إلا يزدادون عذابا على عذاب.

٤- كشف الغمة عن جميع الأمة^(٢):

طبع بمصر سنة ١٢٨١ هـ، ١٣٠٣ هـ، وطبع على هامش (سفر السعادة) لمجد الدين الفيروز بادي سنة ١٣١٨ هـ، ١٣٢٢ هـ.

(١) مجلة الدراسات المعجمة: ج ٣، ص ٦٧٨ وما بعدها - ذكر ذلك د. توفيق الطويل في كتابه "الشعراني إمام التصوف في عصره"، ص ١٥٦.

(٢) ذكره الشعراني في لطائف المنن: ج ١، ص ٤٣، وجاء في المناقب الكبرى: أبو الأنس المليجي، ص ٧٠.

وجاء في بروكلمان إنه طبع في القاهرة سنة ١١٣٩ هـ، ١٣١٧ هـ، ١٣٣٢ هـ، والكتاب يشتمل على جزئين كبيرين ألفه الشعراني إجابة لرغبة جماعة من المريدين، جمع فيه أدلة المذاهب الأربعة وغيرها من كتب الحفاظ المعتمدين واستعان بمعاجم الطبراني ومجاميع السيوطي ولم يعزو فيه الأحاديث إلى مخرجيها ولم يذكر فيه إلا محل الاستدلال ويتناول الكتاب في الجزء الأول كيف كان بدء نزول الوحي على الرسول صلى الله عليه وسلم. وما جاء فيمن لا يعبأ بما بلغه من الحديث - وما جاء في الجدل والتوبة - والطهارة، والاستنجاء والنظافة - والوضوء - والتيمم - والصلاة - والآذان - وشروط الصلاة - والصلاة على الميت - وانتفاع الميت بالقرآن - وزيارة القبور - والزكاة بأنواعها والصوم.

ثم تحدث عن المحرمات وشروط الطواف وأذكاره وسنته - والمحرم من الطعام والشراب - وآداب الأكل والشرب - وما جاء في الرقي والتمائم - والنهي عن إتيان الكهانة - وحضور مجلس الذكر - والتسبيح وفضائل الصوم، ثم خاتمة الاستغفار.

والجزء الثاني يتضمن كتاب البيوع - كتاب اللقيط - كتاب الوصايا - كتاب الفرائض - كتاب النكاح - الخطبة - هدايا الزواج - الصداق - كتاب الخلع - كتاب الطلاق - كتاب الرجعة - كتاب الإيلاء - كتاب الرضع وكتاب النفقات.

ولهذا الكتاب (كشف الغمة) مختصر لم يذكر فيه من قام باختصاره وهو نسخة خطية بالمكتبة الأزهرية بخط معتاد بقلم محمد حمدي سنة ١٢٨٣ هـ مسطرتها ١٥ سطرا مقاس ٢٢ × ١٤ سم عليه زخرفة عدد أوراقها ١١٠ ورقة يحمل رقم (٤٩٠) ٥٠١٠ تصوف.

وقد زيف خصوم الشعراني مقدمة هذا الكتاب ولكنه وقع على هذا الزيف وعالجه.

٥- منع المنة في التلبس بالشرعية والسنة^(١):

(١) المناقب الكبرى: محيي الدين أبو الأنس المليجي، ص ٧٠، كتاب للإشباع تحت اسم منح المنة في التلبس بالسنة، ونحن نرجح أن يكون هو بعين الكتاب منح المنة في التلبس بالشرعية والسنة.

طبع بالقاهرة عدة مرات سنة ١٢٧٧ هـ، ١٢٧٩ هـ، ١٢٨١ هـ، ١٣٠٣ هـ، ١٣١٨ هـ، وجاء في بروكلمان إنه طبع سنة ١٢٧٩ هـ، ١٣٤٤ هـ، بالقاهرة.

يتناول الشعراني في هذا الكتاب ما لا بد منه من أحكام الشريعة لطالب الآخرة وهو في الفقه الشافعي وبه أحاديث شريفة تحتوي على أربعين بابا فيما لا بد من المريد معرفته من الإيمان - والإسلام - والعلم - والطهارة - والوضوء - والصلاة - والزكاة - والصيام والحج، وغير ذلك من أمور الشريعة.

وهذا الكتاب لم تقع عليه مخطوطا وجميع النسخ التي جاءت في فهارس المكتبات مطبوعة.

٦- المنهج المبين في بيان أدلة المجتهدين:

ألف الشعراني هذا الكتاب قبل عام ٩٦٠ هـ وذكر ذلك في كتابه لطائف المنن والأخلاق^(١) ولم نجده مخطوطا ولا مطبوعا.

٧- مفعم الأكباد في بيان مواد الاجتهاد:

قال الشعراني في لطائف المنن^(٢) أنه ألف هذا الكتاب وكان ذلك قبل عام ٩٦٠ هـ ولم تقع عليه مخطوطا ولا مطبوعا.

٨- التبع والفحص على حكم الإلهام إذا خالف النص:

ذكره الشعراني ضمن مصنفاته التي جاءت في لطائف المنن^(٣)، ولم تقع عليه مخطوطا ولا مطبوعا، وقد ألفه قبل عام ٩٦٠ هـ.

٩- الاقتباس في علم القياس:

(١) لطائف المنن والأخلاق: الشعراني، ج ١، ص ٤٣، كما جاء في المناقب الكبرى: أبو الأنس المليجي، ص ٦٧، وفي شذرات الذهب: ابن العماد الحنبلي، ج ٨، ص ٣٧٣.

(٢) لطائف المنن: ج ١، ص ٤٣ - كما جاء في فهرس الفهارس: محمد الإدريسي الكتاني، ص ٤٠٥ - وشذرات الذهب: ابن العماد الحنبلي، ج ٨، ص ٣٧٣، والمناقب الكبرى: أبو الأنس المليجي، ص ٦٧.

(٣) لطائف المنن والأخلاق: الشعراني، ج ١، ص ٤٤، المناقب الكبرى: أبو الأنس المليجي، ص ٦٨. فهرس الفهارس: محمد الإدريسي الكتاني، ص ٤٠٥.

ذكره الشعراني في لطائف المنن^(١) ضمن مصنفاة، ولم تقع عليه مخطوطا ولا مطبوعا، وقد ألفه قبل عام ٩٦٠ هـ.

١٠- مختصر قواعد الزركشة:

اختصر الشعراني هذا الكتاب (قواعد الإمام بدر الدين الزركشي في الفقه)، توجد منها نسخة خطية بالمكتبة الأزهرية تحمل رقم (٨٦٧) ٢٢٤٣٠ فقه عام ولكننا لم نستطع الحصول عليها وتعتبر من مفقودات المكتبة.

١١- شرح جمع الجوامع للسبكي:

ذكره له كتاب هدية العارفين^(٢)، غير أننا لم نعثر عليها في أي من كتب الفهارس المخطوطة والمطبوعة.

١٢- مختصر سنن البيهقي:

ذكره له كتاب المناقب الكبرى^(٣)، غير أننا لم نعثر عليها في أي من كتب الفهارس المخطوطة والمطبوعة.

(١) لطائف المنن والأخلاق: الشعراني، ج ١، ص ٤٤، شذرات الذهب: ابن العماد الحنبلي، ج ٨، ص ٣٧٣، المناقب الكبرى: أبو الأنس المليجي، ص ٦٨.

(٢) هدية العارفين: إسماعيل باشا البغدادي، ج ١، ص ٥٠.

(٣) المناقب الكبرى: محيي الدين أبو الأنس المليجي، ص ٧٠.

ثالثاً: مصنفات الشعراني في أصول الفقه

١- الدرر المنثورة في زبدة العلوم المشهورة:

توجد منه نسخة خطية بدار الكتب المصرية (٤١١) مجاميع) بقلم معتاد مكونة من ١٤ ورقة وهي في مجلد صغير يشمل ثلاثة كتب هي: (ردع الفقراء عن دعوة الولاية الكبرى - زبدة العلوم المشهورة الذي نحن بصدد الحديث عنه وكلاهما للشعراني (ديباجة الشيخ أحمد الملوي على خطبة الشرح الصغير).

تشغل رسالة الدرر المنثورة من ل ١٧ و إلى ٢٩ ظ.

أولها: بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين... الخ. وبعد: فلما رأيت الناس قد قصرت همهم عن حفظ متون الكتب عن ظهر قلب وقل انتفاعهم بما يتورطون في مطالعته من المنشور والكتب المطولة بالفروع العاطلة التي لا يسأل أحد عنها إلا في النادر ويعملون بها استخرت الله تعالى في ذكر زبدة تلك العلوم لجماعة من إخواننا المتعبدين وأهل الحرف النافعة من المؤمنين تقريباً، للطريق عليهم لعدم تفرغهم.

مضمونها: تتضمن المخطوطة نبذة موجزة عن موضوع علم التفسير، وعلم القراءات وعلم الفقه، وعلم أصول الفقه، وعلم أصول الدين، وعلم النحو، وعلم المعاني، والبيان، وعلم التصوف.

آخرها: تمت النسخة في يوم ثلاثة المبارك من شهر ذي القعدة من شهور سنة ثمانية وسبعين بعد الألف من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام على يد الفقير إلى رحمة الله القدير تريخانلي حسين بن محمد غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين آمين.

توجد منها نسخة خطية بدار الكتب المصرية رقم (٢٦٠٣) تصوف.

٢- منهاج الوصول إلى علم الأصول:

١٣٠ _____ الإمام عبد الوهاب الشعراني وتصوفه

أورده الشعراني ضمن ما ذكر من مصنفاته من لطائف المنن^(١) ولم نقع عليه مخطوطا ولا مطبوعا.

ويقول عنه محمد الإدريسي الكتاني: جمع فيه بين شرح المحلي وجمع الجوامع وحاشية ابن أبي شريف^(٢).

٣- الفصول في علم الأصول:

ذكره صاحب المناقب الكبرى^(٣) ضمن مصنفات الشعراني غير أننا لم نعثر عليه في من كتب الفهارس المخطوطة أو المطبوعة.

(١) لطائف المنن والأخلاق: الشعراني، ج ١، ص ٤٤.

(٢) فهرس الفهارس: الكتاني، ص ٤٠، وجاء في المناقب الكبرى: أبو الأنس المليجي، ص ٦٧، شذرات الذهب: ابن العماد، ج ٨، ص ٣٧٣.

(٣) المناقب الكبرى: أبو الأنس المليجي، ص ٧٠.

رابعاً: مصنفات الشعراني في الأخلاق الدينية:

١- الأخلاق المتبولية المفاضة من الحضرة المحمدية:

توجد منه نسخة خطية بمكتبة جامعة القاهرة - مكتبة صاحب السمو المغفور له إبراهيم حلمي (القسم الشرقي) رقم (٢٣٠٨٨) تصوف، ٣٠ × ١٩ سم مسطرتها ٢١ سطراً، عدد أوراقها ٢٥٠ ورقة، مجدولة بالمداد الأحمر وبأولها لوحة مذهبة مكتوبة بقلم نسخ تمت كتابتها سنة ١٠٣٩ هـ ولا يعرف اسم الناسخ.

أولها: بعد الديباجة... وبعد: هذا كتاب نفيس صغير الحجم عظيم القدر جمعت فيه جملة صالحة من أخلاق سيدي ومولانا الشيخ العارف بالله تعالى شيخ مشايخنا إبراهيم المتبولي.

مضمونها: تتضمن المخطوطة ما كان يتحلى به الشيخ إبراهيم المتبولي من أخلاق صوفية وتوجد منه نسخة خطية بدار الكتب المصرية رقم (٣٥١٥) تصوف وأخلاق دينية، وقد ذكرها بروكلمان^(١) ضمن مصنفات الشعراني المخطوطة.

٢- نصيحة الإخوان^(٢):

توجد منها نسخة خطية بالمكتبة الأزهرية (٢٩) ١٨٥٦ أخلاق دينية - بخط حسن الصيرفي علي بها أكل أرضية وبها ثقب ١١٩ ورقة مسطرتها ١١ سطراً ٢٥ × ٢٠ سم ليس عليها تاريخ النسخ.

أولها: الحمد لله الذي جعل الأدب سبباً لحصول الخير في الدنيا والآخرة... الخ، وبعد: فإن علم السلوك كما قال القوم فرض عين بلا خلاف على كل مكلف، وكتب السلوك كثيرة لا تحصى ومن أجلها وأفضها هذه الوصية، أسكن الله صاحبها الغرف العلية.

(١) بروكلمان: الملحق ص ٤٦٧.

(٢) جاء في المناقب الكبرى: محيي الدين أبو الأنس المليجي، ص ٧٠، ضمن مصنفات الشعراني كتاب باسم (وصايا الإخوان فيما يجب عليهم في هذا الزمان، وقد تكون هي نصيحة الإخوان).

مضمونها: تتضمن المخطوطة نخبة صالحة من الأخلاق الحميدة والمواظب الدينية التي يقدمها الشعراني لإخوانه المسلمين ليقتدوا بها.

آخرها: أسأل الله بفضلہ أن یلهمنا ذکره ویوزعنا شکره، وأن یصلي ویسلم علی مولانا وسیدنا محمد النور المبین وعلی آله وأزواجه أمهات المؤمنین وعشیرته الطیبین الطاهرین.

٣- جامع الفضائل وقامع الرذائل:

وهي مخطوطة ضمن مجموعة تتكون من ثمانية كتب للشعراني تحمل رقم (٤٩٢) حلیم ٣٣٥٧٦ تصوف، وهذا الكتاب هو المخطوط الثالث بالمجلد.

وقد وجدنا كتاب جامع الفضائل وقامع الرذائل في فهرس المكتبة الأزهرية مضمومًا إلى محمد الأسكداري ولكن بالبحث والتدقيق وجدنا أنه من تأليف الشعراني وهو يبدأ من ورقة ١٤٣ إلى ١٩٨.

أولها: الحمد لله الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم، ورفع مراتب العارفين، بقدر معرفتهم... الخ وبعد: فهذه رسالة وضعتها على أبواب وقصور تهذيب للنفوس من الأخلاق الرديئة والفضول، وإرشاد للطلابين على طريق الوصول.

وتتكون الرسالة من ثلاثة أبواب:

الباب الأول: في الفضائل العامة لكافة المسلمين، وفيه نوعان، النوع الأول، في فضل العلم وشرف التعليم، والنوع الثاني: في الأعمال وفضائل الصالح منها- وهي على قسمين: القسم الأول في حقوق الله الخالصة - الطهارة - الصلاة المكتوبة - الصلاة الوسطى - النوافل - الصوم - الزكاة.

القسم الثاني: في فضائل النكاح وآداب الجماع وحقوق الزوجين والختان وحقوق الولد وحقوق الوالدين، ثم فصل في حقوق الحيوانات، وفصل في الحقوق العامة.

الباب الثاني والثالث: في قبح الربا، وحسن الإخلاص، وذم الغضب، ومدح الحلم، وقبح الحسد، وحسن السر والمحبة وذم المال، ومدح الفقر والقناعة.

آخرها: قال الشيخ أبو عبد الله الأنصاري: أتعرف توحيد الصوفية؟ نفي الحدث وإقامة الأزل، وسئل قد قدس سره عن التوحيد فأجاب بهذه الأبيات:

مَا وَحَّدَ الْوَاحِدَ مِنْ وَاحِدٍ إِذْ كُلُّ مَنْ وَحَّدَهُ جَاحِدٌ
تَوْحِيدُ مَنْ يَنْطِقُ عَنْ نَعْتِهِ عَارِيَةٌ أَبْطَلَهَا الْوَاحِدُ
تَوْحِيدُهُ إِيَّاهُ تَوْحِيدُهُ وَنَعْتُ مَنْ يَنْعَتُهُ لِأَحَدٍ

٤- لطائف المنن والأخلاق في بيان وجوب التحدث بنعمة الله على الإطلاق^(١):

وتسمى (المنن الكبرى الجالبة للسرور والبشرى) وهي من جزأين كبيرين.

طبعت عدة مرات في مصر سنة ١٢٨٨ هـ وعلى هامش رسالة (الأنوار القدسية في معرفة بيان العهود المحمدية) سنة ١٣١١ هـ، وطبعت أيضاً على هامش لطائف المنن والمناقب أبي العباس المربي وشيخه أبي الحسن (مفتاح الفلاح ومصباح الأرواح) سنة ١٣٢١ هـ، وكلاهما لتاج الدين أحمد بن عطاء الله السكندري.

وجاء في بروكلمان إنه طبع بمصر سنة ١٢٨٣ هـ، ١٢٨٨ هـ، ١٣٥١ هـ، وهذا الكتاب للشعراني يعتبر من أدق الوثائق التي يمكن للباحث أن يستقي منها المعلومات عن حياة صوفينا وأخلاقه وما تحقق به من مقامات صوفية وأحوال، وكذا بيئته الخاصة وزاويته ومشايخه حيث إنه تحدث فيها عن نفسه ومناقبه حديثاً مستفيضاً.

ومنها جملة من الأخلاق الحميدة التي يجب أن يتحلى بها كل مؤمن وجعله دستوراً أخلاقياً لمن أراد أن يكون على خلق قويم.

ولقد ذكره الشعراني في هذا الكتاب أيضاً من مصنفاته أربعة وعشرين كتاباً: توجد منه نسخة مختلفة الطبعات في مكتبتي الأزهر ودار الكتب، وتوجد منه نسخ خطية بدار

(١) جاء في المناقب الكبرى: أبو الأنس المليجي، ص ٦٨ أن هذا الكتاب يشتمل على ثلاثة أجزاء هي (المنن الكبرى، المنن الوسطى، المنن الصغرى)، وهو في الحقيقة كتاب واحد من جزأين فقط - كما في هدية العارفين: إسماعيل باشا البغدادي على أنها كتابين الأول باسم (المنن والأخلاق في وجوب التحدث بنعمة الله على الإطلاق) والثاني باسم (لطائف المنن والأخلاق في بيان وجوب التحدث بنعمة الله على الإطلاق) ولكن هو كما بينا كتاب واحد فقط.

١٣٤ _____ الإمام عبد الوهاب الشعراني وتصوفه

الكتب المصرية رقم (١٥٠) تصوف وأخلاق دينية، ونسخ خيطة أخرى تحمل الأرقام (٣٢٢، ٥٢٣، ٦٠٧، ١٧٠ م، ١٧١ م).

وفي الأزهرية توجد نسخ خطية تحمل الأرقام (٦٢) ٣٨٣١، (٥١) ٣١٨١ أخلاق دينية.

٥- تنبيه المغتربين في القرن العاشر على ما خالفوا فيه سلفهم الطاهر^(١):

جاء في بروكلمان إنه طبع بالقاهرة سنة ١٢٧٧ هـ، ١٢٧٨ هـ، ١٢٨١ هـ، ١٣١٠ هـ، ١٣٠٥ هـ، ١٣١٥ هـ، ١٣٢١ هـ.

كما طبع بهامش كتاب (الكشف والتبيين في غرور الخلق أجمعين) للغزالي القاهرة سنة ١٣١٠ هـ، ١٣١٥ هـ، توجد منه نسخة خطية بمكتبة المسجد الأحمدى بطنطا - نسخ متوسط في ٢٥٠ صفحة مقاس ٢٠ × ١٢ سم تحمل رقم (خ ٦، ع ٣٣٦).

ومنه نسخة خطية بالمكتبة الأزهرية بخط محمد بن موسى الوروارى العمارة وطنا الشافعي مذهبا الحنفي طريقة، سنة ١٢٦٢ هـ، نسخة في مجلد بقلم معتاد ١٤١ ورقة مسطرتها ٢١ سطرا ٢٢ × ١٩ سم بأخرها فهرس وبه ثقب تحمل رقم (١) ١٧٥ فقه عام.

أولها: بسم الله الرحمن الرحيم، يقول مؤلفه عبد الوهاب بن أحمد علي الشعراني عفى الله عنه، أحمد الله رب العالمين وأصلي واسلم على سيدنا محمد... الخ. وبعد: فهذا كتاب نفيس صغير الحجم، كبير القدر، جمعت فيه نبذة صالحة من فقه طريق أهل الله وما كانوا عليه من الزهد والورع والخوف وغير ذلك... الخ.

مضمونها: يتناول الكتاب التزام أهل الطريق بالكتاب والسنة - ووزنهم الأفعال على الكتاب والسنة - وكثرة تفويضهم الأمور إلى الله تعالى - وكثرة إخلاصهم -

(١) ذكره الشعراني في لطائف المنن: ج ١، ص ٤٣، كما جاء في المناقب الكبرى: أبو الأنس المليجي، ص ٦٠ باسم (تنبيه المغتربين في أواخر القرن العاشر على ما خالفوا فيه سلفهم الطاهر). وجاء في كشف الظنون: حاجي خليفة، ج ١، ص ١٩٤، وذكره شاحت في دائرة المعارف الإسلامية باسم (تنبيه المغتربين... الخ) بدلا عن (تنبيه المغتربين... الخ). انظر: Encyclopedia of Islam, volume, IV, p. ٣١٩, ١٩٣٤.

وكثرة الصبر - وقلة الضحك - وتمنى الموت - وكثرة الخوف - والنظر للدنيا بعين الاعتبار - والتحذير من الغفلة - ورؤية نفوسهم أنهم أفسق الناس - وكثرة تعظيمهم حرمة المسلمين - وكثرة صبرهم على أذى زوجاتهم - ترك طلب الرئاسة - حسن الأدب مع خلق الله - شدة الخوف من سوء الخاتمة - مواظبة قيام الليل - هضمهم لنفوسهم - غيرتهم على ذكر الله - اللين - الجوع الشرعي - الدعاء للتلاميذ - العزم على العمل بالعلم - مخالطتهم الأعداء - رؤية محاسن الناس - إنصاتهم للساعي بين يديهم - عملهم بالسنة إذا تزوجوا - آدابهم مع علمهم - ورعهم - عدم اشتياقهم إلى الهدية - التشديد على الضيف بالعزومة - تفقدهم نفوسهم - محبة خدمة الله - تقديم أعمال الآخرة - عدم خوفهم ضياع الذرية - زيارة القبور - عدم الغفلة عن الذكر والصلاة - رقة القلب والبكاء - ظن الهلاك بسبب التقصير - عدم بناء الدور - الشفقة على المسلمين - رياضة أنفسهم - عدم مناقضة الفقهاء في أحوال الطريق - رقة الحجاب - عدم طلب إجابة الدعاء لأنفسهم - عدم ادعاء حب أحد إلا بعد التجربة - القناعة - هوان الدنيا - الجوع - عدم الاهتمام بالرزق - اختيار البلاء على النعمة - الأدب - فرحهم بزوال الدنيا عنهم - عدم التغالي في الملبس - عدم الإسراف - الوصايا لبعضهم ونصيحة من يقبل - عدم مجالس الأمراء - كتمان الكرامات - عدم تولية القضاء - السؤال عن المحتاجين - محاربة إبليس - عدم التكبر - احترام الناس وغير ذلك من الأخلاق الصوفية.

آخرها: وقد ذكرنا مرارا أن من طالعه بإنصاف رأى نفسه قد انسلخ عن أخلاق الصالحين كما تنسخ الحية من ثوبها. فاسأل الله تعالى أن ينفع به الإخوان ومن بعدهم ويختم لهم ولنا بالحسن، وأن يجعل آخر كلامنا في هذه الدار شهادة أن لا إله إلا الله واشهد أن سيدنا محمد رسول الله - وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم آمين.. آمين.

توجد منه بالمكتبة الأزهرية عدة نسخ خطية بالأرقام الآتية:

١٣٦ _____ الإمام عبد الوهاب الشعراني وتصوفه

(٣٥) ٢٤٢٦ تصوف، (٨٩) ٤٩٩٤ تصوف، (٢٨٢) ٩٩٧٦ تصوف، (٨٥٢) حليم
٣٣٤٨٦ تصوف، (١٢٣٥) عروسي ٤٢٣٤٠ تصوف، (١٢٣٦) عروسي ٤٢٣١ تصوف،
(١٥٤) ١٦١٢٤ تصوف، (٤٤٩) مجاميع ١٨٣٣٧ تصوف.

٦- بهجة النفوس والأحداق فيما تميز به القوم من الآداب والأخلاق:

جاء في بروكلمان^(١) أنه طبع بالقاهرة سنة ١٢٧٤ هـ ولم نعر عليه في كتب
الفهارس المخطوطة أو المطبوعة.

٧- طهارة الجسم والفؤاد:

أشار الشعراني إلى أنه ألفه في كتاب (الأجوبة المرضية عن قواعد الفقهاء
والصوفية)، وإن كنا لم نجد مخطوطا ولا مطبوعا، وقد جاء في المناقب الكبرى باسم
(طهارة الجسم والفؤاد من سوء الظن بالله تعالى والعباد)، كما جاء به اسم كتاب آخر
قريب من الاسم الأول، ونحن لا نستطيع أن نحكم إذا كان هو نفس الكتاب أم لا، وهو
(طهارة لسان المؤمن وفؤاده من سوء الظن بالله وعباده)^(٢).

٨- حقوق أخوة الإسلام:

طبع بالقاهرة سنة ١٢٩٠ هـ كما جاء في بروكلمان^(٣)، كما جاء في فهرس مكتبة دار
الكتب المصرية رقم لنسخة خطية منه هو (٩٤٧) تصوف، ولم نستطيع الحصول عليها
وهي من مفقودات الدار.

٩- فتح الوهاب في فضائل الأب والأصحاب:

ذكر صاحب المناقب الكبرى^(٤) ضمن مصنفات الشعراني ولم نقع عليه في
فهارس المكتبات المخطوطة أو المطبوعة.

(١) انظر:

Brockelman: Geschichte Der Arabischen litteratur, supplement
hand II, Leiden, Brill, ١٩٣٨, p.٤٦٧.

(٢) تذكرة أولي الألباب في مناقب سيدي عبد الوهاب: محيي الدين أبو الأنس المليجي، ص ٧٠.

(٣) انظر: بروكلمان، الملحق، ص ٤٦٧.

(٤) المناقب الكبرى: محيي الدين أبو الأنس المليجي، ص ٧٠.

خامساً: مصنفات الشعراني في علم الكلام

١- القول المبين في الرد على الشيخ محيي الدين:

توجد منه نسخة خطية بالمكتبة الأزهرية رقم (١٥٣٤) حليم ٤٨١٤ تصوف. بخط نسخ مجدولة بالمداد الأحمر مسطرتها مختلفة مقاس ٢٠ × ١٥ سم بها ثقب ومنقولة من النسخة الأصلية للمؤلف، كما يقول الناسخ، وبآخرها إجازات لعلماء عصر الشعراني عدد أوراقها ٦٥ ورقة ليس عليها اسم الناسخ ولا تاريخ النسخ، وهي إحدى ثلاثة كتب في نفس المجلد، والكتابان الآخران لابن عربي، وبآخر المخطوطة وصفة طيبة.

أولها: بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين... الخ. وبعد: فهذه رسالة لطيفة تضمنت جملة من نصوص الشيخ الكامل الراسخ مربي العارفين الشيخ محيي الدين بن عربي رضي الله عنه المفصحة ببراءته من القول بقدم العالم وللحلول والاتحاد.

مضمونها: تتضمن الرسالة نصوص لمحيي الدين بن عربي يثبت الشعراني بها أنه قال: بحدوث العالم وأنه لا حلول ولا اتحاد، ويشرح الشعراني تلك النصوص التي استعان بها من كتابي (الفتوحات المكية)، (لواق الأنوار) لابن عربي.

آخرها: وليكن ذلك آخر ما ذكرناه من نصوص الشيخ رضي الله عنه في نفس القول بالحلول والاتحاد، ومن تحقق بمعرفتها رد كل من رآه من كلام الشيخ يوهم قدم العالم أو الحلول أو الاتحاد إلى هذه النصوص الصريحة، وكيف يترك عاقل النصوص الصريحة إلى ما يتوهم.

توجد من الكتاب نسخة خطية أخرى بالمكتبة الأزهرية (٩٦٠) حليم ٣٣٥٩٤ تصوف.

كما توجد نسخة خطية بدار الكتب المصرية (٩) مجاميع.

٢- خلاصة الأخبار:

مخطوطة ضمن مجموعة من ثمانية كتب في مجلد وهي المخطوطة الثانية تبدأ من ل ٢٦ و إلى ل ١٣٣ ظ بالمكتبة الأزهرية رقم (٤٩٢) حليم ٣٣٥٧٦ تصوف. وقد سبق وصف المجلد في بداية مصنفات الشعراني في التصوف.

أولها: الحمد لله الذي علم الإنسان ما لم يعلم وجعل آدم خليفته في العالم، وقدر من الأزل ما تأخر وما تقدم، وكتب في اللوح ما كتب وجف القلم وخلق الخلق وتحبب إليهم بالنعم ليعرفوه ويحلموا إليه بالفناء والعدم، وبدأ كتاب النبوة بعنوان آدم... الخ.

فهذه رسالة في أحوال النبي المختار سميتها خلاصة الأخبار ذكرت فيها خلق العالم وسجود الملائكة لأبينا آدم صلى الله عليه وسلم وذكرت فضائل النكاح ومنافع التوبة والاستغفار ومراتب التوحيد وفوائد الأوراد والأذكار، وجعلتها في فصول وأبواب نهرا للطالب وتسهيلا على الأصحاب.

مضمونها: تحتوي الرسالة على خمسة أبواب: الباب الأول: في خلق العالم وفيه ستة فصول:

- ١- الفصل الأول: في أول ما خلق الله العالم.
 - ٢- الفصل الثاني: في الأرض والجبال والبحار.
 - ٣- الفصل الثالث: في السماء والشمس والقمر.
 - ٤- الفصل الرابع: في الملائكة.
 - ٥- الفصل الخامس: في الجن.
 - ٦- ثم فصل في كيد الشيطان.
- الباب الثاني: في خلق آدم وحواء - فصل في كيد الشيطان لآدم - فصل في التوبة والاستغفار.

الباب الثالث: في نشأة النبي صلى الله عليه وسلم وسائر أحواله ومعرجه إلى ربه ليلاً، ويروي الشعراني في هذا الباب أحداثاً وقعت للرسول والصحابة - وما جرى من أحداث هامة في السنوات الأولى للإسلام - وفي نهاية الباب فصل في أخلاق الرسول

وطبائعه ووصف لوجهه الكريم وملامحه - ثم فصل في معجزات الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام.

الباب الرابع: في العلم والمعرفة.

الباب الخامس: في التسبيح والذكر والدعاء والتوحيد.

آخرها: ما أخذ التصوف عن القيل والقال ولكن عن الرجوع وترك الدنيا.

٣- حياة الأرواح ونجاة الأشباح:

توجد منه نسخة خطية بالمكتبة الأزهرية في مجلد يضم ثمانية كتب للشعراني سبق وصفه يحمل رقم (٩٤٢ حلیم ٣٣٥٧٦) تصوف.

أولها: الحمد لله الذي أحيا قلوب العارفين بالحياة الأبدية... الخ. وبعد: فهذه رسالة في قسمي الموت وحشر الأرواح والأجساد، وبيان منازل أهل السلوك والاجتهاد.

مضمونها: تتضمن الرسالة قسمين:

يتناول الشعراني في القسم الأول الحديث عن الموت، والحياة بعد الموت، وأين تذهب الأرواح بعد وفاة الأشباح.

أما القسم الثاني فيتناول فيه الحديث عن بعض المقامات الصوفية كالورع - الصدق - الإحسان - المحبة - ثم تحدث عن الذكر.

آخرها: توجد بآخر المخطوطة وصية يقدمها الشعراني للمسلمين عامة وأخرى للمريدين أو الخواص.

٤- القواعد الكشفية الموضحة لمعاني الصفات الإلهية^(١):

جاء في بروكلمان^(٢) أنه طبع بالقاهرة سنة ١٣٤٣ هـ.

(١) المناقب الكبرى: محيي الدين أبو الأنس المليجي، ص ٦٩.

(٢) انظر: Brockelman: supplement hand, Leiden, ١٣ rill, ١٩٣٨, p.٤٦٥.

١٤٠ _____ الإمام عبد الوهاب الشعراني وتصوفه

توجد منه نسخة خطية بالمكتبة الأزهرية رقم (٨٩٩ حليم ٣٣٥٣٣) علم كلام، بقلم معتاد بخط أحمد محمد عفيفي سنة ١٢٣٤ هـ، وهي ضمن كتابين في مجلد واحد، الأول: كتاب القواعد الكشفية، والثاني: رسالة الأنوار القدسية في معرفة آداب العبودية، كلاهما للشعراني، عدد أوراق المجلد ١٩٦ ورقة والمخطوطة التي نحن بصدد الحديث عنها تشتمل على ١١٤ ورقة مكتوبة بخط رديء ومسطرتها ٢١ سطرا مقاس ٢٢ × ٢٠ سم.

أولها: الحمد لله رب العالمين واشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين... الخ. وبعد: فقد سبق مني تأليف كتاب عظيم في الأجوبة عن الأنبياء والمرسلين والصحابة والتابعين إلى عصرنا هذا وهو سنة أحد وستين وتسعمائة... الخ.

مضمونها: تتضمن المخطوطة رأي الشعراني في الصفات الإلهية والقضاء والقدر ورؤية الله مدعم كلامه بآيات من القرآن الكريم.

آخرها: وإن فتح الله عليك بجواب أوضح في هذا الكتاب، فألحقه به منحة لله ولرسوله، والله يتولى هداك وهو يتولى الصالحين، والحمد لله رب العالمين، توجد من الرسالة ثلاث نسخ خطية بدار الكتب المصرية أرقام (١٣٤، ٥٢١، ٢٠ مجاميع).

٥- مختصر تذكرة الإمام القرطبي:

جاء في بروكلمان أنه طبع بالقاهرة سنة ١٢٨٠ هـ، ١٢٨٨ هـ، ١٣٠٠ هـ، ١٣٠١ هـ، ١٣٠٣ هـ، ١٣٢٠ هـ، ١٣٤٥ هـ.

وقد طبع سنة ١٣٠٠ هـ، بهامش كتاب (قرة العيون ومفرح القلب المحزون) الليث السمرقندي، كما طبع بمصر سنة ١٣٠٤ هـ، ١٣١٠ هـ، ١٣٨٨ هـ.

توجد منه نسختان خطيتان بدار الكتب المصرية (١٩٣٣، ١٤٢٠) تصوف زأخلاق دينية.

أولها: قد صرح الشعراني في بداية الكتاب بأنه اختصار لكتاب التذكرة للإمام أبي عبد الله بن محمد بن أحمد أبي بكر الأنصاري الخزرجي الأندلسي القرطبي، وحذف منه ما لا يذكر بالموت.

مضمونها: يشتمل على ١٩٧ بابا تناول فيها الشعراني الحديث عن الموت، الآخرة، الجنة والنار، الثواب والعقاب، الشفاعة، والمهدي المنتظر، علامات الساعة، المسيح الدجال وقيام الساعة.

ما جاء في النهي عن تمني المسلم الموت - باب ذكر جواز تمني الموت - باب ما جاء في أمور تذكر الموت - باب المؤمن يموت بعرق الجبين - باب ما جاء أن للموت سكرات - باب الموت كفارة لكل مسلم - باب تلقين الميت لا إله إلا الله - باب ساءني أن الشيطان يحضر الميت عند موته ويخاف من سوء الخاتمة - باب تلقى الأرواح - باب ما جاء في صفة ملك الموت - ما جاء في قراءة القرآن عند القبر - القبر أول منازل الآخرة - باب ما جاء من رحمة الله تعالى - باب ما ورد من عذاب القبر - باب ما جاء في بشرى المؤمنين في القبر - باب في انقراض الخلق - باب ما جاء في بعث الأيام والليالي - باب في الحشر - باب ما جاء في تطاير الصحف - باب ما يسئل العبد يوم القيامة - باب ما جاء في الميزان - باب في الصراط - باب ما يرجى من رحمة الله - باب من يدخل النار من الموحدين، ثم عدة أبواب في الجنة والنار والثواب والعقاب وعلامات الساعة وغيرها مما يتعلق بأمور الآخرة.

٦- كشف الحجاب والران عن وجه أسئلة الجبان^(١):

جاء في بروكلمان أنه طبع بالقاهرة سنة ١٢٩٠ هـ وقد تحقق تحقيق علمي سنة ١٣٥٧ هـ / ١٩٣٧م فقهه وقدم له محمد بن عبد الله بن عبد الرازق - مطبعة حجازي القاهرة، كتب عنه: Elugel في مجلة الدراسات الشرقية، ج ٢٠، ص ٣، كما كتب عنه: Kern بمجلة Msos، ج ١١، ص ٢٦٥^(٢).

٧- فرائد القلائد في علم العقائد:

(١) ذكره الشعراني في لطائف المنن: ج ١، ص ٤٣.

انظر: Brockelman: supplement hand, II, p.٤٦٥.

(٢) جاء ذلك في كتاب (الشعراني إمام التصوف في عصره) د. توفيق الطويل، ص ١٥٦.

أشار الشعراني^(١) إلى أنه ألفه قبل عام ٩٦٠ هـ ولم نحصل عليه مخطوطاً أو مطبوعاً.

٨- لوائح الخزلان على كل من لا يعمل بالقرآن:

جاء في لطائف المنن والأخلاق^(٢) ضمن ما ذكر من مصنفات الشعراني والذي لم نقع عليه مخطوطاً ولا مطبوعاً.

(١) لطائف المنن والأخلاق: الشعراني، ج ١، ص ٤٤، كما ذكر في شذرات الذهب: ابن العماد الحنبلي، ج ٨، ٣٧٣، المناقب الكبرى: أبو الأئس المليجي، ص ٦٧، وقال: إن له مختصراً اختصره الشعراني، فهرس الفهارس: محمد الإدريسي الكتاني، ص ٤٠٥.

(٢) لطائف المنن والأخلاق: الشعراني، ج ١، ص ٤٤، انظر شذرات الذهب: ابن العماد، ج ٨،

سادساً: مصنفات الشعراني في النحو

١- المقدمة النحوية في علم العربية:

لم نعثر عليها مطبوعة ولا مخطوطة وقد جاء في بروكلمان^(١) أنها طبعت سنة ١٣٦٦هـ، ١٣٧٧هـ

كما ذكرت في هدية العارفين ضمن مصنفات الشعراني^(٢).

٢- مختصر الألفية لابن مالك:

ذكره صاحب هدية العارفين ولم تقع عليه مخطوطا ولا مطبوعا^(٣).

لباب الإعراب المانع من اللحن في السنة والكتاب.

أشار بروكلمان^(٤) إلى أنه طبع بالقاهرة سنة ١١٣٧ هـ.

كما ذكره صاحب المناقب الكبرى ضمن مصنفات الشعراني^(٥).

(١) المناقب الكبرى: أبو الأنس المليجي، ص ٦٧، فهرس الفهارس: الكتاني، ص ٤٠٥.

انظر: Brockelman: supplement hand, II, p.٤٦٧.

(٢) هدية العارفين: إسماعيل باشا البغدادي، المجلد الأول، ص ٦٠.

(٣) المرجع السابق: ص ٦٢.

(٤) بروكلمان: الملحق، ص ٤٦٦.

(٥) المناقب الكبرى: محيي الدين أبو الأنس المليجي، ص ٦٧.

سابعاً: مصنفات الشعراني في علم الحديث:

١- نزهة الأفكار:

توجد منه نسخة خطية بالمكتبة الأزهرية تحمل رقم (١١٥٥ حلیم ٣٤٢١١) مجدولة بالمداد الأحمر وبأولها لوحة مذهبة، نسخ جيد بقلم معتاد مسطرتها ٢١ سطراً مقاس ٢١ × ١٦ سم، عدد أوراقها ٣٣ ورقة ليس عليها اسم الناسخ ولا تاريخ النسخ.

أولها: الحمد لله المحمود بكل لسان... الخ. وبعد: فهذا كتاب يعزب للسامع ويزيد في عقل اللبيب البارع، وينتقل من السطور إلى الصدور، ويزين كلامه بالدر المنظوم، ذكرت فيه فصولاً من غرائب الألفاظ التي يحل إيرادها ويسر القلب قربها كما يحزن القلب إبعادها.

مضمونها: تتضمن الرسالة عشرة أبواب جميعها في الآداب والأخلاق الدينية الأحاديث النبوية الشريفة التي تحض على مكارم الأخلاق.

آخرها: وجلالي له تنال منها إلا ما قسمت لك وأنت مذموم والله اعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب والتاب ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين والحمد لله رب العالمين.

٢- البدر المنير في غريب أحاديث البشير النذير^(١):

طبع بمصر سنة ١٢٧٧ هـ طبع حجر، توجد منه بدار الكتب المصرية مخطوطة تحمل رقم (١٠٣) حديث. وتوجد منه بالمكتبة الأزهرية نسختان خطيتان تحمل الأولى رقم (١٩٨٩) ٢٢٣٦٤ حديث - في مجلد بقلم معتاد بخط إبراهيم بن عمر المناوي سنة ١٢٨١ هـ مجدولة بالمداد الأحمر وبأولها حلية ذهبية في ٢٠٢ ورقة مسطرتها ١٥ سطراً مقاس ٢٠ × ١٦ سم.

(١) جاء ضمن مصنفات الشعراني في لطائف المنن، ج ١، ص ٤٣.

والنسخة الثانية تحمل رقم (٣٨٢٢) ٥٣٠٩٠ علم حديث، بقلم معتاد مجدولة بالمداد الأحمر ١٠٦ ورقة مسطرتها ٢٣ سطرا، مقاس ٢١ × ١٦ سم بخط محمد منزلي ١١٣٦ هـ.

أولها: بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله حمدا يوافي نعمه،... الخ. وبعد: هذه أحاديث غريبة قبل أن يطلع على تخريجها عالم من أهل عصرنا، عدتها نحو ألفين وثلاثمائة حديث، انتخبها من كتاب الجامع الصغير والجامع الكبير وزوائد الجامع الصغير والثلاثة للإمام الحافظ الشيخ جلال الدين السيوطي خاتمة حفاظ مصر المحروسة، وأضفت إليها جميع ما في كتاب السخاوي رحمه الله المسمى (المقاصد الحسنة في تخريج الأحاديث الدائرة على الألسنة). وسلكت فيه ترتيب على حروف المعجم.

مضمونها: تتضمن المخطوطة مقدمة صغيرة يوضح الشعراني فيها لماذا سمي الكتاب بهذا الاسم، وسبب تأليفه ؟

ثم يبدأ بعد المقدمة في سرد الأحاديث النبوية الشريفة متبعا ترتيبا أبجديا مبتدأ بالأحاديث التي تبدأ بحرف الألف ومنتها بالأحاديث التي تبدأ بحرف الياء.

٣- علم الإشارة في شرح حديث الاستخارة:

ذكره له أبو أنس المليجي^(١) في المناقب الكبرى، غير أننا لم نعثر عليه في أي من كتب التراجم المطبوعة أو المخطوطة.

(١) نفس المرجع السابق.

ثامناً: مصنفات الشعراني في علم التاريخ

١- الطبقات الكبرى:

وتسمى (لواقح الأنوار في طبقات السادة الأخيار)^(١).

طبع بمصر سنة ١٢٦٧ هـ، سنة ١٢٨٦ هـ، ١٢٩٢ هـ، ١٢٩٣ هـ، ١٣٠٥ هـ.

طبعت بهامش كتاب (الأنوار القدسية في معرفة آداب العبودية) للشعراني سنة

١٣٠٥ هـ، ثم طبعت بمصر أيضاً سنة ١٣١٥ هـ، ١٣٩٣ هـ.

كتبت عنه مجلة المراسلات الأفريقية عام ١٨٨٤ م، ص ٣٦٧.

قام بترجمته إلى اللغة التركية "علي السيواسي"^(٢).

وقد تناول الشعراني في طبقاته الكبرى أعلام الصوفية من عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه إلى آخر القرن التاسع عشر الهجري وبعض العاشر - وهي جزءان كبيران ذكر فيها الشعراني من رجال الصوفية ما لا نجد له سيرة في أي مرجع آخر سوى الطبقات هذه.

وقد هدف الشعراني من وراء تأليفه كتاب الطبقات أن يحبب الناس في التصوف والأخلاق الدينية.

٢- الطبقات الوسطى:

يستكمل فيها الشعراني الحديث عن أعلام الصوفية وأحوالهم وهي في الحقيقة الجزء الثاني من الطبقات الكبرى، وقد درج المترجمون على تسمية الجزء الثاني من الطبقات الكبرى بالطبقات الوسطى، وقد طبع مرارا مع الطبقات الكبرى في جميع الطبقات التي سبق ذكرها.

٣- الطبقات الصغرى:

(١) ذكرها الشعراني في المرجع السابق ص ٤٣.

(٢) جاء ذلك في كتاب (الشعراني إمام التصوف في عصره) د. توفيق الطويل، ص ١٥٦.

وتسمى لوائح الأنوار القدسية في مناقب العلماء والصوفية. طبع بمصر مرارًا، وقد حقق أخيرًا تحقيقًا علميًا، وقد حققه وقدم له الأستاذ عبد القادر أحمد عطا، مكتبة القاهرة سنة ١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م.

٤- المآثر والمفاخر في علماء القرن العاشر:

ذكره له صاحب المناقب الكبرى^(١). غير أننا لم نقع عليه في أي من كتب التراجم المخطوطة أو المطبوعة.

(١) المناقب الكبرى: أبو الأنس المليجي، ص ٦٧.

تاسعاً: مصنفات الشعراني في الطب

١- مختصر التذكرة الإمام السويدي في الطب:

طبع بمصر سنة ١٢٧٩ هـ، ١٢٩٤ هـ، ١٣٠٢ هـ، ١٣٠٣ هـ، ١٣٠٥ هـ، ١٣١١ هـ، وطبع بهامش (كامل الصناعة الطبية) للماجوسي، سنة ١٢٩٤ هـ. كما طبع بهامش (تذكر أحمد القليوبي في الطب) سنة ١٣٠٤ هـ، ١٣١٤ هـ. وكانت جميعها طبعات تجارية. توجد منه نسخة خطية لدى الباحثة في مجلد كبير يشتمل على ١٦٤ ورقة بقلم معتاد مقاس ٢٨ × ٢٠ سم مسطرتها ٢٣ سطرا ليس عليها اسم الناسخ ولا تاريخ النسخ.

أولها: استفتح بحمد الله وشكر نعمائه، واستنتج بالصلاة والسلام على سائر رسله... الخ. وبعد: فهذا كتاب اختصرت فيه كتاب التذكرة المشهورة بمفردات الإمام السويدي رئيس الحكماء مما نقله عن نحو أربعمئة حكيم من أهل الملة الإسلامية... الخ.

مضمونها: تحتوي المخطوطة على علاج العديد من الأمراض والأوبئة المعروفة حينذاك وبآخرها التركيبات الكيميائية التي تستعمل لإزالة البقع المختلفة من الثياب القطنية.

آخرها: وفي هذا القدر كفاية في طمأنينة القلب إلى استعمال ما فيه من الأدوية، فالله ينفع به كل مسلم. آمين.

مصنفات غير محددة الموضوع:

١- الطراز الأبهج في خطبة المنهج:

ذكره له صاحب المناقب الكبرى، وصاحب كشوف الظنون^(١)، غير أننا لم نعثر في أي من فهارس المكتبات المطبوعة أو المخطوطة.

٢- منع الموانع:

جاء في المناقب الكبرى^(٢) ضمن مصنفات الشعراني ولم نقع عليه في كتب الفهارس المخطوطة أو المطبوعة.

٣- مختصر المعجزات والخصائص:

جاء في المناقب الكبرى^(٣) من مصنفات الشعراني ولم نعثر عليه مخطوطاً أو مطبوعاً.

٤- طهارة الجسم والجنان من سوء الظن بالله والملائكة والجان:

ذكره له صاحب المناقب الكبرى^(٤) غير أننا لم نقع عليه مخطوطاً أو مطبوعاً.

٥- تفسير الأحلام:

ذكره له صاحب المناقب الكبرى^(٥)، إلا أننا لم نعثر عليه في أي من كتب الفهارس المخطوطة أو المطبوعة.

(١) إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون: إسماعيل باشا البغدادي، ص ٥٠، المناقب

الكبرى: أبو الأنس المليجي ص ٦٨.

(٢) المناقب الكبرى: أبو الأنس المليجي، ٦٨.

(٣) المرجع السابق: ص ٦٩.

(٤) نفس المرجع السابق: ص ٦٩.

(٥) المرجع السابق: ص ٧٠.

التصنيف الزمني لمصنفات الشعراني:

يمكننا أن نضع تصنيفاً زمنياً لمصنفات الشعراني في ثلاثة مجموعات، المجموعة الأولى المصنفات المحددة التاريخ، والمجموعة الثانية تتضمن الكتب التي أرخانها على الترجيح، والمجموعة الثالثة والأخيرة تضم الكتب التي تعذر علينا تحديد تاريخ.

١ - مصنفات محددة التاريخ:

بدأ نشاط الشعراني الفكري في عام ٩٣١ هـ، ألف كتاب:

- ١ - (الأنوار القدسية في معرفة آداب العبودية)، سنة ٩٣١ هـ.
- ٢ - (الجواهر المصنوع والسر المرقوم فيما تنتجه الخلوة من الأسرار والعلوم)، ٩٣٢ هـ.
- ٣ - كتاب (إرشاد الطالبين إلى مراتب العلماء العاملين)، سنة ٩٣٣ هـ.
- ٤ - (النفحات القدسية في بيان قواعد الصوفية)، سنة ٩٣٣ هـ.
- ٥ - (المريد الصادق مع مريد الخالق)، سنة ٩٣٣ هـ.
- ٦ - (كشف الغمة عن جميع الأمة)، سنة ٩٣٦ هـ.
- ٧ - (الجواهر والدرر الكبرى)، سنة ٩٤٢ هـ.
- ٨ - (الكبريت الأحمر في علوم الشيخ الأكبر)، سنة ٩٤٢ هـ.
- ٩ - (مختصر تذكرة الإمام السويدي في الطب)، سنة ٩٤٣ هـ.
- ١٠ - (الجواهر والدرر الوسطى)، سنة ٩٤٣ هـ.
- ١١ - (النفحات القدسية في قواعد الصوفية)، سنة ٩٤٣ هـ.
- ١٢ - (البدر المنير في غريب أحاديث البشير النذير)، سنة ٩٤٤ هـ.
- ١٣ - (البحر المورود في المواثيق والعهود)، سنة ٩٤٥ هـ.
- ١٤ - (الطبقات الكبرى)، المسماة بـ (لوائح الأنوار في طبقات السادة الأخيار)، سنة ٩٥٢ هـ.
- ١٥ - (الطبقات الوسطى)، سنة ٩٥٢ هـ.

- ١٦- (الطبقات الصغرى)، سنة ٩٥٣ هـ.
- ١٧- (مختصر قواعد الزركشي)، سنة ٩٥٥ هـ.
- ١٨- (اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر)، سنة ٩٥٥ هـ.
- ١٩- (درر الغواص على فتاوى سيدي على الخواص)، سنة ٩٥٥ هـ.
- ٢٠- (كشف الحجاب والران عن وجه أسئلة الجان)، سنة ٩٥٥ هـ.
- ٢١- (الأنوار القدسية في معرفة بيان العهود المحمدية)، سنة ٩٥٨ هـ.
- ٢٢- (لطائف المنن والأخلاق في بيان وجوب التحدث بنعمة الله على الإطلاق)، سنة ٩٦٠ هـ.
- ٢٣- (تنبيه المغترين في القرن العاشر على ما خالفوا فيه سلفهم الطاهر)، سنة ٩٦١ هـ.
- ٢٤- (القواعد الكشفية الموضحة لمعاني الصفات الإلهية)، سنة ٩٦١ هـ.
- ٢٥- (الميزان الخضرية)، سنة ٩٦٣ هـ.
- ٢٦- (القول المبين في الرد على الشيخ محيي الدين)، سنة ٩٦٤ هـ.
- ٢٧- (تطهير أهل الزوايا من خبائث الطوايا)، سنة ٩٦٧ هـ.
- ٢٨- (مختصر تذكرة الإمام القرطبي)، سنة ٩٦٨ هـ.

٢ - مصنفات مؤرخة على سبيل الترجيح:

هناك أحد عشر كتاباً ذكرهم الشعراني في كتابه لطائف المنن الذي ألفه سنة ٩٦٠ هـ، وهذا يعني أن تلك الكتب قد فرغ الشعراني من تأليفها قبل عام ٩٦٠ هـ، غير أننا لم نعرف على وجه التحديد متى انتهى من تأليف كل مصنف منها. ونذكر هذه الكتب مرتبة ترتيباً أبجدياً:

- ١- الاقتباس في علم القياس.
- ٢- البروق الخواطف لبصر من عمل بالهواتف.
- ٣- التبع والفحص على حكم الإلهام إذا خالف النص.

- ٤- الجوهر المصون في كتاب الله المكنون.
- ٥- حد الحسام على من أوجب العمل بالإلهام.
- ٦- لوائح الأنوار القدسية في مختصر الفتوحات المكية.
- ٧- لوائح الخزلان على كل من لم يعمل بالقرآن.
- ٨- مفعم الأكباد في بيان مواد الاجتهاد.
- ٩- المنهج المبين في بيان أدلة المجتهدين.
- ١٠- منهج الوصول إلى علم الوصول.
- ١١- فرائد القلائد في علم العقائد.

٣- ما تعذر تحديد تاريخه من المصنفات:

- ١- الأنوار في صحبة الأخيار.
- ٢- بهجة النفوس والأحداق فيما تميز به القوم من الآداب والأخلاق.
- ٣- تنبيه الأغبياء إلى قطرة من بحر علوم الأولياء.
- ٤- جامع الفضائل وقامع الرذائل.
- ٥- حبة المحبة.
- ٦- حزب الشيخ عبد الوهاب الشعراني.
- ٧- حقوق إخوة الإسلام.
- ٨- حياة الأرواح ونجاة الأشباح.
- ٩- خلاصة الأخبار.
- ١٠- الدرر السنية على الوصية المتبوية.
- ١١- الدرر المنتورة في زبدة العلوم المشهورة.
- ١٢- رياض الصالحين.
- ١٣- سر المسير والتزود ليوم المصير.
- ١٤- الطريقة المحمدية وسيلة للسعادة السرمدية.

- ١٥ - طهارة الجسم والفؤاد.
- ١٦ - فتح الباب ورفع الحجاب.
- ١٧ - الفتح في تأويل ما صدر عن الكُمل من الشطح.
- ١٨ - الفتح المبين في ذكر شيء عن أسرار الدين.
- ١٩ - القول المبين في دليل لبس الخرقة والتلقين.
- ٢٠ - كشف الشبهات.
- ٢١ - كشف القناع عن وجه السماع.
- ٢٢ - لباب الأعراف المانع عن اللحن بالسنة والكتاب.
- ٢٣ - مختصر الألفية لابن مالك.
- ٢٤ - مدارك السالكين إلى رسوم طريق العارفين.
- ٢٥ - مفتاح الصلاة ومراقبة النجاة.
- ٢٦ - المقدمة النحوية في علم العربية.
- ٢٧ - المنح السنية على الوصية المتبوية.
- ٢٨ - منح المنة في التلبس بالشرعية والسنة.
- ٢٩ - الميزان الكبرى الشعرانية المدخلة لجميع أقوال الأئمة المجتهدين ومقلديهم في الشريعة المحمدية.
- ٣٠ - نزهة الأفكار.
- ٣١ - نصيحة الإخوان.
- ٣٢ - اليواقيت والجواهر في عقوبة أهل الأكابر

تعقيب على المصنفات:

من خلال دراستنا لمصنفات الشعراني يتضح لنا أن الكتاب الواحد يشتمل على عدة مصنفات مختلفة.

كما يتضح لنا رصانة أسلوب الشعراني وسلالته ووضوحه وبساطته، فهو لا يلجأ إلى الصفات اللفظية، غير أنه في بعض كتبه يعرج في حديثه إلى العامية لتقريب آرائه وأفكاره إلى أذهان عامة القراء، ويظهر هذا واضحاً في كتابه لطائف المنن والأخلاق. وفي هذا الصدد يقول الأستاذ الدكتور زكي مبارك (ومن المؤكد أن عند الشعراني ألفاظ كثيرة لا يحسها الإحساس إلا أهل المنوفية)^(١).

والذي يهمنا هنا في المقام الأول هو أن نوضح أن الشعراني قد فضل في بعض الأحيان استعمال اللغة الدارجة العامية على اللغة العربية الفصحى ليقرب أفكاره إلى جميع المستويات الفكرية التي تقرأ له، ولم يستعمل العامية لعجزه عن استعمال الفصحى فإنه كان رطب اللسان، سلس البيان، متمكناً من ناصية اللغة متفهماً لدقائقها. وليس هذا ما أتبعه الشعراني في جميع كتبه بل أن له من المؤلفات ما كتبها بأرقى عبارات العربية الفصحى.

تقييم الكتاب والمستشرقين لمصنفات الشعراني:

لا شك أن كتب الشعراني التي امتدت إلى العديد من العلوم التي عرفها عصره تحتوي في طياتها من المعرفة ما له قيمة كبرى. ونحن الآن لا نبدي رأياً، وإنما نتعرض أولاً لمن حاولوا تقييم إنتاج الشعراني الفكري من معاصريه وتلامذته والمترجمين له، والكتاب المعاصرين والمستشرقين. فقد أجاز علماء المذاهب الأربعة كتب الشعراني بعد أن اطلعوا عليها وسطروا تلك الإجازات.

(١) التصوف الإسلامي في الآداب والأخلاق: د. زكي مبارك، ج ١، ص ٣٨٢.

ومن جملة ما كتبه شيخه شهاب الدين الرملي الشافعي^(١) على كتاب الشعراني كشف الغمة: وقفت على هذا الكتاب الغريب والمجموع العجيب فرأيت كتاباً لا ينكر فضله ولا يختلف اثنان في أنه ما صنف مثله... الخ^(٢).

ومن جملة ما كتبه شيخه نور الدين بن الطرابلسي الحنفي^(٣) على الكتاب السابق ذكره وتأملته فإذا هو محتوى على نخب حقوق العارفين وزبد كنوز الواصلين ولقد توجه مؤلفه بتاج لطائف التحقيق ومعارف رؤوس أهل الطريق... الخ^(٤).

ومن معاصريه من فقهاء الحنابلة كتب شيخه الفتوحى الحنبلي^(٥) وبعد: فقد وقفت على هذا المؤلف الفريد (كشف الغمة) الجامع بين الطارف والتليد الجامع لفنون من العلوم متفرقة المشتمل على مسائل لم توجد في غيره محققة... الخ^(٦).

ومن فقهاء المالكية كتب شيخه عبد القادر المالكي الشاذلي^(٧) (وبعد، فقد اطلعت على هذا الكتاب المسمى بـ "كشف الغمة" فوجدته كتاباً كريماً وصراطاً مستقيماً ونوراً ساطعاً عظيماً ورأيت فيه من غرائب الحديث وعجائبه ما لا تسعه مجلدات كثيرة مع اختصاره في حجم لطيف وأوراق يسيرة... الخ)^(٨).

(١) هو الشيخ شهاب الدين الرملي بن عبد الكافي، وهو من علماء المذهب الشافعي في عصر الشعراني وكان يعمل قاضياً، له ترجمة بالطبقات الصغرى، ص ٧٦.

(٢) انظر: لطائف المنن: ج ١، ص ٤٤.

(٣) كان من أهل المذهب الحنفي في عصر الشعراني وكان متقناً لعلوم الفقه وله زاوية يؤمها الفقهاء، وله ترجمة بالطبقات الصغرى للشعراني، ص ٧١.

(٤) لطائف المنن والأخلاق: ج ١، ص ٤٤.

(٥) أحد فقهاء عصر الشعراني وهو من فقهاء الحنابلة وله ترجمة بالطبقات الصغرى للشعراني، ص ١٣٦.

(٦) لطائف المنن والأخلاق: الشعراني، ج ١، ص ٤٤.

(٧) أحد فقهاء عصر الشعراني المتوصفين وله ترجمة في الطبقات الكبرى للشعراني، ج ٢، ص ١١٤.

(٨) انظر: لطائف المنن والأخلاق: ج ١، ص ٤٥.

تلك هي بعض الإجازات التي كتبها علماء عصر الشعراني على أحد كتبه، ويذكر الشعراني في كتابه "لطائف المنن" ^(١) جملة كبيرة من تلك الإجازات على مختلف مصنفاته يستطيع القارئ لها أن يقف على مدى تقدير هؤلاء العلماء من أهل المذاهب الأربعة المعاصرين للشعراني لكتبه ومصنفاته.

وإذا ذهبنا إلى تقييم الشعراني لكتبه فإننا نجد، يشير في مقدمة الكثير من مصنفاته إلى أنها ابتكار وإبداع لم يسبق إليه لأنها تحوي الكثير من المعرفة الذوقية والعلوم والطريقة النفيسة، كما يرى الشعراني في مصنفاته أنها تسلك بغير شيخ لكل من طالع فيها وتأملها.

بعد أن تناول الحديث عن مؤلفاته في كتابه لطائف المنن يختتم كلامه بقوله: (وحبست عن إخواني علوما وأسرارا لم أفصح لأحد منهم عنها وهي ذاهبة معي إلى القبر) ^(٢).

وإذا انتقلنا إلى أقوال تلامذته وتقييمهم لكتبه فنجد تلميذه الأول الماوي المتوفى سنة ١٠٣١ هـ يقول: (مضى - أي الشعراني - وخلف ذكرًا باقيًا وثناءً عطرًا زكيًا ومدادًا لا ينكره إلا معاند محروم ولا يجحده إلا باهت مأثوم) ^(٣).

أما عن آراء المحدثين فيما خلف الشعراني من تراث فكري فنجد الأستاذ الدكتور توفيق الطويل يقول: (وقد ساعد على انتشار كتبه الافتتان ببساطة أسلوبه وتجرده من المحسنات البديعية والمنمقات اللفظية وإرساله مطلقًا من غير تكلف) ^(٤).

ويقول الأستاذ الدكتور عبد الباقي سرور عن مصنفات الشعراني: (وبقى الشعراني حيا خالدا ف يكتبه وآثاره التي ترشد الناس إلى دينهم وتعلمهم مكارم الأخلاق، وترتفع بهم إلى محاريب التقوى والإيمان) ^(٥).

(١) المرجع السابق: ص ٤٥ - ٤٦.

(٢) لطائف المنن والأخلاق: الشعراني، ج ١، ص ٤٣.

(٣) الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية: نسخة خطية بدار الكتب المصرية، الجزء الخاص بترجمة الشعراني، (٢٥٩ تاريخ).

(٤) الشعراني إمام التصوف في عصره: ص ١٤٣.

(٥) التصوف الإسلامي والإمام الشعراني: طه عبد الباقي سرور، الطبعة الثانية، ص ١٤٣.

أما المستشرقون فقد وقفوا أمام الشعراني وقفة طويلة يدرسوا شخصيته وآرائه وتراثه الفكري وتناولوا صوفينا بالبحث والتحليل. لآرائه وكان لهم رأيا خاصا في مصنفاته فقد اعتبر نيكلسون أن إنتاج الشعراني الفكري خصب ومثمر وجديد وأنه خرج به على ما ساد عصره من جمود فكري وإن لمصنفاته تأثير واضح المدى يشهد به إلى يومنا هذا بإلحاح القراء الدائم في طلب كتبه^(١).

أما مكدونالد^(٢) فيقول عنه: (أن عقل الشعراني من العقول النادرة الخلاقة في الفقه بعد القرون الثلاثة الأولى من الإسلام).

وفي دائرة المعارف الدينية والأخلاقية يقول عنه فولرز (كان الشعراني كاتباً عريقاً بارزاً في ميدان الفقه وأصول الفقه^(٣)).

تلك هي آراء العرب والمستشرقين والقدامى والمحدثين فيما تركه الشعراني من تراث فكري.

(١) انظر: Nickolson: A literary History of the Arabs, ١٩٦٦, p ٤٤٣.

(٢) Mocadonold: Muslim Tehology Jurisprudence and costitutional theroy, New York, ١٩٠٣, p. ٢٧٩.

(٣) Encyclopedia of Religion and Ethics, Volume XI, p. ٤٤٨.

الباب الثاني

آراء الشعراني في التصوف

١- فصل: النفس الإنسانية.

٢- فصل: مجاهدة النفس.

٣- فصل: المقامات والأحوال.

٤- فصل: المعرفة.

٥- الله والعالم والإنسان.

تمهيد

بعد أن انتهينا من الفصول السابقة من عرض سيرة الشعراني مبينين ظروف العصر التي نشأ فيها وظروف بيئته الخاصة، وبعد أن وقفنا على أطوار حياته وما مر به من أحداث، ومراحل جهاده لنفسه وتصوفه، وعرفنا سمات هذا التصوف ثم تعرضنا لمكانة الشعراني وأثره في الحياة الاجتماعية والدينية، والدور الذي لعبته زاويته في تلك الناحيتين إلى جانب ما لعبته في الناحية العلمية أيضًا وعلى وجه العموم الذي لعبته هذه الزاوية في الناحية الثقافية.

وبعد أن تناولنا في الفصل الثاني مصنفاته بالعرض والتحليل والتعليق والنقد في المواضيع التي تستحق النقد، محاولين تقييم هذه المصنفات.

نبدأ في هذا الباب - على نحو من التفصيل - عرض آراء الإمام الشعراني في التصوف النظري والعملي مبتدئين بالنفس الإنسانية لمعرفة ماهيتها وطبيعتها وعلاقتها بالبدن، موضحين مدى اهتمام الإمام بها محاولين الوقوف على حقيقتها عنده ورسائل مجاهداتها ورياضاتها الروحية، ثم التحقق بمقامات السلوك، حتى يصل الإنسان إلى حال من المعرفة الذوقية لا يشاهد فيها إلا الله سبحانه وتعالى.

ونبدأ بالفصل الأول: وهو النفس الإنسانية.

الفصل الأول

النفس الإنسانية

- ١- التفرقة بين النفس والروح.
- ٢- تعاريف النفس الإنسانية وطبيعتها.
- ٣- العلاقة بين النفس والبدن.
- ٤- اهتمام الشعراني بالنفس.

تمهيد

تعد النفس الإنسانية من الأمور التي شغلت أذهان الباحثين في شتى المجالات، الصوفية منها والكلامية. وكان لصوفينا رأيه الخاص به، ونبدأ بالترقية بين النفس والروح قبل أن نعرض لرأي الشعراني في النفس.

١ - التفرقة بين النفس والروح:

عند كلمنا عن النفس يجب علينا وضع تفرقة واضحة بيننا وبين الروح، إذ فرق الله بينهما تفرقة واضحة في كتابه الكريم، فالروح لا معرفة لنا بكنهها فهي من أمر الله، أما النفس فقد ذكر الله أن لها جوانب متعددة وهذا ما حدثنا به الإمام الغزالي، الذي ذهب إلى أن ثمة لطيفة روحانية واحدة يطلق عليها النفس والروح والقلب وهي حقيقة الإنسان. كما ذهب إلى أن الروح وهي اللطيفة العالمة في الإنسان التي أرادها الله تعالى بقوله: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾^(١). هي أمر عجيب رباني تعجز أكثر العقول والأفهام عن درج حقيقته، وأن النفس هي اللطيفة ذاتها وهي نفس الإنسان وذاته وحقيقته، ولكنها توصف بأوصاف مختلفة بحسب اختلاف أحوالها، فإذا سكنت تحت الأمر وزائلها الاضطراب بسبب معارضة الشهوات سميت النفس المطمئنة، قال تعالى في مثلها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾^(٢).

ثم هناك النفس بالمعنى الجامع لقوة الغضب والشهوة في الإنسان. وهذا المعنى للنفس هو الغالب عند الصوفية لأنهم يريدون بالنفس الأصل الجامع للصفات المذمومة، إذ لم يتم سكونها ولكنها صارت مدافعة للنفس الشهوانية ومعارضة عليها سميت النفس اللوامة، لأنها تلوم صاحبها عن تقصيره في العبادة، قال تعالى: ﴿وَلَا أُقِيمُ

(١) سورة الإسراء: الآية ٨٥.

(٢) سورة الفجر: الآيات ٢٧ - ٢٨.

بِالنَّفْسِ الْوَامَةِ ﴿٢﴾^(١). وإذا تركت الاعتراض وأذعنت لمقتضى الشهوات ودواعي الشيطان سميت النفس الأمارة بالسوء، قال تعالى عنها: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾^(٢). ويمكن أن نضيف إلى تلك الجوانب للنفس الإنسانية جوانب أخرى مستمدة من القرآن الكريم، فهناك النفس الزكية التي ذكرها الله في قوله تعالى: ﴿أَفَلَتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّيِّنَا﴾^(٣). وهناك النفس الفاجرة، والنفس التقية التي أشار الله إليهما بقوله تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾^(٤).

والنفس الإنسانية واحدة وإن تعددت جوانبها التي ذكرناها، وقد بدأ المفسرون يفرقون بين النفس والروح تفرقة واضحة في بداية القرن الخامس الهجري، فنجد شهاب الدين الشهرزودي (٥٣٩ هـ - ٦٣٢ هـ) حاول أن يفرق بينهما فقال: (إن هناك الروح الإنساني العلوي السماوي في عالم الأمر، وهناك الروح الحيواني البشري في عالم الخلق، وهذه الروح لسائر الحيوانات، وعنه تفيض قوى الحواس، ولكن الروح الإنساني العلوي الذي في عالم الأمر قد ورد على الروح الحيواني في الإنسان فجعلته مختلف عن أرواح الحيوانات واكتسب صفة أخرى فصار نفسا للنطق والإلهام، فتسويتها بورود الروح الإنساني عليها وانقطاعها عن جنس أرواح الحيوانات فتكونت النفس بتكوين الله تعالى من الروح العلوي^(٥).

(١) سورة القيامة: الآية ٢.

(٢) سورة يوسف: الآية ٥٣.

(٣) سورة الكهف: الآية ٧٤.

(٤) سورة الشمس: الآية ٨.

(٥) انظر: عوارف المعارف، السهرودي، ص ص ٣٠٧ : ٣١٣.

٢ - تعريف النفس الإنسانية وطبيعتها:

يعرف الشعراني النفس بقوله: (اعلم أن النفس لطيفة حاصلة من تلطيف اللطيفة القلبية الحاصلة من تلطيف العناصر وكسر عورتها واعتدالها بالقدرة التامة الإلهية، وهي جامعة للصفات الذميمة والأخلاق الرديئة فلا بد من تركيتها بالمجاهدات والتنديدات كي يفلح صاحبها^(١)). وقد قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّهَا﴾^(٢). فهي في تلك المرحلة أمانة بالسوء وأعدى عدو، وإلى هذه المرتبة أشار رسول الله صلى الله عليه وسلم (أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك).

وتعريف الشعراني للنفس بأنها لطيفة قد سبقه إليه الإمام القشيري بقوله: (يحتمل أن تكون النفس لطيفة مودعة في القلب)^(٣). والإمام الغالي الذي يذهب إلى (أن النفس هي اللطيفة الإنسانية المودعة في الإنسان)^(٤). كما عرف الشَّهْرُورْدِيَّ النفس بأنها لطيفة مودعة في القلب^(٥).

ويرى الشعراني أن النفس ليست بالشيء الذي يمكن للإنسان معرفة كنهه والوقوف على ماهيته، وجعلها مرتبة تعجيز من الله تعالى لعباده إذ يقول: (إن العبد منا لا يعرف كنه نفسه أبداً لأن الله تعالى جعل النفس مرتبة تعجيز دونه تعالى، وكأن الحق جل وعلا يقول إن عرفتم كنه أنفسكم فأنتم تعرفوني، ومعلوم أنه لم يبلغنا عن أحد إنه عرف كنه نفسه)^(٦).

ويذهب إلى مثل هذا الرأي علماء النفس المحدثين، فالنفس الإنسانية عندهم تحتوي على مزيج متناقض من الانفعالات المعقدة والعواطف المختلفة والدوافع

(١) جامع الفضائل وقامع الرذائل: ل ١٧٩ و.

(٢) سورة الشمس: الآية ٩.

(٣) الرسالة القشيرية في علم التصوف، القشيري، ص ٤٤.

(٤) إحياء علوم الدين: الغزالي، ج ٣، ص ٤.

(٥) عوارف المعارف: الشهرودي، ص ٣١٥.

(٦) القواعد الكشفية: ل ١٩ و.

الشعورية واللاشعورية، وغيرها من الإحساسات والمشاعر التي يصعب معها معرفة كنه النفس، وإنها إلى جانب ذلك التعقيد متغيرة من آن لآخر مما جعل الوقوف على تحليلها ومعرفتها أمر غير ممكن لتقلب العواطف وتغير الانفعالات واختلاف الدوافع بشكل مستمر.

ولا يستحسن صوفينا شيئاً من أفعال النفس وأحوالها وأقوالها، لأن النفس عاجزة عن الوفاء بحقوق ربها عز وجل، وهي عاجزة عما كلفت به من الأمور الشرعية. وللنفس حالتان: حالة عافية، وحالة بلاء؛ فإذا كنت النفس في حالة البلاء كما يذهب إلى ذلك الشعراني فإن الجزع يلزمها غالباً، كما تلازمها الشكوى الدائمة والسخط والاعتراض على الله تعالى، وعدم الصبر وعدم الرضا.

وإذا كانت النفس في حالة عافية فيلزمها غالباً الشر وحب الشهوات واللذات، فكلما نالت شهوة أو اشبعت لذة تبعت بأخرى، وازدرت ما عندها من النعم من مأكّل ومشرب ومسكن وغيرها، وتظهر في كل نعمة تتمتع بها عيوباً ونقصاً فتطلب أعلا منها وتتطلع إلى ما لم يقسم لها.

وقد تأثر الشعراني في ذلك بحديث عبد القادر الجيلاني عن أحوال النفس حيث قال: (للنفس حالتان لا ثالث لهما، حالة عافية وحالة بلاء، تلازمها في حالة البلاء الجزع والشكوى، والتهمة للحق من غير صبر ورضى ولا موافقة بل محض سوء أدب وشرك بالخلق والأسباب، وإن كانت في عافية ونعمة فلا يلزمها غالباً إلا الشر والبطر وإتباع الشهوات)^(١).

وعن طبيعة النفس يقول الشعراني: (اعلم يا أخي أن من شأن النفس أنها إذا كانت في بلاء لا تتمنى سوى انكشافه عنها وتنسى كل نعيم وشهوة ولذة، فإن عوفيت وشفيت من ذلك رجعت إلى رعونتها وشرها وبطرها وأعراضها عن طاعة ربها جل وعلا وانهماكها في المعاصي وتنسى كل ما كانت فيه من البلاء)^(٢).

(١) لطائف المنن والأخلاق: الشعراني، ج ١، ص ٨٥.

(٢) نفس المرجع السابق: ص ٨٥.

وهو يصف حال النفس في وقت الشدة وهي متناسية لكل الشهوات والمطامع والذات والتطلعات والكبر والعجب والغطرسة والحسد وجميع ما كانت عليه من صفات قبل وقوعها في تلك المحنة فلا يكون همها في هذه اللحظة سوى أن تتمنى من الله أن يكشف عنها هذه الشدة ويزيل هذا البلاء، فإذا ما حدث ذلك وأجابها الله إلى ما تمتته نسيته ضعفها وزلتها أثناء الشدة وعادت إلى سابق عهدها ورجعت إلى ما كانت عليه من شر وبطر واعتراض، ناسية طاعة الله، وناسية كل ما كانت فيه من بلاء. قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَتْهُمْ إِذَا لُهم مَكْرُفِيءَ آيَاتِنَا﴾^(١).

وإذا أراد رحمة بهذه النفس فإنه يردها إلى ما كانت فيه من بلاء ليفهمها حقيقة وضعها، ويكفيها عن المعاصي في المستقبل ويقول الشعراني: (وربما أن الله يعاقب تلك النفس فيردها إلى أشر ما كانت فيه من الشدة والبلاء عقوبة لها على نسيانها رحمة ربها وقوته، ويكون ذلك رحمة بالنفس من الله)^(٢).

ولذلك فإن الشعراني وجد أن النفس لا تصلح لها العافية والنعمة وأن البلاء والبؤس أولى بها.

وإذا كانت هذه هي أحوال النفس وطبيعتها فواجب السالك الذي يريد الوصول إلى الله أن يمسك بزمامها وكبح جماحها ويشعرها بالحرمان والذل والفقر حتى يستطيع أن يفي بحقوق الله، وأن يقوم بما كلف به من الواجبات والفروض الشرعية والنوافل. قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾^(٣).

(١) سورة يونس: الآية ٢١.

(٢) لطائف المنن والأخلاق: الشعراني، ج ١، ص ٨٥.

(٣) سورة غافر: الآية ١٧.

ويقول ذو النون المصري: (إن مفتاح العبارة هي الفكرة وآية الوصول مخالفة النفس والهوى، ومخالفتها في ترك الأمانى، وأن كل من داوم على التفكير يرى عالم الروح في قلبه)^(١).

ويقول الشَّهْرَوَزْدِيّ: (أن روح الصوفي متطلعة منجذبة إلى مواطن القرب، وللنفس طبعها رسوب إلى عالمها وانقلاب إلى عقبها، ولا بد للصوفي من دوام الحركة بدوام الافتقار ودوام الفرار وحسن التفقد لمواقع إصابات النفس ومن وقف فلبى هذا المعنى يجد في معنى الصوفي جميع المتفرق في الإشارات)^(٢).

(١) انظر: تذكرة الأولياء، العطار في شرح ذي النون المصري، النص الفارسي (مفتاح عبادة فكر نست وتشان رسيون مخالفت نفس وهواست ومخالفت آن ترك أرزها أست هرکه مداومت كند بر فکرت بدل عالم غيب به بيند بروح)، ج ١، ص ١٢٥.

(٢) عوارف المعارف: السهرودي، ص ٤٤.

٣ - العلاقة بين النفس والبدن:

يرى الشعراني أن النفس مسجونة في البدن، فالعلاقة بينا وبين الجسم علاقة السجين بالسجان، والبدن قائم بها، والنفوس عند صوفينا من شأنها محبة البراري والفضاء لأن الفضاء يذكرها بحالها قبل تقييدها في الجسم^(١).

واعتبار البدن سجن للنفس فكرة قديمة، تحدث عنها الصوفية وتناولها ابن عطاء الله السكندري في قوله: (أورد عليك الوارد ليخرجك من سجن وجودك إلى فضاء شهودك)^(٢). فهو يتصور أن البدن سجن النفس وأن النفس لن تصل إلى المعرفة اليقينية والسعادة الحققة إلا إذا صفت وترقت إلى حال أعلى بوارد إلهي يرد عليها.

والشعراني يؤمن كغيره من الصوفية أن النفس كانت موجودة في عالم آخر غير عالمنا قبل أن تحل بالجسم الإنساني، هذا العالم هو ما يسميه الصوفية بعالم الذر أو عالم الأمر^(٣) حيث كانت حرة طليقة، وقد شهدت وجودية الله وتحققت بمعرفته تعالى في ذلك العالم. ولكنها بعد هبوطها إلى عالمنا هذا وحلولها في الجسم احتجبت عنها أنوار المعرفة الفطرية السابقة التي اطلعها الله عليها، وحال الجسد بينها وبين معرفتها السابقة فحجبها عنها وأصحبت في هذا العالم مطية حسنة في طريق الحق لمن يروضها ويجاهدها^(٤).

والشعراني متأثر في قوله: بأن النفس كان لها وجود سابق على وجودها في البدن بالصوفية السابقين عليه، كما أنه بحديث أفلاطون عن المثل، حيث كانت النفس قبل حلولها في البدن مطلعة على المثل وعارفة بها وبعد حلولها في البدن نسيت تلك المعرفة الفطرية، وأن ما تحصله من معرفة مكتسبة بعد حلولها في البدن يعد تذكرا لما

(١) كشف الحجاب والران، ص ١٢٢.

(٢) انظر: شرح الرندي على الحكم، ج ١، ص ٥٤، طبعة بولاق، سنة ١٢٧٨ هـ.

(٣) عالم الأمر: هو ما وجد عن الله بغير سبب ويطلق بإزاء الملكوت ويقابله عالم للخلق وهو ما وجد عن الله بسبب، ويطلق بإزاء عالم الشهادة.

(٤) جامع الفضائل وقامع الرذائل: ل ١٧٩ ظ.

كانت عليه من معرفة سابقة حيث كانت في صحبة الآلهة، ومطلعة على جميع ما في عالم المثل.

كما إنه مستند أولاً وقبل كل شيء على مصدر إسلامي من القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ (١).

والشعراني يثبت بذلك للنفس وجوداً مستقلاً عن الجسم، ويمكن عن طريق المجاهدات والرياضات أن تكون النفس مطيعة وعارفة بالله، وهي بذلك أشرف من الجسم الفاني لا يقوم إلا بها.

٤ - اهتمام الشعراني بالنفس:

اهتم الشعراني - كغيره من الصوفية - اهتماماً كبيراً بدراسة النفس الإنسانية على اعتبار أن النفس جبلت على الشر والفساد الذي يحضها على الميل إلى الهوى ولذيذ العيش والاستسلام للشهوات والركون إلى الراحة والبعد عن الطاعة والتكاسل عن أداء العبادة.

فالنفس بحكم طبيعتها أمارة بالسوء، وإذا استطاع الإنسان أن يسيطر عليها، في رغباتها وأهوائها فإنه بذلك يكون قد قهر أعدى أعدائه، وهدم أمتع سد بينه وبين ربه، ولا يتأتى ذلك إلا بالمجاهدات العملية والرياضات الروحية ومخالفة النفس وقمع شهواتها وأهوائها، وإزلالها وعدم الاستسلام لها، حتى يستطيع السالك بعد ذلك السير في طريقه إلى حضرة الله ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ﴾^(١). ويذهب الشعراني إلى أن النفس قد جبلت على الصفات الذميمة، فإن الاستسلام للشهوة والهوى من طبيعتها، ودور الإنسان هو مجاهدة نفسه ورياضتها حتى يبدل صفاتها المذمومة بصفات حميدة، وحتى تصبح مطيعة راضية بعد أن كانت متمردة عاصية، فإذا بلغ الإنسان هذه الغاية فإن دوره لا ينتهي عند هذا الحد، فيجب عليه ألا يتهاون في مجاهدة نفسه ورياضتها مهما بلغ من الترقى في المقامات والأحوال. فليس له أن يأمن شر نفسه، فإن الشر كامن في طبيعتها وما كان من أصل النشأة فمحال أن يزول، فإن صفات النفس الذميمة تظل كامنة في نفس الإنسان طالما ظل مداوماً على كبح جماحها في تظهر، ولكنه متى تهان في ذلك فإنها تعود إلى طبيعتها الأولى، ويقول الشعراني: (فما كان من أصل النشأة فمحال أن يزول)^(٢).

وقد طرق الصوفية من قبل موضوع النفس الإنسانية ورياضتها واهتموا به اهتماماً كبيراً واعتبروا مجاهدة النفس ورياضتها أساساً لطريق التصوف، يقول ابن عطاء الله

(١) سورة إبراهيم: الآية ٥١.

(٢) لطائف المنن والأخلاق: الشعراني، ج ١، ص ٥٤.

السكندري: (لولا ميادين النفوس ما تحقق سير السائرين إذ لا مسافة بينك وبينه حتى تطويها رحلتك، ولا قطعة بينك وبينه حتى تمحوها وصلتك)^(١).

فدراسة النفس توقف الإنسان على غوائلها وشهواتها وأهوائها ومخالفاتها، وإذا عرف السالك مواطن الضعف في نفسه أعانه ذلك على مقاومتها، والنجاح في محاربتها والانتصار عليها للوصول إلى حضرة الله، فإن النفس الخبيثة حجاب يحجب الحق عن قلب العبد.

إن معرفة النفس تؤدي بالتالي إلى معرفة الله تعالى كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من عرف نفسه عرف ربه)، ومن عرف نفسه بمعنى العبودية أمر كفي نفسه معنى الربوبية.

أن للنفس الإنسانية طبيعتين هما منبع الشر فيها، وهما الشهوة والهوى، أما الشهوة فهي ما اقترن باللذة فكل موطن في البدن له أغراض يشعر الإنسان بلذة إشباعها حتى إذا ما اطلق لنفسه العنان في إشباع لذته ومطالب جسده، المستمرة والملحة وشعر بلذة هذا الإشباع، فإن هذا الاستسلام يؤدي به إلى الانغماس في حياة مادية خالصة لا تختلف كثيرًا عن الحياة التي تحياها الحيوانات.

وسهل الصوفي إلى الكمال الخلقي هو مجاهدة نفسه ورياضته وهذا ما ستعرض له في الفصل التالي.

أما الهوى فهو ميل النفس إلى تحقيق رغباتها وهو لا يقتصر على تحقيق الرغبات الحسية بل ينزع إلى لذات من نوع آخر، كلذة التسلط والقهر وحب الرئاسة والسيطرة وحب الظهور والكبرياء والعجب والحقد والحسد وغيرها.

والصوفي الصادق في سلوكه طريق الحق يقف في سبيل تحقيق أهواء نفسه فلا يطيعها في شيء ويخالفها فيما تنوق إليه وتهواه.

وقد قال الشعراني: إن رأس مال المريد مخالفة نفسه^(٢).

(١) ابن عطاء الله السكندري وتصوفه: التفتازاني، طبعة ٢، ص ١٦٧.

(٢) المريد الصادق مع مريد الخالق: ل ١٢ ظ.

الفصل الثاني

مجاهدة النفس

- ١ - معنى المجاهدة.
- ٢ - العبادات ومجاهدة النفس.
- ٣ - ضرورة إشراف الشيخ المريد في المجاهدة.
- ٤ - رياضة النفس.
- ٥ - العزلة والخلوة.
- ٦ - الصوم.
- ٧ - السهر.
- ٨ - الصمت.
- ٩ - الذكر.
- ١٠ - السماع.

١ - معنى المجاهدة:

بيننا في الفصل السابق ماهية النفس وطبيعتها والعلاقة بينها وبين البدن، وبيننا مدى اهتمام الشعراني بها باعتبارها حجاباً يحجب العبد عن ربه، فإذا استطاع السالك تفهم طبيعتها فإنه يبادر إلى مجاهدتها والسمو بها إلى الكمال الخلقي حتى يصل إلى أعلى المقامات وأسمى المعارف وهي معرفة الله سبحانه وتعالى معرفة ذوقية شهودية.

ويرى الشعراني أن النفس جاهلة ظالمة، وأن الجهل والظلم يصدر منها كل عمل خبيث وقول قبيح، ومن كان وصفه الجهل والظلم لا مانع في اعتداله واستقامته البتة إلا يبذل الجهد في العلم النافع الذي يخرج النفس عن وصف الجهل والعمل الصالح الذي يخرجها من وصف الظلم.

والعلم عند صوفينا هو التفقه في الدين ودراسة الشريعة وحفظ الأحاديث النبوية والوقوف على دقائقها، حتى يكون عمل السالك ما على العلم، أما العمل الصالح الذي يخرج النفس من ظلماتها فهو ممارسة الرياضات الأخلاقية والمجاهدات النفسية فمجاهدة النفس من شأنها أن تزيل معاييبها وسماتها السيئة. ويقول الشعراني: (من شأن المريد أن يجعل رأسماله حذف العلائق الدنيوية، فإن من كان له علائق دنيوية فقل أن يفلح لأن تلك العلاقة تجره إلى الوراء، والفقهاء في الدين مفتاح الطريق)^(١).

وما ذهب إليه الشعراني في هذا الصدد يشبه ما ذهب إليه من قبل الشُّهْرَوَرْدِيّ إذ يقول: (وجميع النفس وصفاتها من أصلين؛ أحدهما: الطيش، والثاني: الشره، وطيشها من جهلها، وشرها من حرصها)^(٢).

وقال تعالى في صفات النفس: ﴿فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾^(٣).

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِآلِبَتِّنَا فَاَسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ﴾^(٤).

(١) الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية، ص ٥٩.

(٢) عوارف المعارف، السهرودي، ص ٣١٥.

(٣) سورة فصلت: الآية ١٥.

(٤) سورة العنكبوت: الآية ٣٩.

قال الشعراني أن مجاهدة النفس أساس الوصول إلى الكمال الأخلاقي، فإذا تم للسالك السيطرة على نفسه وتسنى له مجاهدتها أمكنه الولوج إلى درجات وفتح له الطريق إلى الله^(١).

والشعراني في ذلك يتابع الصوفية الذين سبقوه في القرنين الثالث والرابع الهجري، فكان من جهلة الفرق الصوفية الفرقة المعروفة بالسهلية، المنسوبة إلى مرسل بن عبد الله التستري كانوا يرون أن رياضة النفس ومجاهدتها أساس الوصول إلى درجات الكمال، كما أن الحمدونيين أي أتباع حمدان القصار، كانوا يرون الخدمة أساس الطريق، والجنيديون أي أتباع الجنيد البغدادي يرون أن مراقبة الباطل طريق الوصول للكمال^(٢).

وقاعدة مجاهدة نفسه تتحقق بمنعها من كل ما تتوق إليه وتشتهيه وخاصة من الأشياء التي اعتادت عليها، يقول الطوسي (المتوفى سنة ٣٧٨ هـ) من مشايخ الصوفية الذين تكلموا في التصوف (إنما تكلموا بعد قطع العلائق وإماتة النفوس بالمجاهدات والرياضات والمنازلات والوجد والاحتراق والمبادرة والاشتياق إلى قطعة كل علاقة قطعتم عن الله عز وجل طرفة عين)^(٣).

وكان هدف الصوفية من وراء تربية النفس أن تقوى على ترك شهواتها وهو كبرائها وتنمية قوة عزيمتها واحتمالها للمشقة والألم والبلايا والمحن حتى يمكن للسالك بعد ذلك أن يتحقق بمقامات السلوك ليصل المعرفة الدنية، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾^(٤).

(١) لطائف المنن والأخلاق: الشعراني، ج ١، ص ٨٥ ؟

(٢) تاريخ التصوف الإسلامي: د. قاسم غنيمي، ص ٤٢٧.

(٣) اللمع: القوصي، ص ١٩ - ٢٠. وانظر أيضًا: ص ١٩٤ وما بعدها.

(٤) سورة الأعراف: الآية ١٧٦.

٢ - العبادات ومجاهدة النفس:

إن للشعراني نظرية خاصة في مجاهدة النفس، فالعبادة عنده هي المجاهدة المبنية على مخالفة النفس، فهي تأبى جميع العبادات ولذلك كل من جاهد نفسه وقلبها وقتل شهواتها وأهوائها بسيف المخالفة يحييها الله عز وجل ليكتب له ثوابًا دائمًا متجددًا.

فإذا أنعم الله سبحانه وتعالى على عبد جعل نفسه تنازعه من حين لآخر حتى بعد أن يطعن في السن بميلها إلى الشهوات ثم يعينه الله تعالى على مجاهدتها، وذلك ليكتب له ثوابًا متجددًا ونعيمًا دائمًا.

فإذا ظل المؤمن على مجاهدة نفسه حتى أتاه الموت ولقى ربه كانت الجنة هي المأوى والمقر الأخير، ولنستمع إلى كلام الشعراني في ذلك إذ يقول: (فإذا عمل المؤمن على مجاهدة نفسه حتى أتاه الموت ولحق بربه ولقيه بسيفه الملول الملطخ بدم النفس والهوى أعطاه تبارك وتعالى ما ضمن له من الجنة بقوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنْ أَهْوَىٰ ۖ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾^(١). ثم إذا أدخله الله الجنة واستقر بها وأمن النقلة وغرق في النعيم طلب العودة إلى دار الدنيا ليجاهد نفسه ثانيا فيجدد الله تبارك وتعالى له نعيما إلى ما لا غاية له^(٢)).

وإذا كان ذلك كذلك فإنه يمكن القول أن ساعات المجاهدة للمؤمن هي التي كانت سبب نعيمه وساعات ترك المجاهدة للكافر أو العاصي هي التي كانت سبب تعذيبه، فضعف لكل قسم ما يناسبه من النعيم أو العذاب، ويقول صوفينا: (وهذا معنى حديث الرسول عليه السلام الدنيا مزرعة الآخرة وكل ميسر لما خلق له)^(٣).

(١) سورة النازعات: ٤٠ - ٤١.

(٢) لطائف المنن والأخلاق: ج ١، ص ٨٥.

(٣) المرجع السابق: ص ٨٥.

إذا كان من شأن السالك لطريق الصوفية أن يتحلى بأخلاق حميدة وخصائص سلوكية معينة فقد أفاض الشعراني في شرحها وتوضيحها في أغلب مصنفاته^(١). فإن على السالك بعد ذلك أن يطلب له شيخًا يسلك الطريق على يديه، ويطلب العزلة والخلوة والذكر وغيرها من الآداب العملية التي هي عند الصوفية عماد الطريق لأنها تهين السالك ليتحقق بالمقامات والأحوال كالزهد والتوكل والإحسان والصدق والأنس والبقاء والفناء وغيرها، حتى يصل إلى المعرفة الكشفية فيعرف الله كشفًا ويقينًا ويصبح من كمل رجال الطريق.

(١) الطريقة المحمدية وسيلة للسعادة السرمدية: ل ٢١٦ ظ.

٣ - ضرورة إشراف الشيخ على المريد في المجاهدة:

يذهب الشعراني إلى أنه لا بد لسالك طريق التوحيد أن المقبل على المجاهدة نفسه السائر في طريقه إلى حضرة الله، من مرشد كامل وشيخ واصل وهو في سيره ويرشده ويعلمه ويختصر له الطريق ويساعده على التغلب على شهوات نفسه وأهوائها، ولنستمع إلى رأي صوفينا في ذلك:

(أفضل العبادات هو ما يوصل إلى الله سبحانه وتعالى وهو السلوك في طريق التوحيد، ولا بد لذلك من مرشد كامل وأستاذ فاضل. ولهذا قال أهل الله الكُمَّل " من لم يكن له شيخ فشيخه الشيطان ") ^(١).

وترجع أهمية سلوك المريد طريق التصوف على يد شيخ إلى أن الشيخ يساعده على إزالة الموانع المختلفة التي قد تعترضه في طريقه، كما أنه يعرفه بمواطن الضعف في نفسه وليحمله من الالتفات إلى غير مقصوده، ويعلمه آداب السلوك لكي يصل به إلى الكمال الخلقي.

ويقول الشعراني في ضرورة الاهتداء بشيخ لسلوك الطريق (وصار الناس اليوم لهم موانع لا تحصي حتى أن بعضهم يرى الأخلاق المحمدية من زهد وورع وخشية ونحو ذلك فلا يصل إلى التخلق بها، فذلك أوجب بعض علماء الشريعة على الطالب أن يتخذ له شيخا يرشده إلى طريق إزالة هذه الموانع من باب ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب... ومراد أشياخ الطريق بتسليكمهم الناس أن يوصلوا المريد إلى تمام العمل بالإخلاص الذي كان عليه السلف الصالح) ^(٢).

والاهتمام بضرورة إشراف الشيخ على المريد ذات شأن لدى الصوفية منذ القدم قال الإمام القشيري: (يجب على المريد أن يتأدب بشيخ، فإن لم يكن له أستاذ لا يصلح أبداً) ^(٣).

(١) الطريقة المحمدية وسيلة للسعادة السرمدية ل ٢١٦ ظ.

(٢) لطائف المنن والأخلاق: ج ١، ص ٤٨.

(٣) الرسالة: القشيري، ص ١٨١، عوارف المعارف: السرودي، ص ٧٠.

وقال البسطامي: (من لم يكن له أستاذ فإمامه الشيطان)^(١).

وقال أبو علي الدقاق: (الشجرة إذا نبتت بنفسها من غير غارس فإنها تورق لكن لا تثمر، كذلك المريد إذا لم يكن له أستاذ يأخذ منه طريقته نفساً فنفساً فهو عابد هواه لا يجد نفاذاً)^(٢).

قال الشَّهْرَوَرْدِيّ: (الشيخ من جنود الله تعالى يرشد به المريدين ويهدي الطالبين)^(٣). وقد أجمع الصوفية على أن مجاهدة النفس أمر عسير وأن طريقهم وعرة ومحفوفة بالقواطع والمهلكات فلا بد من سالكها من أستاذ حاذق عارف بقواطع الطريق ومسالكها فينير لتلامذته جوانبها ويأخذ بيدهم ويتقدمهم في كل خطوة يخطونها... إلى.....، وإلى مثل ذلك ذهب الشعراني إذ يقول: (فإن طريق الله سبحانه وتعالى وغاية الشرف والعزة لكونه مثلاً إلى أعز المطالب حق الفسخ بالقواطع والمهلكات من كل جانب فلا يسلكه إلا مريد مقدم صادق بإرشاد دليل كامل وأستاذ حاذق فإن صح توجه المريد إلى الله تعالى وصدق في قصده، فالله سبحانه وتعالى يوصله إلى شيخ ناصح)^(٤).

قال شهاب الدين الشَّهْرَوَرْدِيّ في وظيفة الشيخ: (الطالب الصادق في طلبه يتقصد حسن ظن وعقيدة شيخ يحكمه في نفسه، لمصالح دينه ويرشده ويهديه ويعرفه طريق التواجد ويبصره بآفات النفس وفساد الأعمال ومداخل العباد)^(٥).

والشعراني يتصور أن الشيخ يقوم بوظيفة الطبيب النفسي بالنسبة للمريد بهذه الفعالة، فعلى الطبيب أن يكون ملماً بالأمراض المتعلقة بالروح والنفس والبدن ويكون عارفاً بخواطر النفس وأصل منشئها ووسائل علاجها. وفي نفس الوقت يجب على المريد أن يكون صريحاً مع شيخه فلا يخفي عليه صغيرة ولا كبيرة من خلجات نفسه،

(١) الرسالة: القشيري، ص ١٨١.

(٢) المرجع السابق: ص ١٨١.

(٣) عوارف المعارف: ص ٦٠.

(٤) الطريقة المحمدية وسيلة للسعادة السرمدية: ل ٢١٦ ظ.

(٥) عوارف المعارف: السرودي، ص ٦٩.

يصف لشيخه بأمانة كل ما يعتريه من خواطر ومشاعر على طول الطريق، حتى يتمكن الشيخ أن يصف له الدواء اللازم ويقدم له النصيحة ويرشده إلى الصواب^(١).

وقد تبع الشيخ في ذلك الإمام الغزالي إذا اعتبر الشيخ بمثابة الطبيب الذي يعالج أمراض قلب السالك حتى ينساق إلى جوار ربه^(٢).

كما تابع بن عطاء الله السكندري حينما قال: (ينبغي للشيخ تفقد حال المريدين ويجوز للمريدين إحضار الأستاذين وإن لزم من ذلك كشف حال المريد لأن الأستاذ كالطبيب وحال المريد كالعورة قد تبدى للطبيب لضرورة التداوي)^(٣).

ولما كن الشيخ بالنسبة للمريد بمثابة الطبيب الذي يداوي أمراض نفسه فإن الشيخ يحذر السالك من أن يتخذ أكثر من شيخ، فإذا ارتضى لنفسه شيخاً فلا ينبغي أن يلجأ إلى غيره، ويقول: (ومن شأنه "أي المريد" ألا يكون له إلا شيخ واحد لا يجعل له قط شيخين لأن مبني طريق القوم على التوحيد الخالص)^(٤).

وما دام السالك قد أسلم للشيخ أمره فلا بد أن يضع فيه ثقته كاملة ويخضع لإيحاءاته. ولا ينازعه ولا يجادله، وألا يكون لهما مع الشيخ اختيار، ولا يشترط عليه شرط، ويقول الشعراني: (إذ ليس الميت شرط على غاسله ومن خرج عن إرادته فرق بين وبين الميت)^(٥).

ومعنى ذلك أن المريد يستسلم لما يأمره شيخه به من الأوامر ويطيعه في ذلك راضياً مختاراً فيسقط إرادته بالكلية وينزل على رغباته، ويترك ما تتوق إليه نفسه جانباً وينفذ ما يطلبه منه شيخه، حتى وإن وجد أنه على غير رغبته، وهذا هو معنى المجاهدة

(١) نصيحة الإخوان: ل ٤٥ و.

(٢) إحياء علوم الدين: الغزالي، ج ٣، ص ٣.

(٣) ابن عطاء الله السكندري وتصفوفه: د. التفتازاني، الطبعة الثانية، ص ١٧٢.

(٤) الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية: تحقيق عبد الباقي سرور، ص ٦٤.

(٥) الطريقة المحمدية وسيلة للسعادة السرمدية: ل ١١٧ و.

وترك أهواء النفس وإسقاط الإرادة، فإن السالك الذي يجهز نفسه للمريد شيخ في نظر الشيخ كالميت لأنه خرج على إرادته وإنفاد لأوامر شيخه ينفذها طائعاً مختاراً.

فآداب المريد مع الشيخ عند الصوفية من مهام الأدب، وللقوم في ذلك اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا نُفَدُّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَانْقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ ۚ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ ۝٢﴾^(١).

ويقول الشهروردي: (آداب المريد في مجلس الشيخ ينبغي أن يلزم السكوت ولا يقول شيئاً في حضرته من كلام حسن إلا إذا استأمر الشيخ ووجد من الشيخ فسحة من ذلك)^(٢).

وإذا كان ذلك كذلك، فإن على السالك أن يختار شيخاً متضلعا في أمور الدين ويقول الشعراني: (وذلك يكفيه عن الاجتماع على غيره)^(٣). فلا بد للسالك أن يسلم قيادته لشيخ قادر حاذق.

(١) سورة الحجرات: الآيات ١ - ٢.

(٢) عوارف المعارف: السرودي، بهامش إحياء علوم الدين، للغزالي، ج ٤، ص ٨١.

(٣) الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية: ص ٦٢.

٤ - رياضة النفس:

وإذا كانت مجاهدة النفس عند الشعراني هي رياضتها من الناحية الأخلاقية، ثم اصطناع الوسائل العملية كقلة الأكل، وقلة الكلام، والسهر والذكر والسماع والعزلة والخلو وغيرها من الوسائل العملية التي تهئ السالك لحالات من الوجد والفناء الاتصال. ومع ترقيه في مقامات السلوك المختلفة كالنوبة، والزهد، والورع والمراقبة، والصدق، والتوكل والإخلاص والمحبة والإنس وغيرها من المقامات التي يندرج السالك فيها حتى ينتهي إلى التحقق بمقام المعرفة بالله معرفة ذوقية شهودية؛ فإن رياضة النفس عند الشعراني هي أن يتخلص السالك عن أخلاق نفسه الذميمة ويستبدل بها أخلاق أخرى حميدة، وأن يمارسها في علاقاتها الاجتماعية صح أفراد المجتمع الذي يعيش فيه. ومن هنا كانت رياضة النفس أول الخطوة للسالك في طريق المجاهدة.

وخلاق نفس الذميمة عند صوفينا، وإن كثرت إلا أن أصولها سبعة هي:

- ١- الكبر.
- ٢- العجب.
- ٣- الرياء.
- ٤- الغضب.
- ٥- الحسد.
- ٦- حب المال.
- ٧- حب الحياة^(١).

وعلى السالك أن يروض نفسه للتخلص منها والتحلي بأخلاق كريمة. والأساس التي تقوم عليه رياضة النفس عند الشعراني هو النظر إلى ما يحبه الله من أخلاق وما حض عليه في كتابه الكريم، والسنة المطهرة ومحاولة التخلق بها والاهتداء بهدي السلف الصالحين قدر الطاقة، وهذا هو الجانب الإيجابي في مجاهدة النفس.

(١) القواعد الكشفية: ل ١٨ ظ.

وهناك الجانب السلبي بأن ينظر السالك إلى ما يكرهه الله من الأفعال والصفات ويتجنب العمل بها.

فالسير على الكتاب والسنة بإتباع أمر الحق سبحانه وتعالى أن يتخلق العبد به عن الأخلاق، والابتعاد عما نهى الله عنه من صفات النفس الرديئة هو طريق رياضة النفس للتحقق بالكمال الخلقي^(١).

يرى القوم في رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه أسوة حسنة فقد قال (أن الله تعالى أوحى إلي أن تواضعوا ولا يبغي بعضكم على بعض)^(٢)، كما قال عليه السلام في تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي﴾^(٣) قال على البر والتقوى والرهبة وذل النفس^(٤).

وقد كان أصحاب الرسول عليه السلام مضرب المثل في الإيثار والمواساة وحب الإخوان، وللصوفية أن يقتدا بهم وبأخلاقهم الطيبة، ومن ذلك ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه، من أن رجلا جائعا جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يطلب طعاما فلم يجد الرسول صلى الله عليه وسلم في بيته، ما يطعمه إياه، فقال لأصحابه: من يضيف هذا الليلة رحمه الله. فأخذه رجل من الأنصار إلى بيته ليطعمه، فلم يجد سوى طعام قليل يكفي لعشاء أولاده فقط، فما كان منه إلا أن تحايل على أولاده حتى ناموا جوعا، ثم أبل بالضيف واطفأ المصباح وقدم له الطعام ليأكل حتى شبع. وبات الرجل وزوجته وأولاده طاويين^(٥).

(١) لطائف المنن والأخلاق: ج ١، ص ٥٤.

(٢) عوارف المعارف: السرودي، ص ١٧٠.

(٣) سورة آل عمران: الآية ٣١.

(٤) عوارف المعارف: السرودي، ص ١٧٠.

(٥) انظر نص الحديث لعوارف المعارف، السهرودي، ص ١٧٧ - ١٧٨.

وهؤلاء القوم الذين يضربون المثل الأعلى في الإيثار قد قال الله تعالى فيهم: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾^(١).

والشعراني ينصح المريد أن يحسب إخوانه حبا مخلقا غير مغرض إذ يقول: (ومن آدابهم الصوفية، محبة إخوانهم المسلمين محبة إخوان وإيمان، لا محبة نصح وإحسان)^(٢).

فقد أفاض الشعراني في أغلب كتبه في شرح آداب السلوك التي يجب على السالك لطريق الصوفية أن يتخلق بها، في رياضة نفسه ومن ذلك ترك الاختيار مع الله تعالى وأن يوصي بالقليل في كل شيء تحبه نفسه من شهوات الدنيا ولمن يشكر الله إذا ضيق عليه في معيشته، وأن يزهد في الدنيا لكونها مبعوضة لله تعالى لا لعله أخرى من راحة بدن أو تخفيف حساب. وأن يفر بجميع الشدائد إلى الله تعالى دون الخلق فإن بيده تبارك تعالى ملكوت كل شيء^(٣).

ويحذر الشعراني السالك بعدم الانتصار لنفسه بقوله: (ومن أطلق عنان نفسه فيما تهواه فقد هلك)^(٤).

وقد أجمل صوفينا ما يجب أن يسلكه المريد من سلوك حميد وأخلاق حميدة تساعد على رياضة نفسه في قوله: (ومن شأنه "أي المريد" ألا يكون عنده حسد، ولا غيبة، ولابغي، ولا مخادعة، ولا مكر، ولا محاورة، ولا مخالفة، ولا مكاذبة، ولا مجادلة، ولا كبر، ولا عجب، ولا افتخار، ولا شطح، ولا حظوظ نفس، ولا تصدي في مجلس، ولا رؤية نفس على أحد من المسلمين ولا تنقيص لأحد من أهل الله)^(٥).

(١) سورة الحشر: الآية ٩.

(٢) الأنوار في صحبة الأخيار: ص ٩٣.

(٣) انظر: الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية: ص ص ٨٩: ١٣٤.

(٤) المرجع السابق: ص ٩٠.

(٥) الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية: ص ١٠٧.

والمريد الصادق في رياضة نفسه عند الشعراني هو من يجمع حواسه وقلبه على العمل دون رؤية عمل أي لا يرى أنه يعمل أعملاً حسنة يتفوق بها على غيره، بل يرى دائماً إنه أقل الناس حسناً، وأنه لا يزال دنيئاً في حاجة إلى المزيد من رياضة نفسه بإتباع سلوك أرقى وأخلاق أسمى، وعليه في ذلك أن يبتغي وجه الله فلا يطلب بعبادته وامتناله أمر الشارع مقاماً أو حالاً أو غيرها.

ثم عليه أن يفتش أعضاء الظاهرة والباطنة صباحاً ومساءً ليعرف هل حفظ حقوق الله كاملة أم أنه قصر في شيء؟ فإذا قد حفظها فعليه بالمداومة على ذلك، وإذا كان قد قصر في شيء منها، فعليه بالاستغفار والتوبة الصادقة على ألا يعود إلى ذلك^(١).

وإذا نجح الصوفي في رياضة نفسه ولازمه توفيق الله، واستطاع أن يغير من صفاتها الخبيثة بأخرى طيبة، عليه بعد ذلك العمل بتلك الصفات الطيبة والأخلاق الكريمة في حياته العملية وفي معاملاته مع الناس وعلاقاته الاجتماعية، فالمريد لا يتحقق بالكمال الخلقي في نفسه فقط، بل لا بد أن ينطبع ذلك على سلوكه وعلاقاته في المجتمع الذي يعيش فيه، فيطبق العلم بممارسة العمل ليعرب سلوكه كما في نفسه. واستمع إلى قول الشعراني في ذلك: (إن طريق القوم طريق تصديق وتحقيق، وزهد وعمل وغض بصر، وطهارة قلب ويد وفرج ولسان، ومن خالف شيئاً من أفعالها رفضه الطريق كرهاً عليه^(٢)). وفي ذلك يقول أبو نصر السراج الطوسي: (العلم مقرون بالعمل، والعمل مقرون بالإخلاص، والإخلاص أن يريد العهد بعلمه وعمله وجه الله تعالى)^(٣).

ويقسم أستاذنا الدكتور أبو الوفا الغنيمي التفتازاني رياضة النفس من الناحية السيكلوجية إلى ثلاث مراحل هي: الفكرة المجردة، ثم الشعور بمضمونها، ثم السلوك العملي لتحقيقها، ثم يوضح سيادته ذلك قائلاً:

(١) انظر: المرجع السابق: ص ص ٨٩: ١٣٤.

(٢) الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية: ص ١٠٦.

(٣) اللمع: الطوسي، ص ٢٢.

(وفي المرحلة الأولى يقتنع السالك للطريق بفكرة التخلص من صفاته النفسية الذميمة للموصول إلى الله اقتناعاً تاماً، وذلك إما بإيحاء من شيخه أو بإيحاء من ذاته. وفي المرحلة الثانية يبحث السالك في نفسه من هذه الصفات الذميمة حتى يستشعر تماماً وجودها فيه فتتحول بذلك فكرته المجردة إلى شعور حقيقي بها، وفي المرحلة الثالثة يصطنع السالك ضروباً مختلفة من السلوك يحقق بها نقائص هذه الصفات، فتتلاشى في نظره صفاته الأولى، ويكون محققاً لفكرته المجردة من ضرورة الخلاص منها)^(١).

وبعد أن يروض السالك نفسه على هذا النحو فإنه يتبعه إلى الرياضات العملية واصطناع المجاهدات البدنية الشاقة كالجوع والسهر والصمت والذكر والسماع، ويلزمه شيخه بالعزلة والخلوة حتى يتسنى له تخليص روحه من العلائق الدنيوية وتنقية قلبه فلا يبقى فيه مكان لغير الله حتى يتهيأ للفناء وتلقي المعرفة الذوقية لله وعن الله. وستناول أولاً الحديث عن العزلة والخلوة.

(١) ابن عطاء الله السكندري وتصوفه: التفتازاني، الطبعة الثانية، ص ١٨٢.

٥ - العزلة والخلوة:

تعني العزلة عند أن يكون السالك متجها بكليته إلى الله وفي مخالطته بين باطنه إلى التفكير في الله تعالى، فيكون مع الناس وجسمه وهيئته مع الله بقلبه وروحه وسريته، وقد عرف صوفينا السالك المعتزل بقوله: (إنما المؤمن يكون مع الخلق بجسده ومع الحق بباطنه)^(١).

وهذا التعريف للعزلة يتفق مع ما ذهب إليه ابن عطاء الله السكندري إذ يقول: (المراد من عزلة الناس ترك معاشهم، وليس المراد ترك صورهم، بل المراد أن يكون قلبك ولا أذنك وهذا لما يأتون به من فضول الكلام فلا يصبوا القلب في هذا العالم)^(٢).

إذا كانت العزلة تعني أن يكون السالك مع الناس بسمعه ومع الحق تعالى بقلبه، فإن الخلوة تعني أن يكون السالك منقطعاً عما سوى الله في خلوته بعيداً عن حياتهم ومعاشرتهم، فالمختلي يبعد عن الناس بقلبه وبدنه، وقد عرف الشعراني الخلوة بأنها: (العزلة عن الناس بقلبه، أي السالك وبدنه)^(٣).

والعزلة والخلوة من أركان التصوف العملي عند الشعراني وعند الصوفية عموماً، ولهم في رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة، وقول الشعراني في ذلك:

من الاحتجاج على مشروعية الخلوة باختلائه صلى الله عليه وسلم بغار حراء فإنه أدب، لأن تلك الأمور لا يذوقها غير كمل الورثة الخارجين عن الهوى^(٤). حيث أمر الله عباده المؤمنين بالفرار إليه في قوله تعالى: ﴿فَفَرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكَرُمَةٌ نَذِيرٌ مِّنْهُ﴾^(٥).

(١) الأنوار القدسية في معرفة آداب العبودية: على هامش الطبقات الكبرى: الشعراني، ج ١، ص

(٢) ابن عطاء الله السكندري وتصوفه: التفتازاني، الطبعة الثانية، ص ١٨٧.

(٣) الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية: بهامش الطبقات الكبرى، للشعراني، ج ١، ص ٩٨.

(٤) عوارف المعارف: السرودي، ٦٩.

(٥) سورة الذاريات: الآية ٥٠.

وقد استحب رسول الله صلى الله عليه وسلم العزلة للمؤمنين فقد روى أبو سعيد الخدري: (قال رجل أي الناس أفضل يا رسول الله؟ قال: مؤمن مجاهد بنفسه في سبيل الله، قال ثم من؟ قال: ثم رجل معتزل في شعب من الشعاب)^(١). واصطناع العزلة للسالك في بداية سيره في طريق التصوف أمر ضروري، وقد اعتبرها الشعراني من أعظم أركان الطريق إذ يقول: (إن من أعظم أركان الطريق العزلة الصادقة)^(٢).

وترجع أهمية العزلة للمريد في بداية الطريق إلى أن السالك في أول دخوله على القوم تعوقه الحجب، من المشكلات والأحداث التي حوله وعلاقاته الاجتماعية، فلا يكون قد تخلص منها بعد، فيشهد الحق والخلق معا، ولا مخلص من تلك الحجب إلا العزلة عما سوى الله، فيقطع تفكيره في الأقوام ويقصره الحق تعالى وحده، فلا يفكر إلا فيه سبحانه ولا يشهد وجودا لأحد معه، بقطع كل العلائق الدنيوية، ويخلص وجهه لله.

والعزلة - كما يقول الشعراني - (أقرب إلى السلامة من الآفات وأبعد إلى تحمل العقوق في المخالطات وإجراء الاشتغال بالطاعات، فإن ذلك في حق المريد ما دام قاصرا)^(٣). فقد اعتبر الشعراني أن في العزلة علاجا لآفات النفس وسلامة لها من تلك الآفات، فإن السالك في عزلته لا يشغل نفسه بأخبار الناس وأحوالهم ومن ثم فلن يحسد أحداً أو يحقد عليه أو يغير منه أو يكرهه، أو يتعالى عليه، أو غير ذلك من الأمور التي قد تقع للإنسان في مخالطته للآخرين.

كما أن المعتزل - كما يرى الشعراني قد فضّ نفسه من تحمل حقوق الصحبة والخلطة فكفى نفسه مؤنة تحمل تلك الأعباء باعتزاله الناس، ففرغ بذلك من مجارة الإخوان والعشيرة فلا مطلب له عند أحد منه، ولا حق لغير الله عليه. فقد اعتزل الخلق وما يستتبع ذلك من تبعات والتزامات وما بقى عليه في عزلته سوى الاشتغال بالطاعات

(١) انظر: رياض الصالحين في كلام سيد المرسلين، محيي الدين زكريا، شرف النووي المتوفى سنة ٦٨٦ هـ، ص ٢٣٩.

(٢) الجوهر المصون والسر المرقوم فيما تنتجه الخلوة من الأسرار والعلوم، نسخة خطية.

(٣) المرجع السابق: ل ٣ ظ.

والقيام بالعبادات، فخلص وجهه لله ويصبح سبحانه وتعالى كل مقصده ومطلبه، فلا يفكر إلا فيه، ولا يعمل إلا له.

وهذا يتفق مع ما ذهب إليه الإمام الغزالي من قبل حينما قال: (تنقسم فوائد العزلة إلى فوائد دينية ودينية، والدينية تنقسم إلى ما يمكن من تحصيل الطاعات في الخلوة والمواظبة على العبادات وتربية العلم، وإلى التخلص من ارتكاب المناهي التي يتعرض لها الإنسان بالمخالطة، كالرياء والغيبة، والسكوت عن النهي عن المنكر والأمر بالمعروف، ومسارقة الطبع من الأخلاق الرديئة والأعمال الخبيثة ومن جلساء السوء. أما الدنيوية لتمكن المحترف في خلوته إلى ما يخلص من محذورات يتعرض لها بالمخالطة كالنظر إلى زهرة الدنيا وإقبال الخلق عليها وطمعه في الناس... الخ)^(١).

ومن خصائص الخلوة عند الشعراني وغيره من الصوفية إنها تجعل المريد مستغرق كل الاستغراق في حب الله فيكون مع الله بقلبه وروحه ووجدانه وتذكره فلا يشعر بما حوله من المخلوقات، وإن خالطها. وفي ذلك يقول الإمام الجندي: (أنا أكلم الله منذ ثلاثين سنة يظنون إني اكلمهم)^(٢). فكان يكلم الناس بلسانه ولكن قلبه وعقله مع محبوبه. إذا وصل المريد إلى تلك العزلة المعنوية ولم يبق في خاطره سوى الله تعالى، ما عداه لا بعد بحكم الوجود ولكنه يصير بالنسبة للسالك وكأنه غير موجود، في هذه الحالة لا يبقى أمام المريد إلا أن يدخل الخلوة ولا يطلب من الله بخلوته كشف أو كرامة بل يطلب بها صفاء المعاملة مع الله^(٣).

والمقصود بالخلوة عند الشعراني أن ينقطع المريد عن الناس والعالم بقلبه وقلبه فلا يشغل نفسه إلا بفكرة واحدة هي الله، وليس المقصود بالخلوة عدم معاملة الناس والأشياء مع شغل الفكر بهم، وإلا فليخرج المريد من الخلوة إلى العزلة حتى تخلص نفسه تماما من جميع الأكوان والأغيار، ويبقى في الله وبالله والله.

(١) إحياء علوم الدين، للغزالي، ج ٢، طبعة سنة ٣٥٨ هـ، ١٩٣٩ م، ص ٢٢٦.

(٢) المرجع السابق: ص ٢٢٧.

(٣) لطائف المنن والأخلاق: ج ٢، ص ٦٤.

ويقول في ذلك: (واعلم أن كان قصده بالخلوة "أي السالك" ألا يرى الأغيار فالأغيار مع من لازم الخلوة لأنه يرى نفسه والحيطان والسقف والفرش والإبريق وما يأكل وما يشرب)^(١).

والغرض الأول والأخير من الخلوة هو البقاء مع الله بالكلية ونفي ما سواه من الخاطر والقلب.

وتتم الخلوة - كما يقول الشعراني - في مكان ملائم هادئ مظلم ويحسن أن يكون تجاه باب الشيخ المربي حتى يستمد منه المريد العزم بارتفاع الهمة^(٢).

وهو في اشتراطه أن تكون الخلوة مظلمة يتفق مع الغزالي في قوله: (وأما الخلوة ففائدتها دفع الشواغل وضبط السمع والبصر، فإنها دهليز القلب، وليس يتم ذلك إلا بالخلوة في بيت مظلم أو يتدثر بكساء أو إزار، ففي مثل هذه الخلوة يسمع نداء الحق ويشهد جلال حضرة الربوبية، أما ترى نداء رسول الله صلى الله عليه وسلم بلغة وهو على مثل هذه الصفة، فقل له: (يَأْتِيهَا الْمُرْمَلُ ، يَأْتِيهَا الْمُدَّيْرُ)^(٣).

ولا يصح للمريد أن يدخل الخلوة إلا بطهارة ظاهرة وباطنة، والطهارة الظاهرة عند الشعراني: (هي تنظيف الأعضاء المخصوصة واللباس والمكان من الأحداث والأخباث)^(٤).

أما الطهارة الباطنة فهي أن يكون المريد نقي السريرة، زكي النفس، عن الأخلاق السيئة، وصافي القلب عن كدر الصفات الذميمة، وخالص السر بالله تعالى، ويقول الشعراني عن الطهارة الباطنة: (منها تطهير الطبيعة عن لوث الأوزار، ومنها تزكية النفس عن خبث الأخلاق الرديئة، ومنها تصفية القلب من كدر الخصم الدنيئة، ومنها تخليص

(١) الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية: ص ٣٤.

(٢) المرجع السابق: ص ٣٤.

(٣) إحياء علوم الدين، للغزالي، ج ٣، ص ٦٦.

(٤) جامع الفضائل وقامع الرذائل: ل ١٨٤ ظ.

الروح عن وصمة الجهالة، ومنها تخلص السر عن جميع ما سوى الله^(١).

فإذا تطهر المريد ظاهراً وباطناً، وتهياً نفسياً لدخول الخلوة ووجد المكان المناسب الذي يصطنع فيه الخلوة، فعليه بعد ذلك أن يدخلها وقلبه خالي الوفاض عما سوى الله. وإذا دخل المريد الخلوة، عليه أن يجلس على مكان طاهر، ويستحسن أن يستقبل القبلة ويقل من الحركة ولا يلتفت إلى شيء ويركز كل تفكيره في الله متجهاً بكليته إليه، ويبدأ في ذكر الله بصوت جهور، فلا يلبث أن يقول الله. الله، حتى تحدث له غيبة عن الأكوان ويفنى عن نفسه ثم يفنى عن الذكر ويبقى مع ربه.

ولفظ الجلالة (الله) هو الذكر الخاص بالخلوة عند الشعراني.

والمريد في خلوته يقلل من الطعام، ويكثر من السهر فلا يجوز له النوم في الخلوة، ومن تضعف بشريته وتصفو نفسه وتقوى روحانيته وهو في كل ذلك يقيد ذهنه بفكرة واحدة وهي فكرة الفناء في الله.

وقد حلل أستاذنا الدكتور أبو الوفا الغنيمي التفتازاني هذا الموقف الذي ينفذه الصوفي خلوته فقال: (إن خضوع السالف للطريق الصوفي لفكرة واحدة بعينها تسيطر على شعوره تماماً. يشبه الحالة التي يسميها بعض علماء النفس المحدثين بوحدة الفكر، Monoideisme وهي حالة يضيق فيها مجال الحضور جداً بحيث لا يبقى فيه إلا فكرة واحدة ذات مضمون بسيط وتشغل النفس بحيث تحول دون ظهور غيرها فيها بشكل مستمر)^(٢).

وللخلوة الصادقة عند الشعراني نتائج نذكر منها:

- ١- أن تنزل عليه المعاني العقلية في الصور الحسية فيصير عنده المعقول محسوساً.
- ٢- ومنها أن يتجلى له المذكور ويفنى الذكر في حضرة ذلك الشهود.

(١) المرجع السابق: ل ١٨٤ ظ.

(٢) ابن عطاء الله السكندري وتصفوه: التفتازاني، الطبعة الثانية، ص ١٨٧ - ١٩٠.

٣- ومنها أن يكشف له عن سر سريان الحياة التي هي سبب الإحياء وكيف تندرج العبادات في هذا السريان.

٤- ومنها أن يكشف له عن نظائر سر النار حتى يطلب التستر منها.

وهذه بعض نتائج الخلوة الصادقة كما ذكرها الشعراني^(١) وليست جميعها، فإن السالك في خلوته عندما يتهيأ لحالات الوجد ويصل إلى الفناء والشهود يفيض الحق عن العلوم الوهية والمعارف الدنية والأسرار الكونية فيرى ما لا عين رأت، ويسمع ما لا إذن سمعت، ويخطر على قلبه من المعارف الذوقية ما لا يخطر على قلب بشر.

والصوفي في حالة الإشراق Mortification يكون في شبه غيبوبة فيغيب عن الأكوان ويستغرق في الله، فتتأبه حالة خاصة من الشعور ويحس لذة من نوع خاص، وهي لذة روحية صرفة لا يتيسر لأحد وصفها ولا يتأتى لإنسان معرفتها إلا من عاش التجربة وخاضها.

واصطناع العزلة والخلوة لا يقتصر على صوفية المسلمين فحسب، بل أن الحكماء والمفكرين يصطنعون العزلة عن الناس ويفضلونها في كثير من الأحيان في الخلوة، ويقول الإمام الغزالي: (قيل لبعض الحكماء: ما الذي أرادوا بالخلوة واختيار العزلة؟ فقال: يستدعون بذلك دوام الفكرة وتثبيت العلوم في قلوبهم ليحيوا حياة طيبة، ويدوقوا حلاوة المعرفة)^(٢).

والعزلة أيضاً من سمات التصوف المسيحي وإن كان الفرق بين خلوة الصوفية في الإسلام وحياة الرهبان في الأديرة كبير، فالخلوة عند صوفية المسلمين مؤقتة يصطنعها السالك في بداية الطريق لتعينه على مجاهدة نفسه، ثم ما يلبث بعد مدة معينة أن يعود إلى مخالطة الناس ومجالستهم في الحياة الاجتماعية العادية، أما الرهبان في الأديرة فهي عزلة دائمة وليس مؤقتة، وتعرف العزلة في التصوف المسيحي بأنها (الانسلاخ من

(١) انظر: الجوهر المصون والسر المرقوم فيما تنتجه الخلوة من الأسرار والعلوم، ل ٣ ظ وما بعدها.

(٢) إحياء علوم الدين، للغزالي، ج ٢، ص ٢٧٧.

الانعطاف الروحي والفكري والجسدي نحو الجماعة إلى الالتصاق بالله وحده كمعين ومدبر ومغذي للروح والفكر والجسد^(١).

ويقول الغزالي: (قيل لبعض الرهبان، ما أصبرك على الوحدة فقال: أنا وحدي، أنا جليس الله تعالى، إذا شئت أن يناجيني قرأت كتابه وإذا شئت أن أناجيه صليت)^(٢). واصطناع العزلة والخلوة رياضة عملية روحية موجودة في التصوف المسيحي وفي التصوف الإسلامي لمجاهدة النفس والتغلب على صفاتها الذميمة.

(١) الرهينة القباية في عصر القديس أنبا مقار: الأب متى المسكين، الطبعة الأولى، سنة ١٩٧٢م، ص ٣١٣.

(٢) إحياء علوم الدين، للغزالي، ج ٢، ص ٢٧٧.

٦ - الصوم:

يعتبر الصوم الركن الأول من أركان الطريق في رياضة النفس ومجاهداتها وهو وسيلة فعالة اتبعها الصوفية منذ القدم في التغلب على شهوات النفس ولذاتها. وإشعارها بالحرمان حتى تخمد حدة أهوائها، ويتغلب الجانب الروحي في الإنسان على الجانب المادي، فالجوع رياضة ضرورية يروض بها السالك طريق الحق للنفس فتبيل صفاتها الخبيثة بصفات طيبة، وتصبح مطية مطيعة يمتطيها السالك في الطريق إلى الله. ويذهب الشعراني إلى أن كل فقير يعان الجوع والمجاهدة لازمه الجمود وكثافة الحجاب^(١).

وترجع أهمية الصوم عند الشعراني إلى أن الإنسان الذي يعاني الجوع لا بد وأن يقل كلامه ويكثر سهره وبحسب العزلة إذ يقول الشعراني: (أركان الطريق أربعة: الجوع، والعزلة، والسهر، وقلة الكلام وإذا جاع المريد ثبته الأركان الثلاثة بالخاصية، إذ الجوعان من شأنه أن يقل كلامه ويكثر، وبحسب العزلة عن الناس)^(٢).

والصوم لازم للمريد في بداية الطريق حتى تصير نفسه طائعة عائدة فالإنسان في نظر الشعراني يكمن الشره في طبيعته ومهمة السالك وهو أن يقاوم تلك الطبيعة الشرهة، فإذا ما اشتتهت النفس لونا معينا من الطعام حرمها منه وعليه أن يكتفي بالقليل من المأكول والمشرب، وبذلك تسمو نفسه وتقوى روحانيته ويخرج الشره من طبيعته، وبعد أن يصل إلى هذه الحالة يمكنه أن يأكل ما أحل الله له من الرزق، قال تعالى:

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ﴾^(٣).

والشعراني في حديثه عن رياضة الجوع أو الصوم، يقول: (وقد مدح القوم الجوع المشروع لا غير، وإنما حملهم على مدحه كونه مطلوباً لهم شرعاً عند أئمة الطريق في حق مريديهم في بداية أمرهم حتى يخرجوا من تحكم الشهوات البهيمية فيهم، فإذا

(١) إحياء علوم الدين، للغزالي، ج ٢، ص ٢٢٦.

(٢) المرجع السابق: ص ٢٢٧.

(٣) سورة البقرة: الآية ٦٠.

خرجوا من تلك الشهوات البهيمية، نارت هياكلهم وأدركوا بالنور الحق والباطل وكانوا أئمة عدل بعد أن كانوا أئمة جور وحينئذ يكون الجوع مطاياهم التي تحملهم إلى حضرة مولاهم الخاصة ظلما منهم لها^(١).

وإذا كان الشعراني يدعو إلى مجاهدة النفس وحرمانها في بداية سير المريد في طريقه إلى الله، والعمل على قمع الشهوات وترك اللذات حتى أن يصل المريد إلى المراد، ويعد عن كمل القوم، وفي هذه الحالة يمكنه أن يأكل ويشرب من رزق الله وما حلل له، ولكن عليه ألا يغفل عن أن النفس أمارة بالسوء، وعليه ألا يطمئن إلى أن نفسه قد تطهرت وسمت وترفعت عن الصفات الذميمة، بل عليه أن يدرك أن ما كان من طبيعة النشأة فمحال أن يزول تماما، ولكن يظل كامنا في النفس فإذا ما ضعفت مقاومة السالك لأهواء نفسه فيمكنها أن تتغلب عليه ويظهر ما هو كامل بها من شر وشره وشهوة وهوى، فمن طبيعة الصوفي أن يكون متقشفا دائما في المأكل والملبس والمسكن حتى أن يقيم في مقام الزهد ويجعله الله من الزاهدين.

ويقول الشعراني محذرا السالك من ألا يطمئن إلى نفسه مهما ترقى في المقامات: (إنه لا يحصل لأحد في هذه الدنيا طمأنينة إلا أن كان نبيا فهناك يطمئن بالنسبة وما عدا الأنبياء فالخوف ملازمهم في سائر المراتب، إلى أن يضعوا أقدامهم في الجنة)^(٢).

(١) كشف الحجاب: ص ١١٤.

(٢) المرجع السابق: ص ٧٢.

٧ - السهر:

يعتبر السهر وعدم الغفلة عن الله بالنوم من الرياضات الهامة التي يروض بها المريد نفسه، في سلوكه إلى الله، فمن يريد الوصول إلى حضرة الحق لا يكثر من النوم، بل لا ينام إلا إذا غلبه النوم، ولا يستسلم لما يستشعره من لذة النعاس، فإن رأس مال المريد مخالفة نفسه وعدم إتباع الهوى فيظل طوال ليله يذكر الله ويناجيه في خلوته ولا يغفل عنه، قال تعالى: ﴿قُلْ أَلَيْلًا فَلِئَلَّا يَصْغَوْا أَوْ نَقُصَّ مِنْهُ قَلِيلًا﴾ (٢) (١).

والمريد الصادق هو الذي يخالف نفسه فلا يتلذذ بالنوم والراحة ويظل ليله ساهرا مع ربه غير غافل عنه، ويقول الشعراني: (إن رأس مال المريد مخالفة نفسه ومن أطلق عنان نفسه فيما تهواه فقد أهلكها ومن اتبع الهوى وإيثار النوم على قيام الليل فذلك دليل على عدم محبة الله ومن لا يحب الله فهو عدو الله، لأن الله تعالى قد أوصى إلى داود عليه السلام: (يا داود كذب من ادعى محبتي فإذا جنبه الليل نام عني) فشهد الحق على أن من ينام من غير غلبة لأنه كاذب في محبته (٢).

ويذهب صوفينا إلى أن المحبين السهارى يأنسون بملاطفة الحق تعالى في حال طاعتهم له من وجود صفة التقرب، ولكن لا يصح أن يقال أنهم يأنسون لله تعالى، ويقول في ذلك: (فلا يصح الأنس بالله تعالى لأحد من الخلق، فالأنس لا يكون إلا بالمناسبة، ولا مناسبة بين الحق عز وجل وبين خلقه) (٣). بل أن السالك يأنس لما يستشعره في قلبه عن قرب إلى الله تعالى.

(١) سورة المزمل: الآيتان ٢ - ٣.

(٢) الأنوار القدسية في معرفة آداب العبودية: ص ٦٠.

(٣) كشف الحجاب والران: ص ٧٢.

٨ - الصمت:

يعد الصمت من الرياضات العملية عند الصوفية وقد اعتبره الشعراني دليلاً على كمال الإيمان، إذ يقول: (كل من رأيتموه أيها الإخوان كثير الصمت والفكر والطمأنينة والحركة وحفظ العين من فضول النظر فهو دليل على كمال إيمانه)^(١). وترجع أهمية رياضة الصمت عند الشعراني إلى أن الإنسان إذا قل كلامه كثر تفكيره وتعمق تأمله في قدرة الله وعظمته.

فالصمت عن اللغو والجدل يعطي لصاحبه فرصة تدبير صنع الله ويسد على نفسه باب القال والقليل وما قد ينزلق إليه من التدخل في شئون الغير أو الغيبة والنميمة مما يشغله من الله سبحانه وتعالى. ومن ثم لقد اعتبر الشعراني الصمت والسكون علامة من علامات حب الله إذ يقول: (إن لمن ادعى حب الله علامات إن وجدت فيه صدقناه، وذلك أن نراه على الشريعة البيضاء النقية، لا تلبس عنده ولا تخليط، ولا شك فيما وعد الله أو أوعده به في الدار الآخرة، بل هو صابر على البلاء الإقراض بالقضاء حافظ للحال، عامل للذكر، ساكن، ساكت، صامت ومطرق رأسه)^(٢).

(١) لطائف المنن والأخلاق: ج ١، ص ٥٢.

(٢) لطائف المنن والأخلاق: ج ١، ص ٧٨.

٩ - الذكر:

الذكر هو التردد المستمر للفظ الجلالة وهو يعتبر من أهم الرياضات العملية في الصوفية، وقد عوّل الشعرا على الذكر كثيرا في كتبه كأساس في الرياضات العملية التي يتعين على السالك اتباعها بعد مجاهدة نفسه بالرياضات الأخلاقية واصطناع العزلة والخلوة.

ورياضة الذكر قائمة على مصدر إسلامي فهي تستند على كتاب الله وسنة رسوله
فقد أمر الله تعالى الذين آمنوا بالذكر في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا
كَثِيرًا﴾ (٤١) .^(١)

ويعرف الشعراني الذكر بقوله: (الذكر هو التخلص عن الغفلة والنسيان)^(٢). وينقسم الذكر عند صوفينا إلى ذكر ظاهر وذكر خفي. والذكر الظاهر عنده هو الثناء أو الدعاء مع حضور القلب مثل قوله: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ولا يفضل الشعراني كون الذكر الأثنية المتعددة الطويلة، فكلما كان الذكر بعبارة بسيطة وقصيرة كان أقرب إلى بلوغ المراد إذ يقول: (ولا يلزم كون الأذكار بالإثنية المختلفة، بل ما كان أكثر وعن الأذكار الأسمائية أنزه كان أفضل وإلى تأدية المقصود أقرب)^(٣).

أما الذكر الخفي فهو في درجة أعلى من الذكر الظاهر، وفيه يتخلص الذكور من الغفلة عن الله وقصور همته، ومن الاحتجاب عن الله بالرسوم والكلمات، ويبقى مع الله في حالة شهود، لا يذكر بكلمات ولا ينطق بعبارات ولكنه يتخلص من كل ذلك ويبقى بروحه وقلبه وعقله مع الله في حضرة الشهود.

(١) سورة الأحزاب: الآية ٤١.

(٢) حياة الأرواح ونجاة الأشباح: ل ٣٣ و.

(٣) نفس المرجع السابق.

ويعرف الشعراني الذكر الخفي بقوله: (الدِّكْرُ الْخَفِيُّ هُوَ الْخَلَّاصُ مِنَ الْفُتُورِ وَالْبَقَاءِ مَعَ الشُّهُودِ وَلُزُومِ الْمُسَامَرَةِ، فَالْخَلَّاصُ مِنَ الْفُتُورِ بِدَوَامِ الشُّهُودِ. والذهول عن التفرقة الموجبة للغفلة والاحتجاب بالرسوم والإنابة والصفات والطاعات)^(١).

وللذكر كيفية خاصة من حيث رسومه العلمية، فأما أن يذكر المريد في خلوته ذكرًا انفراديًا وأما أن يكون الذكر جماعيًا، فيلتف الجماعة في حلقة الذكر.

ويفضل الشعراني الذكر جهراً على الذكر سراً سواء كان الذكر جماعياً أو انفرادياً إذ يقول: (وأجمعوا - أي الصوفية - على أنه على المريد الجهر بالذكر بقوة تامة وأن ذكر السر لا يفيد رقياً)^(٢).

وصوفينا بذلك يختلف عن ابن عطاء الله السكندري الذي يفضل أن يكون الذكر الانفرادي خفياً، والذكر الجماعي جهراً^(٣).

ويعد الشعراني بالذكر بالليل أنفع بالذكر أثناء النهار، فالفتح في أثناء الليل أقرب منه في النهار عند العارفين، وعلى ذلك فواجب المريد أن يقضي الليل في ذكر الله فالذكر منشور الولاية كما يقول الشعراني^(٤).

وللذكر آداب خاصة اتفق عليها رجال الطريق يجمعها كلها عشرون آدبا كما يقول الشعراني - من لم يتحقق بها فيبعد عليه الفتح خمسة منها سابقة على الذكر واثنى عشر حال الذكر، وثلاثة بعد الفراغ من الذكر. أما الخمسة السابقة على الذكر فهي:

- ١ - التوبة والنصح، وهي أن يتوب الذاكرون كل ما يعنيه من قول أو فعل أو إرادة.
- ٢ - الغسل أو الوضوء وتعطير الثياب والضم بالبخور والماورد.

(١) المرجع السابق: ل ٣٣ و.

(٢) النفحات القدسية في قواعد الصوفية: ل ٣٠ و.

(٣) انظر: مفتاح الفلاح: ابن عطاء الله السكندري، ص ١٧.

(٤) الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية: ل ٣٠ و.

٣- السكون والسكوت ليحصل له الصدق في الذكر وذلك أن يشغل قلبه بالله...
الله... الله: بالفكر دون اللفظ حتى لا يبقى خاطر مع الله، ثم يوافق اللسان القلب بقول لا
إله إلا الله.

٤- أن يستمد عنه شروعه في الذكر من همة شيخه بأن يشخصه أمام عينيه وأن
يستمد من همته ليكون رفيقا في السير.

٥- أن يكون استمداده من شيخه استمدادا حقيقة من رسول الله صلى الله عليه
وسلم.

أما الاثنى عشر أدبًا التي تكون في حال الذكر فهي:

١- الجلوس على مكان طاهر، كالجلوس في الصلاة في التشهد.
٢- أن يضع راحتيه على فخذه ويستحب جلوسه للقبلة إذا كان يذكر وحده وإذا
كان جماعة تحلقوا.

٣- تطيب مجلس الذكر بالرائحة الطيبة.

٤- أن يكون ملبسه حلالاً.

٥- أن يكون المكان مظلمًا وداخل الخلوة.

٦- تغميض العينين وذلك أن الذاكر إذا أغمض عينيه تسد عليه طرق الحواس
الظاهرة شيئًا فشيئًا، وسدها يكون سببًا لفتح حواس القلب.

٧- أن يخيل شخص شيخه أمام عينه ما دام ذاكرًا.

٨- الصدق في الذكر بأن يستوي عنده السر والعلانية فيه.

٩- الإخلاص وتصفية العمل من كل شوب، والصدق والإخلاص يصل العبد إلى
مقام الصديقية.

١٠- أن يختار من صيغ الذكر لفظة (لا إله إلا الله)، فإن لها أثر عظيم عند القوم لا
يوجد في غيرها من سائر الأذكار.

١١- فإذا تخلص من كل ما يشغله عن الله ففي هذه الحالة يصح أن يذكر الله تعالى
بلفظ الجلالة بلفظ الجلالة فقط من غير نفي بأن يقول: الله.. الله.

١٢- تفرغ القلب من كل موجود حال الذكر سوى الله بقوله: (لا إله)، ويقول الشعراني: (فإن الله تعالى غيور لا يحب أن يرى في قلب الذاكر شيئاً إلا بإذنه ولولا أن للشيخ مدخلا عظيما في تأديب المريد ما ساغ للمريد أن يخيل شخصه بين عينيه لا في قلبه، فإنما شرطوا نفي كل موجود في الكون من القلب ليتمكن له تأثير قول: لا إله إلا الله بالقلب ثم يسري ذاك المعنى في سائر الجسد)^(١).

أما الثلاثة التي بعد الذكر فهي:

١- أن يسكن إذا سكت، ويخشع ويحضر مع الله بقلبه متربا لوارد الذكر فلعله يرد عليه وارد فيقصر وجوده في لمحة أكثر مما تعمره المجاهدة والرياضة في أكثر من ثلاثين سنة كما يقول الشعراني^(٢).

٢- أن يزعم الذاكر نفسه مرارا من ثلاثة أنفاس إلى سبعة إلى أكثر من ذلك بحسب قوة عزمه، وذلك معروف عند الصوفية بأنه أسرع في تنوير البصيرة وكشف الحجب وقطع خواطر النفس.

٣- منع شرب الماء عقب الذكر، ويقول الشعراني: (فإن الذكر يورث حرقة وهيجانا وشوقا إلى المذكور الذي هو المطلوب الأعظم من الذكر وشرب الماء يطفئ تلك الحرارة)^(٣).

والذكر الصادق عند صوفينا لا بد أن تكون له ثمرة فإن لم يفيض الله عليه من فيضه بعد الانتهاء من الذكر فإن ذلك كما يقول الشعراني يرجع إلى عدم صدق حال الذكر، ويقول في ذلك: (يقال لمن ادعى أنه حضر بقلبه في ذكره مع الله، ما أعطاك ربك؟. فإن قال ما أعطاني شيئاً قلنا له: وأنت له لم تحضر معه شيئاً)^(٤).

(١) الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية: ص ٤٠.

(٢) نفس المرجع السابق.

(٣) الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية: ص ٦٠.

(٤) نفس المرجع السابق.

وعلى المرید أن يخبره شيخه بعد الذكر بكل ما يرد له من خواطر وبجميع ما شعره به من مشاعر وأن يكون صادقاً في وصفه وقوله ليتمكن الشيخ من إرشاده وتعليمه حتى يقرب له طريق الوصول إذ يقول الشعراني: (بشرط أن يعرض - أي الذاكر - على شيخه كل شيء يرقى إليه من الأذواق ليعلمه طريق الأدب فيه) ^(١).

ولا بد أن يترتب الذاكر بعد فراغه من الذكر وفي حال الشهود ورد الواردات عليه، فإن لم يكن متأهباً نفسياً ومنتظراً لوارد الذكر في شوق فإن الله لا يعطيه إياه، ويقول الشعراني: (فإن لم يترقب حصول شيء من ذلك (أي الواردات) فإنه لا يحصل له تحقيق لذلك المقام الذي أتى به الوارد فإن لم يكن عند الذاكر اشتياق وطلب لشيء لا يعطاه) ^(٢).

وللذكر عبارات مأثورة عند صوفينا منها:

لفظة (لا إله إلا الله محمد رسول الله)، و (لا إله إلا الله)، و (سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله). (والله).

غير أن الشعراني يفضل الذكر بعبارته: (لا إله إلا الله). فإنها كلمة التوحيد والتنزيه عن الشرك، وهو في ذلك يقتدي بالرسول عليه أفضل الصلاة والسلام حينما قال: (أفضل الذكر لا إله إلا الله) ^(٣).

والشعراني يرى أن المرید المبتدئ ينبغي أن ينوي بكلمة التوحيد (لا معبود غير الله). أما الذاكر المتوسط فيقول: (لا مطلوب ولا مقصود إلا الله)، وإذا وجد في قلبه محبة لما سوى الله ينوي، (لا محبوب إلا الله)، فإذا تنور القلب بأنوار الوجدانية المودعة في ملازمة ذكر الله يقول: (لا إله إلا الله)، ثم (الله. الله)، حتى يضمحل ظلام الكائنات في نظره ويظهر نور التوحيد.

(١) النفحات القدسية في قواعد الصوفية: ل ٣٠ ظ.

(٢) نفس المرجع السابق.

(٣) حياة الأرواح ونجاة الأشباح: ل ٣٣ و.

وترجع أهمية الذكر عند الشعراني إلى كونه وسيلة بمصطنعها السالك لتطهير نفسه وتخليصنا من آفاتنا فالإنسان الذاكر لله يأتي بالأعمال التي نهى الله عنها ويتخلق بالأخلاق الكريمة ويستبدل بصفات نفسه الخبيثة صفات طيبة ويقول الشعراني: (إن ذكر الله سيف المريد، به يقاتلون اعتدائهم، وبه يدفعون الآفات)^(١). ويعني الشعراني بآفات النفس الأهواء والشهوات.

والذكر عند صوفينا على مراتب، فلكل مقام ذكر خاص به، فالذاكر في مقام النفس باللسان والمجاهدة، والتفكير في النعم - والذاكر في مقام القلب بالحضور والمراقبة والتفكير في الملكوت، ومطالعة صفات الجمال والجلال، وفي مقام السر بالمناجاة - وفي مقام الروح بالمشاهدة - وفي مقام الخفي بالمعانة في المعاشقة والتحير في الأنوار - وفي مقامات الذات بالبناء والاستغراق^(٢).

وإذا ما فنى الذاكر في المذكور واستغرقت النفس واطمأن النفس أفاض الله عليه من العلوم والأسرار ما لا يمكن لأحد معرفة قدره، وهذا هو الذكر الخفي الذي هو الخلاص من الفتور والبقاء مع الشهود، والذاكر في هذا المشهد يكون جليس الله تعالى لا يرى بينه وبين ربه واسطة فيفيض على قلبه العلوم الوهية والأسرار والمعارف الدنية، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾^(٣).

ويصف الشعراني كيف يؤدي الذكر إلى المعرفة بقوله: (فلا يزال العبد يكثر الذكر باللفظ حتى يصير الحق تعالى مشهوده، وهناك وضح الفتح لأن الذكر لله حقيقة هو استصحاب شهود العبد أنه بين يدي ربه، والذكر باللسان إنما هو وسيلة إليه، فإذا حصل له الشهود استغنى في طلب الحضور عن ذكر اللسان، وهذا هو الفناء فإن خطر بباله في أثناء ذلك أنه فنى عن نفسه فهو شرب، والكمال أن يفنى عن نفسه، ويفنى عن الفناء، وذلك فناء الفناء، وإذا ما وصل الذاكر إلى هذه الحالة يسعد قلبه باستقبال فيوضات

(١) جامع الفضائل وقامع الرذائل: ل ١٩٥ و.

(٢) جامع الفضائل وقامع الرذائل: ل ١٩٥ ظ.

(٣) سورة الأنفال: الآية ٢.

أنوار صفات الحق^(١) وعلى ذلك فالذكر هو وسيلة المالك إلى التحقيق بمعرفة الله بمعرفة ذوقية كشفية.

ومع تكرار الذاكر لذكر النفي والإثبات، وهو (لا إله إلا الله) ثم إبطاله ذكر النفي وإبقائه لذكر الإثبات (الله.. الله)، فإن في هذه الحالة لا في الوجود إلا الله فيتحقق بسقوط الأكوام ويبقى في مقام شهود الحق، فقد قال تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ بِكَ إِذَا نَسِيتَ﴾^(٢).

ويفسر الشعراني قوله تعالى، أي إذا نسيت الأغيار لأنك إذا لم تنس الكل ما عرفته، ثم نسيت نفسك لأن أيتك توجب وجود الغير وتحقق المذكور بوجود نفي الأغيار، فإذا بلغت هذه المرتبة كان ذكرك ذكره لغيبك عن نفسك فنسيت ذكرك في ذكره، فإذا استمر ذلك واستحكم شاهدته ذاكرة لذاته، فنسيت في ذكر الحق لذاته كل ذكر وذاكر^(٣). فالذاكر لا يشهد شيئاً مما حوله ولا يبقى في إحساسه إلا الله وحده ولكن كيف يتم ذلك من الناحية السيكلوجية ؟

أن الذاكر في حالة تحريك يده للذاكر لا يقوم بهذه العملية آلياً، بل أنه يكون واقع تحت إحياء ذاتي Auto Suggestion مركزاً كل انتباهه في فكرة واحدة، هي فكرة الله فتغلب تلك الفكرة على مشاعره وحواسه وتنفرد وحدها بكل اهتمامه، فلا يدرك ما حوله من الأشياء والأشخاص. ولكن ما حوله يكون في حكم العدم بالنسبة له، وتبقى فكرة الله كما يقول: بابنسكي (مسيطرة وتبلغ من القوة ما تستطيع به كيف الأفكار المناهضة لها)^(٤). وفي هذه الحالة يفقد الصوفي شعوره بما حوله وبإنيته شيئاً فشيئاً حتى يفنى عن العالم ويفنى عن نفسه ويبقى في مقصوده وهو الله.

(١) حياة الأرواح ونجاة الأشباح: ل ٣٣ ظ.

(٢) سورة الكهف: الآية ٢٤.

(٣) حياة الأرواح ونجاة الأشباح: ل ٣٣ و.

(٤) أخذ رأي بابنسكي، وهو أحد علماء النفس المحدثين عن كتاب عام النفس الفردي أصوله وتطبيقه، د. إسحق رمزي، دار المعارف، سنة ١٩٦١م، ص ٣٠.

ويحلل " أدلر " وهو أحد علماء النفس المعاصرين هذا المشهد يقوله: (أن الحياة النفسية للإنسان تتحدد تبعا للغاية التي ينحو الفرد نحوها، فالنفس الإنسانية تتجه في نشاطها اتجاهها غايا لأن الغاية التي يسعى نحوها الشخص وينشط لتحقيقها، هي العامل الحاسم في توجيهه ويكون العقل في هذه الحالة مجموعة معقدة من القوى المحركة التي تصدر عن علة واحدة وتجاهد لتحقيق هدف واحد)^(١). هذا الهدف هو الله، وهو الموجود الحقيقي الوحيد في تلك اللحظة في شعور الصوفي اعتقاده وما عده تعالى ليس موجودا على التحقيق ويكون بذلك قد وصل إلى مقام الفناء، ويبقى بقلبه وروحه مع الله فيفيض عليه من العلوم والأسرار والمعارف ما ينطق به في شكل أشعار أو عبارات أو بدونها بعد ذلك في كتب ومصنفات.

ويصف علماء النفس حالة الصوفي عندما يشرق عليه نور المعرفة وترد عليه الواردات الإلهية في حالة فناءه في الله بأن الصوفي يشعر بشعور معقد يكون نتيجة التفاعل بين مختلف الانفعالات المتضاربة التي يزداد تضاربها عنفا في المستويات القصوى من الشعور الديني لدى الصوفية، ففي دين هؤلاء حب جارف طالما أنطقهم بأشعار الوجد والهيام مع الشعور بالأمن والرغبة والسعادة والحزن والاستسلام المريح^(٢).

وهذه المعرفة الوهية وتلك المعارف اللدنية التي يصل إليها الصوفي من طريق الكشف والشهود هي معرفة إشرافية لا يستطيع أن يصل إليها الإنسان العادي عن طريق وسائل المعرفة المختلفة وهي معرفة خاصة بمحب التعبير عنها بالكلمات.

(١) انظر: Adler: Understanding Human Nature, p. ١٩, Allen & Unwin London, ١٩٣٠.

(٢) تطور الشعور الديني: د. عبد المنعم عبد العزيز المليجي، دار المعارف، مصر، سنة ١٩٥٥، ص

١٠ - السماع:

يعتبر السماع من الرياضات العملية التي يصطنعها الصوفية لترويض نفوسهم وهو عندهم من أهم الطرق للوصول إلى حالة الوجد، والصوفي بطبيعة الحال رجل رقيق الإحساس، صافي القلب، نقي النفس، فتتأثر نفسه بالنغمات العذبة وتطربه (فالسماع عندهم رسول الإيمان إلى القلب وداعيه ومعلمه)^(١).

وحقيقة السماع هي تنبيه القلب على معاني المسموع، فإذا ما سمع المسالك صوتاً جميلة خاشعاً يقرأ القرآن أو ينشد الألحان الدينية فإنه ينجذب بروحه إليه، ويعمل في نفسه عمل السحر ويشير فيه العواطف والأحاسيس فينجذب بكلية إلى الله لأنه يود في القلب حالة من الوجد والجدب تؤدي بالسامع إلى حالة من الفناء والإشراق.

وقد ذم بعض الفقهاء السماع وتصدى لهم الإمام الغزالي وقال بإباحة السماع، وجوزه وقوله في ذلك: (اعلم أن قول القائل السماع حرام معناه أن الله تعالى يعاقب عليه، وهذا أمر لا يعرف بمجرد العقل بل بالسمع ومعرفة الشرعيات محصورة بالنص أو القياس على النصوص... ولا يدل على تحريم نص ولا قياس، ويتضح ذلك من جوابنا على أدلة المائلين إلى التحريم، ومهما ثم الجاب عن أدلتهم كان ذلك مسلكاً كافياً في إثبات هذا الغرض، لكن نستفتح ونقول (قد دل النص والقياس جميعاً على إباحته)^(٢).

وقد عرف الشعراني السماع بقوله (اعلم أن السماع سر من أسرار الله تعالى يظهر في الصادقين من العشاق، ولا يعرفه حق المعرفة إلا من ذاق)^(٣).

وقد قسم الشعراني السماع إلى قسمين:

(١) سماع تقليدي.

(١) معارج السالكين: ابن القيم الجوزي، ج ١، ص ٢٧٢.

(٢) انظر كتاب عوارف المعارف: السهرودي، ص ١٢٤، إحياء علوم الدين، للغزالي، ج ٢، ص ٢٦٦.

(٣) كشف القناع عن وجه السماع: ل ٢١٠ و.

(٢) سماع حقيقي.

والسماع التقليدي هو ما يفعله المتشبهة ليلتحق بأرباب الأحوال والمواجيد، ويقول فيهم الشعراني: (إن من تشبه بقوم فهو منهم)^(١).

أما السماع الحقيقي فهو ما قاله في الله عز وجل: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادَ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ (١٨)﴾^(٢).

وقال تعالى أيضاً: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنْ الْحَقِّ أُعْيِنُهُمْ (٣)﴾.

وهذا السماع محكوم لأصحابه بالهداية ويقول فيه الشهرزدي: (هذا سماع ترد حرارته على برد اليقين، فتفيض العين بالدمع، لأنه تارة يشير حزنا، والحزن حار، وتارة يثير شوقا، والشوق حار، وتارة ينير نما، والندم حار، فإذا أثار السماع هذه الصفات من صاحب قلب مملوء ببرد اليقين، أبكى وأدمع لأن الحرارة والبرد إذا اصطدما عصرا ماء)^(٤). وقد قال تعالى في ذلك: ﴿نَقْشَعُرُهُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ (٥)﴾.

وهذا السماع عند صوفينا ينقسم بدوره إلى قسمين:

(١) سماع طبعي. (٢) وسماع روحاني إلهي.

ونفصل القول في كل منهما:

١- السماع الطبعي: وهو ما يحدث بالأصوات الحسنة والنعمة الطيبة، كما يقول الشعراني، وصاحبه يسمع بطبعه ونفسه وهواه، فيكون حظه من مسموعه، ما وافق طبعه، فإذا ما انشد المنشد ألحانه الدينية، بصوت يجمع بين الحسن والخشوع. وكان لصوته

(١) المرجع السابق: ل ٢١٠ ظ.

(٢) سورة الزمر: الآيتان ١٧ - ١٨.

(٣) سورة المائدة: الآية ٨٣.

(٤) عوارف المعارف: السرودي، ص ١٢٤.

(٥) سورة الزمر: آية ٢٣.

تأثيره عظيم في نفس السامع ووقع قوى في قلبه، فينفعل به ويعمل عمله في كل كيانه، لأنه في حال السماع يكون مهياً نفسياً لسماع المنشد، ويكون قلبه صافياً ليس فيه مكان لغير الله وذنه خالياً من جميع الأغيار، ونفسه قد تطهرت وماتت عن كل شهوة وهوى، واتجه بروحه وقلبه إلى الله فلا يشعر بمن حوله ويتجه بكليته إليه تعالى، ويقول الشعراني: (السماع لا يصلح إلا لمن كان قلبه صافياً ونفسه قد ماتت)^(١). فإذا ما سمع صوت المنشد وانفعل به انفعلاً قوياً انشرب صدره، وسمت نفسه وانطلقت روحه، فيدور في حركة دائرية من فرط تأثره حتى يقنع عن سماع صوت المنشد، ويقضي مع الله ثم يفنى عن نفسه، ويبقى بمقام الفناء، ويقول الشعراني: (أن السماع الطبيعي يكون من تأثير الألحان والنغمات، وحركة صاحبه، دورية حكم استدارة الفلك)^(٢). وهذا السماع هو سماع الإدراك بحاسة الإذن، وقد جاء ذكر هذا النوع من السماع في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۖ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ﴾^(٣).

٢- السماع الروحاني أو الإلهي: وهو سماع الخاصة لكلمات الله تعالى وإدراكها وفهمها وتدبر معناها والانفعال بها والتجاوب معها، يقول عنه الشعراني: (هو سماع الأكابر والمحققين على الرجال، وهؤلاء هم أهل السماع المطلق، وهم لا يقولون بالسماع المقيد بالنغمات، لأن النغمات لا تؤثر فيهم وذلك لعلو هممهم، وسمو مراتبهم)^(٤).

وهذا النوع من السماع لا يحتاج إلى منشد يتغنى بالألحان، ولكن إلى مقررٍ يتلو آيات القرآن، ويقول ابن القيم الجوزي عن هذا النوع من السماع: (هو سماع الآيات لا سماع الأبيات، وسماع القرآن لا سماع الشيطان، وسماع كلام رب الأرض والسماء لا

(١) كشف القناع عن وجه السماع: ل ٢١١ ظ.

(٢) كشف القناع عن وجه السماع: ل ٢١١ ظ.

(٣) سورة الجن: الآيتان ١-٢.

(٤) كشف القناع عن وجه السماع: ل ٢١٢ ظ.

سماع قصائد الشعراء، وسماع المراسد لا سماع القصائد وسماع الأنبياء والمرسلين لا سماع المغنين والمطربين^(١).

وهذا النوع من السماع الإلهي عند صوفينا لا تصدر عن صاحبه حركة أثناء سماعه، بل إنه يأخذ الحركة إلى قلبه فيسعده ويشوقه إلى ربه، ويسمو بروحه إلى حقيقة الحقائق، فيشير في سامعه مشاعر وأحاسيس ترفع همته وتقوي عزمته فيتجه بكلية إلى الله تعالى، ولا يرى مع الله شيئاً آخر، فيكون له بمثابة الدليل والداعي، فما يلبث السالك إلى ربه إلا أن يلبى الدعوة ويسترشد بالدليل، فيهديه إلى حضرة الحق وتشرق عليه أنواره تعالى، وتفيض عليه الفيوضات الإلهية فما يلبث السالك إلا أن يستلقي على ظهره ويفنى في ربه، واستمع إلى الشعراني في وصف حال صاحب السماع الإلهي: (فإذا جاء الوارد الإلهي واشتغل الروح الإنساني عن تدبيره في المدبر، بما يتلقاه من الوارد الإلهي من العلوم الإلهية، ثم يبقى الجسم لا يجد من يحفظ عليه القيام والعقود فيرجع إلى أصله وهو لصوقه بالأرض، المعبر عنه بالاضطجاع، فإذا فرغ روحه من ذلك التلقي رجع إلى جسده فأقامه من ضجعتة)^(٢).

ويقول صوفينا أن هذا السماع كان يحدث للأنبياء عليهم السلام، فعندما كان ينزل عليهم الوحي من عند الله فإنهم كانوا يضطجعون على ظهورهم، ولكن في حال السالك ترتفع الوسائط بين العبد وبين ربه فتحدث للسامع حالة وجد تعم كل كيانه إذ يقول الشعراني: (وهو سبب اضطجاع الأنبياء عليهم السلام على ظهورهم عند نزول الوحي، هذا مع وجود توسط الملك في الوحي، فما ظنك في الوارد الإلهي بدون الوسائط الروحانية يسري في كلية الإنسان، ويأخذ كل عضو بل لكل جوهر فرد منه حظ في ذلك الوارد الإلهي)^(٣).

(١) مدارج السالكين: ابن القيم الجوزي، طبعة أولى، ج ١، ص ٢٧٤.

(٢) كشف القناع عن وجه السماع: ل ٢١٢ ظ.

(٣) المرجع السابق: ل ٢١٢ ظ.

والسمع الصادق عند الشعراني هو الذي يكون من تأثير القرآن الكريم أو على أثر سماع التواشيح الدينية والأذكار، أما الأشعار التي تحمل المعاني المادية والغزل، فهي غير لائقة في هذا المقام، وقد قال الشعراني: (اللائق بأهل الديانة والتقوى ألا يسمعوا كلمات البدع والهوى وأما الآيات والأذكار والكلمات التي فيها ذكر الجنة والنار والترغيب إلى دار الحضور والفرار وتذكير ما سبق في الأفل من العهود وكشف الأستار عن وجه الغيوب والشهود، فلا سبيل للعاقل إلى إنكاره والجحود)^(١).

ولكي يكون السماع صحيحاً لا بد من توافر شرطين: أولهما يخص المسموع وهو المنشد أو المقرئ، وثانيهما يخص السامع.

أما المسموع فلا بد كما يقول الشعراني أن ينشد القصائد الدينية أو يقرأ القرآن بنشاط وخشوع، فلا يظهر ملل ولا سآمة.

أما السامع فلا بد أن يكون صادق الحال، بمعنى أن يكون متوجهاً إلى الله لا يشغل فكره وقلبه غير الحق، وإذا كان كاذباً في حاله فإنه لا يمكن أن ينفعل بالسمع أو يؤثر فيه، ويقول الشعراني: (الخلل في حال السامع لكونه كاذباً في حاله بأن يتحرك صاحب النفس بالشعور والإحساس فيكون مسخرة للشيطان وملعبة للوساوس ومردوداً عند الله وعند الناس)^(٢).

فقد قسم الشعراني السماع إلى ثلاثة أقسام:

(١) سامع بنفسه.

(٢) سامع بعقله.

(٣) سامع بربه.

(١) المرجع السابق: ل ٢١٣ و.

(٢) كشف القناع عن وجه السماع: ل ٢١٤ و.

١- السامع بنفسه: والسامع بنفسه يتأثر بالنغمات الطيبة والأصوات الحسنة فعندما يسمعها يتحرك بغلبة الحال، حتى يصل إلى الفناء، وصاحب النفس لا يأتي بعد الحركة والفناء بعلم. فالشعراني يقول (فإن سماع النفس ليس فيه علم)^(١).

٢- وسامع بعقله: لا تصدر منه حركة أسناء السماع وتكون علامته البهت وخمود البشرية.

٣- وسامع بربه في أعلى الدرجات، لا تصدر منه حركة ويستلقى على الأرض، ويفنى في الله، ويفيض عليه ربه العلم والمعرفة الوهية.

وقد سبق الشعراني إلى هذا التقسيم ابن القيم الجوزي حيث قال: (وأصحاب السماع منهم من يسمع بطبعه ونفسه وهواه، فهذا حظّه من مسموعه ما وافق طبعه، ومنهم من يسمع بحاله وإيمانه ومعرفته وعقله، فهذا يفتح له من المسموع بحسب استعداده وقوته ومادته، ومنهم من يسمع بالله لا يسمع بغيره كما في الحديث الإلهي الصحيح: (فبي يسمع وببي يبصر) وهذا أعلى سماع)^(٢).

وإذا حاولنا أن نقف على ما يحدث للسالك من الناحية السيكلولوجية فأنا أقول: إن الصوفي بطبيعة الحال إنسان رقيق العواطف طيب القلب، صافي النفس مرهف الإحساس، فقد سمت وترفعت عن كل هو دنيء، وارتقت إلى كل معنى من معاني الأخلاق الطيبة والصفات الحسنة، وعلى ذلك يمكن الوقوف على مدى ذوقه الروحي فلا عجب أن ينفعل بالصوت العذب والنغمات الجميلة لا سيما إذا كانت تلك الأصوات والنغمات تتغنّى بكلمات عن الله ورسوله، أو بكلمات عز وجل، كتلاوة القرآن الكريم. ففي حال السماع تثير في السامع الذي تأهب نفسياً لسماع، فطرده عن خاطره جميع الأفكار والخواطر ما عدى فكرة الله وغاب عنه كل وجود إلا وجود الحق، فعند السماع تغلب عليه الأحاسيس والعواطف وتتمكن من قلبه عاطفة حب الجمال والجلال ويخل من عالم الحس إلى عالم المعنى، فيطلق لنفسه ولخيال العنان،

(١) المرجع السابق: ل ٢١٤ و.

(٢) مدارج السالكين: ابن القيم الجوزي، طبعة أولى، ج ١، ص ٢٧٢ - ٢٧٣.

ويتلذذ بالمعاني الروحية التي تحطها الكلمات، فإذا ما طربت نفسه وانشرح صدره، وعمر بحسب الله قلبه، وجاشت عواطفه وانفعل بكل هذا.

ولما كانت كل عاطفة وكل انفعال نفسي لا بد أن يكون مصحوبا بسلوك معين ومقترن بحالة بدنية وحركة جسمية معينة، فإن السالك عندما ينفعل بالسماع، فإنه يأتي بحركة دورية أو يضطجع على ظهره من فرط تأثره، وتشمله حالة من الوجد فيفنى عن نفسه ثم يفنى عن السماع ويبقى بربه.

وإذا كان هو أمر السماع الصادق الذي دافع الصوفية المتحققون عنه وجوزوا رياضة النفس عن طريقه باعتباره وسيلة عملية تساعد السالك على التحقق بحال الوجد والفناء والاتصال، غير أنهم يحذرون من المدعين وأهل البدع الذين يسيئون إلى الذين بما يأتونه من حركات غير صادقة، وهؤلاء كما يسميهم الشعراني اتبعوا الباطل وتهاونوا في أمر الدين فكانوا مسخرة للشيطان وأعرضوا عن آداب الطريق إذ يقول: (ولا تسمع قول من يفرط في الإنكار من أهل البشرية الواقفين في ظاهر الظاهر، وليس لهم ذوق صحيح، وتميز بين الخبث والطاهر، ولا يضرك أيضاً سماع أهل البدن وأوضاع الملحدين الذين اتبعوا الباطل وتهاونوا في أمر الدين، واختاروا الهوى، واتبعوا ما تتلوا الشياطين، فهم لم يسلكوا الطريق بآدابهم ولم يأتوا البيوت من أبوابها)^(١). فكما دافع الشعراني عن صدق أحوال السماع الصحيح، ودعا إلى عدم إنكاره فإنه في نفس الوقت يحذر من أهل البدع والمدعين الذين يسيئون إلى الدين ويجب على الإنسان أن يميز بين الخبيث والطيب ولا يقف على ظاهر الأمور.

(١) كشف القناع عن وجه السماع: ل ٢١٦ و.

الفصل الثالث

المقامات والأحوال

١- ماهية المقامات والأحوال.

٢- المقامات:

- ١- مقام التوبة.
- ٢- مقام الورع.
- ٣- مقام الزهد.
- ٤- مقام المراقبة.
- ٥- مقام الصدق.
- ٦- مقام التوكل.
- ٧- مقام الإخلاص.
- ٨- مقام المحبة.
- ٩- مقام الإحسان.
- ١٠- مقام التجريد.
- ١١- مقام الاتصال.

٣- الأحوال:

- ١- واردات الأحوال.
- ٢- حال القرب.
- ٣- حال اليقين.
- ٤- البقاء والفناء.

١ - ماهية المقامات والأحوال:

بعد أن يتحقق السالك بالسيطرة على نفسه سيطرة كاملة فإنه في هذه الحالة يستطيع أن يصحح مقامات سلوكه وأحوال المتعددة، ويستطيع أن يحقق مشيئة الله هدفه الذي يسعى إليه، وهو الوصول إلى الله، والسالك طريق الصوفية يترقى في المقامات والأحوال المختلفة إلى أن يتحقق بمعرفة الله معرفة دونية يقينية، فالمقامات الصوفية هي مراحل الطريق إلى الله.

والمقامات الصوفية تعني ما يتسم به السالك من أنواع السلوك فيصبح راسخا لديه نتيجة المجاهدات والرياضات التي يصطنعها السالك كأن يقال له أنه تحقق بمقام الزهد إذا كف نفسه عن الشهوات والأهواء وخالفها وقهر دواعيها فاكتفى في عيشه بأقل القليل وعزف عن زخرف الدنيا ومباهج الحياة، واستطاع أن يظل ثابتا على حاله هذا، فإنه بذلك يكون جاهدا أي متحققا بمقام الزهد.

والمقامات الصوفية لا تخرج عن كونها حالات وجدانية خاصة نتيجة سلوك معين يسلكه المريد ويصبح طابعه الأخلاقي، ولا شك أنها تحدث للمسالك نوعا من التوافق النفسي والاستقرار والسعادة التي لا تدانيها سعادة.

وقد عرف القشيري المقام بقوله: (والمقام ما يتحقق به العبد بمنزلته من الآداب، مما يتوصل إليه بنوع تصرف ويتحقق به يضرب تطلب، ومقاساة تكلف)^(١).

والسالك طريق الحق لا يتحقق بمقام من المقامات إلا إذا اصطنع ضربا عن الرياضة ولا ينتقل من مقام إلى آخر إلا بعد أن يكون قد أدى أحكام المقام الذي هو متحقق به واستوفاهما كاملة، وفي تلك الحالة يمكن أن يرتقي إلى المقام الذي فوقه، ويقول الإمام القشيري: (فقام كل أحد موضع إقامته عند ذلك، وما هو مشتغل بالرياضة له وشرطه أن لا يرتقي من مقام إلى مقام آخر ما لم يستوف أحكام ذلك المقام فإن من لا قناعة له لا يصح له التوكل، ومن لا توكل له لا يصح له التسليم، وكذلك من لا توبة

له لا تصح له الإنابة، ومن لا ورع له لا يصح له الزهد^(١). أما الأحوال فهي كما عرفها الإمام القشيري هبة من الله لا يتحقق بها السالك نتيجة سلوك معين، وإنما تعرض له دون تعمد منه أو اكتساب، ويقول: والحال عند القوم معنى يرد على الخلاق من غير تعمد منهم ولا اجتلاب واكتساب لهم من طرب أو حزن أو قبض أو شوق أو انزعاج أو هيبة أو احتياج بالأحوال مواهب والمقامات مكاسب^(٢).

والمقامات والأحوال تنشأ نتيجة المجاهدة المستمرة للنفس، وقد بين أنا ابن خلدون أن تلك الأحوال التي تنتج عن مجاهدة النفس، أما أن تكون نوعاً من العبادة قد رسخت ودامت في سلوك المريد، وفي هذه الحالة تسمى مقاما وأما أن تكون انفعالا نفسيا سريعا كالحزن أو الفرح أو غيرها، وأن السالك يتدرج في المقامات والأحوال، إلى أن يصل إلى التوحيد الكامل ويتحقق بالمعرفة بالله وفي نهاية الطريق، ويقول: (إن المريد في مجاهدته وعبادته لا بد وأن ينشأ له عن كل مجاهدة حال نتيجة تلك المجاهدة، وتلك الحال أما أن تكون نوع شهادة فترسخ وتصير مقاما للمريد، وأما ألا تكون عبادة وإنما تكون صفة حاصلة للنفس من حزن أو سرور أو نشاط أو كسل أو غير ذلك من المقامات ولا يزال المريد يترقى من مقام إلى مقام إلى أن ينتهي إلى التوحيد والمعرفة التي هي الغاية المطلوبة)^(٣).

وترتيب المقامات يختلف من صوفي لآخر كل حسب تجربته الخاصة، ونستطيع أن نبين منها عند صوفينا إحدى عشر مقاما هي: التوبة - الورع - الزهد - المراقبة - الصدق - التوكل - الإخلاص - المحبة - الإحسان - التجريد والاتصال.

وقد تبينا عنده من الأحوال حال القرب، وحال اليقين والفناء والبقاء. وفي هذا الفصل سنعرض كيفية تطور عبادة السالك بين المقامات والأحوال كما يصورها الشعراني، وكيف يصل السالك إلى الكمال الأخلاقي.

(١) المرجع السابق: ص ٣٢.

(٢) الرسالة: القشيري: ص ٣٢.

(٣) مقدمة ابن خلدون: طبع مصر سنة ١٣٨٦هـ / ١٩٦٦م، ص ٣٩٩.

٢ - المقامات:

(١) مقام التوبة:

التوبة عند الشعراني - كما هو الحال عند الصوفية السابقين واللاحقين - وهي أول المقامات وبداية السير في طريق السالفين إلى الحفرة الإلهية، فقد قال الغزالي من قبل عن التوبة: (مبدأ طريق السالكين ورأس مال الفائزين، وأول أقدام المريدين، ومفتاح استقامة المائلين، ومطلع الاصطفاء والاجتباء للمربين)^(١).

وقال الشُّهْرَوَرْدِي: (من صحت توبته على الكمال تحقق بسائر المقامات)^(٢). أما ابن القيم الجوزي فاعتبر التوبة أول المنازل وأوسطها وآخرها، فالتوبة عنده هي بداية العبد ونهايته وحاجة العبد إليها في النهاية ضرورية كحاجته إليها في البداية^(٣).

ويتحقق السالك إلى الله بمقام التوبة - كما يقول الشعراني - عن طريق محاسبة النفس ومجاهدتها وتطهير ظاهره وباطنه، وأول ما يلتزم به السالك في بداية توبته أن يتوب عن المعاصي وأن يترك الأخلاق الذميمة ويقول (التوبة في قسم البدايات بالرجوع عن المعاصي بتركها)^(٤).

ثم على السالك أن يتوب عن الفضول القولية والفعلية، بمعنى ألا يكون عنده التفات إلى أمور العباد ولا يتدخل في شئون الغير قولاً أو فعلاً، فلا يشغل نفسه عن التوجه إلى الله بالكلية، ويقول: (التوبة عن الفضول القولية والفعلية وتجريد النفس عما يشغلها عن التوجه إلى الحق)^(٥).

(١) إحياء علوم الدين، للغزالي، ج ٤، ص ٢.

(٢) عوارف المعارف: السرودي، ٣٥٠.

(٣) مدارج السالكين: ج ٤، ص ٩٩.

(٤) الأنوار في محبة الأخيار: ص ٥٩.

(٥) المرجع السابق: ص ٦٠.

ويوجب التحقق بمقام التوبة عند صوفينا عن رؤية فعل الغير، أي أن يرى السالك أن الأفعال جميعها لله وأن يتوب عن أي يرى لنفسه إدارة أو قوة، فواجبه أن يسقط إرادته تماما وأن لا يرى لنفسه مشيئة مع مشيئة ويقول: (على السالك بالتوبة في الأخلاق وهي توبة السالك عن إرادته وقوله وقوته) ^(١).

وتقتضي التوبة عند الشعراني أيضًا أن يكون عزم السالك على المضي في الطريق إلى الله قويا، فلا تفتر همته ولا يلين عزمه، إلى أن يصل إلى مقصوده وهو الله، فيتوب عن الرجوع وليتوب عن الفتور في العزم، وأن يتوب في سلوى الله، ويقول: (أن يتوب السالك عن السلو من محبوه بما سواه ولو بنفسه) ^(٢).

وإذا تاب السالك عن التفكير في نفسه وانشغل بمحبوه وأعرض عن الآخرين واتجه إلى الله فإنه يفنى عن آنيته، ويفنى عن غيره، ويبقى بربه ويقول الشعراني: (التوبة عن فناء الغير وشهود الآنية) ^(٣).

والمريد عند صوفينا بعد أن يتوب إلى الله توبة صادقة يستشعر لذة التوبة في قلبه، ويبحث بسعادة غامرة لا تدانيها سعادة ويقول الشعراني: (وتلك اللذة التي يستشعرها السالك هي دليل على صدق توبته) ^(٤).

ومن شأن السالك ألا يدخل في عهد شيخ يسلك الطريق عامي يديه حتى يتوب عن سائر الذنوب الظاهرة والباطنة، فصوفينا يرى أن الشيخ يساعد المريد على أن يتحقق بالتوبة الصادقة.

وإذا ما تحقق السالك بمقام التوبة فعليه أن ينتقل إلى مقام آخر وهو مقام الورع.

(١) الأنوار في صحبة الأخيار: ص ٦٩.

(٢) المرجع السابق: ص ٦١.

(٣) المرجع السابق: ص ٦١.

(٤) المرجع السابق: ص ٦١.

٢) مقام الورع:

يعرف الشعراني الورع بقوله: (الورع هو تطهير القلب عن دنس التعلق بالحرام في الشريعة والطريقة والحقيقة)^(١)، فالورع عند صوفينا هو أن يمتنع السالك عن كل ما فيه شبهة، وعلى السالك أن يبلغ من التدقيق في ذلك المقام مبلغه.

فالتحقق بمقام الورع عند صوفينا يقتضي أن لا يخرج السالك ما فيه شبهة وألا يأكل مما فيه ريبة إذ يقول: (إذا اجتمع ما فيه ريبة مع من لا ريب فيه، وجب علينا الأكل مما لا ريبة فيه وترك ما فيه ريبة، فإن الشارع لم يأذن لنا في تناوله، وإذا وجد المريب وحده فلا نستعمله إلا لضرورة ملحة)^(٢).

ويكرر نفس المعنى فيقول: (في صورة الاجتماع يجب علينا الأخذ بالعزيمة وهو الأكل مما لا ريبة فيه، وترك ما يريب، وأما في صورة تجريد المريب وحده، فالأدب الوقوف عنه إلا في وقت الضرورة، فنأكل منه بقدر الحاجة)^(٣).

ويتمثل هذا في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَيْزِرِ وَمَا أَهْلَ بِهِ لَعْنِ اللَّهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾^(٤).

ويوجب مقام الورع للسالك في نظر الشعراني أن يكون صبوراً فيصبر على الجوع حتى يأتيه الله بالرزق الحلال الذي لا ريبة فيه ويقول: (أن كان عندك يقين وصبر فلا تأكل وقل يا ربي إني قد جعت، وقد نهيتني عن الأكل من مثل هذا فارزقني شيئاً من الحلال)^(٥).

(١) حياة الأرواح ونجاة الأشباح: ل ٢١ و.

(٢) لطائف المنن والأخلاق: ج ١، ص ٧٨.

(٣) المرجع السابق: ص ٧٨.

(٤) سورة البقرة: الآية ١٧٣.

(٥) لطائف المنن والأخلاق: ج ١، ص ٧٨.

وإذا كان من أخص معاني الورع عند الشعراني، عدم الأكل مما فيه شبهة فإن الورع ليس بهذا المعنى عند غيره من الصوفية، فقد لاحظنا أن معنى الورع يختلف من صوفي لآخر، وإن اتفق الجميع على أنه أحد المقامات الصوفية التي توصلهم إلى الحقيقة العليا التي هي هدف كل صوفي، فقال عنه الجنيد (الورع أن تتورع أن يتشت قلبك عن الله طرفة عين، وقال أبو سليمان الداراني: (الورع أول الزهد، كما أن القناعة طرفا من الرضا، وقال يحيى بن معاذ، الورع الوقوف على حد العلم من غير تأويل، وسئل إبراهيم الخواص عن الورع فقال: أن لا يتكلم العبد إلا بالحق غضب أو رضى، وأن يكون اهتمامه بما يرضى الله تعالى)^(١).

وهكذا نجد الورع يختلف في مضمونه من صوفي لآخر.

والتحقق بمقام الورع عند الشعراني يوجب أن يلتزم السالك به في جميع مراحل الطريق، فواجبه أن يكون ورعا طوال حياته وفي ترقيه في مقامات السلوك حتى أن يصل إلى المعرفة بالله، فالمعرفة كما يقول الشعراني: (لا تطفئ نور الورع)^(٢).

والشعراني في حديثه عن الورع لا يغفل إرادة الله وإسقاط التدبير لإنسان فهو يقول: (إذا تحقق المتورع أمره في نفسه وجد جميع ما تورع عنه لم يقسمه الله له، لأن الله تبارك وتعالى قسمه له، فرد نفسه عنه، لأن ذلك لا يصح، فأفهم فظنه إنه رد نفسه عنه مع القسمة وهما منه، وإن كان الحق تعالى قد أمر المكلف أن يدافع الأقدار النازلة جديدة، فذلك لبس، وتكليفه برد الأقدار إنما ذلك ليشبهه ويؤجره على تلك المدافعة)^(٣). بمعنى أن الله قدر وأراد لكل إنسان أفعاله وما يجري في حياته من أحداث، وقدر له ما سوف يأكل ويشرب، ولا دخل لإرادة العبد في رد هذه الأقدار، ولا سبيل له الامتناع عن الأكل مما أراده الله، وأن الحق سبحانه وتعالى عندما طلب من عباده أن يتورعوا عما فيه شبهة، فإن ذلك لا لشيء إلا ليشبههم على امتناعهم ويؤجرهم على ورعهم.

(١) انظر: هذه التعريفات للورع لعوارف المعارف: السهرودي، ص ٣٣٩، ط سنة ١٣٥٨ هـ.

(٢) حياة الأرواح ونجاة الأشباح: ل ٢١ و.

(٣) لطائف المنن والأخلاق: ج ١، ص ٥٠.

والشعراني في قوله بإسقاط التدبير والإرادة الإنسانية، والتسليم بإرادة الله وحده التي لا تدانيها إرادة، فإنه يتابع بذلك الصوفي المصري ابن عطاء الله السكندري خاصة والمدرسة الشاذلية عامة في القول بإسقاط التدبير حيث يقول ابن عطاء الله السكندري: (فإذا كان الإنسان غير خالق لأفعاله لقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾^(١).
الزم هذا الإنسان بترك التدبير مع الله لأن الله إذا كان يخلق ما يشاء فهو يدبر أيضًا ما يشاء^(٢)).

فصوفينا يؤمن بأن عناية الله إذا أحاطت بعبد فإنها تحميه من الوقوع في المعاصي والردائل وتستخرج له الحلال من بين برائن الحرام، كما يستخرج له الله اللبن من الضرع^(٣).

ويقتضي الورع عند الشعراني الزهد، وهو ثالث المقامات عنده.

(١) سورة القصص: الآية ٦٨.

(٢) انظر: التنوير في إسقاط التدبير، ابن عطاء الله، ص ٦ طبعة ١٣٤٥ هـ القاهرة.

(٣) لطائف المنن والأخلاق: ج ١، ص ٧٠.

٣) مقام الزهد:

يرى الشعراني أن الدنيا مليئة بالخداع والغش والمصايد فإذا ما عرف الإنسان ذلك لم يقض عمره في البحث عن ملذاتها الزائلة، ولم يضمن نفسه في العمل على تحصيلها. فمبعث الزهد عند الشعراني هو النظر في الدنيا واستكشاف حقيقتها، فإن عدم التمعن في باطنها وما يحتويه من الأباطيل والمظاهر الخادعة، جعل الناس يتهافتون على طلبها والأخذ بأسبابها، وتحاسدوا وتنازعوا، ولو أنهم تعمقوا في البحث عن حقيقتها، لوجدوا أن ليس هناك ما يدعو إلى هذا الصراع وإلى نصب الشراك والمصائد، ويقول الشعراني: (إن غالب الناس ينظرون إلى ظاهر الدنيا دون ما في باطنها من السموم القاتلة والأباطيل والخداع والمصايد، ولذلك تراحموا عليها وتكاثروا وتحاسدوا وتباغضوا)^(١).

ويرى الشعراني أن السالك إذا تحقق بمقام الزهد، واستمسك بالتقوى ساعده هذا على التخلص من أهواء النفس كالغل والحقد والبغض والحسد وغيرها عن سائر الأخلاق الذميمة. فالزاهد لا يحسد غيره على النعم، ولا يحقد عليه ولا يحمل له في نفسه بغضا ولا غلا لأنه ينظر إلى هذه النعم نظرة زهد تختلف كل الاختلاف عن نظرة الحاسد أو المتطلع إلى الدنيا، ويقول الشعراني: (اعلم أن زهد في الدنيا واستمسك بالتقوى، صارت نفسه مأمونة الغاية من الغل والحق والبغض والحسد، وسائر المذمومات، فهذا حال الصوفي)^(٢).

والزهد عند الشعراني نوعان: زهد في مناصب الدنيا ومراتبها، وزهد في المطعم والملبس وفيها أحله الله تعالى من الرزق^(٣).

(١) المرجع السابق: ص ٧٩.

(٢) الأنوار في صحبة الأخيار: ص ١٣٤.

(٣) لطائف المنن والأخلاق: ج ١، ص ٦٥ - ٧٠.

والزهد من النوع الأول هو الذي أسماه ابن عطاء الله السكندري بالزهد الخفي، والزهد من النوع الثاني هو ما أسماه بالزهد الظاهر^(١).

ويرى صوفينا أن السالك إذا عمل للآخرة وزهد في الدنيا أحبه الله، وإذا أحبه الله أحبه الوجود الصامت كله، وأحبه غالب الوجود الناطق، فالدنيا كما يقول الشعراني تسعى خلف الصامت الزاهد فيها، والراغب في الآخرة.

ويذهب إلى أن المتمسك بالدنيا لو أنه تركها لسعت خلفه على عكس الراغب فيها الذي لا يكل جهداً في الأخذ بأسبابها فإن الدنيا غالباً ما تهرب منه وتشقيه، لأن الله تبارك وتعالى يحب الزاهدين، ويبغض محبي الدنيا الذين يتكالبون في طلبها، فلا يكون لهم شاغل سواها حتى إنها تنسيهم أن يشكروا الله الذي أنعم عليهم بما يتمتعون به من نعيمها.

كما يذهب الشعراني إلى أن الدنيا ملكاً لله تهين من عصاه وتكرم من أطاعه فإذا بغض الله محبي الدنيا تعاصت عليهم وأشقتهم^(٢).

ويتابع الشعراني الصوفية السابقين عليه في القول بأن الطامع في الدنيا يكون عبداً لها، وليس عبداً لله، لأن ما دام في قلب العبد شهوة من شهوات الدنيا أو هوى عن أهوائها، فهو محجوب عن الآخرة، ومحجوب عن الله عز وجل لأنه مقبل على الدنيا غارق في إشباع رغباته وأهواء نفسه، غير ملتفت إلى ربه فكانت له حجاباً يحجبه عن نور المعرفة بالله، فالتعلق بالدنيا عند صوفينا أساس كل خطيئة وترك الدنيا ينبوع كل خير.

وللشعراني نظرة طريفة في الزهد، فهو يرى أن المؤمن الذي زالت عنه الدنيا وزواها الله عنه، ومتعه بعمق الإيمان والرضا بما قسمه الله له من الرزق فإن ذلك دليل على طيب أرض إيمانه وشدة طراوتها، فيتنعم ببؤس الدنيا وجوعها وعسرها، عكس ما

(١) انظر: التنوير في إسقاط التدبير، ابن عطاء الله، ص ٨.

انظر أيضاً: بن عطاء الله السكندري وتصوفه: د. التفتازاني، ص ٢٣٤.

(٢) لطائف المنن والأخلاق: ج ١، ص ٧٠.

عليه أهل الدنيا، ولا يزال في زيادة من الأعمال الصالحة حتى يلقي ربه فينعم في الجنة بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر^(١).

وللزهد عند الشعراني معنى خاص، إذ يقول: (الزهد في ميل القلب إليها، أي الدنيا، لا في إمساكها من غير ميل)^(٢). بمعنى أن الإنسان الذي يعيش في مجتمع ما ويتعامل مع أفرادهِ ويتبادل معهم المصالح وتربطه بهم الأعمال والتجارة، لا بد وأن يعرف للأشياء قيمتها، فيفرق بين الخسيس والنمين وبين النفيس والرخيص، فلا يساوي بين التراب والذهب. وعليه أن يعرف أن الذهب قد جعله الله للبيع والشراء وخصه بهذه تعالى بهذه القيمة دون غيره، وله في ذلك حكمة، فلا يحق للسالك - والحال كذلك - أن يساوي بين الذهب والتراب من حيث قيمته المادية ودوره في الاقتصاد. فلا هذا هو المقصود بالزهد، وإنما المقصود بالزهد، ألا يميل قلب السالك إلى الدنيا، مع معرفته بقيمة كل شيء خلقه الله فيها وأضاف إليه تلك القيمة، فيعرف مثلاً للذهب قيمته ولكن معرفته بقيمة الذهب لا تكون داعي لميله إليه، وعليه أن يتعامل به ويفضله على غيره من المعادن الأقل قيمة ولكنه في نفس الوقت لا يتهافت على جمعه وامتلاكه. ولو كان يمتلك منه شيئاً وسلب منه، لا يتغير لذلك وهذا هو معنى الزهد عند الشعراني فهو ما يعنيه من قوله: (الزهد في ميل القلب إلى الدنيا لا في إمساكها من غير ميل).

وإذا تحقق السالك بمقام الزهد عليه أن يداوم على زهده وتقشفه هو الشعراني يذهب إلى أن السالك يجب أن يلتزم بالتقشف والزهد المشروع حتى بعد أن يصلح الصوفي كاملاً، فالزهد مطلوب في جميع مراحل السلوك إلى الله. ويأتي بعد مقام الزهد عند الشعراني مقام المراقبة.

(١) لطائف المنن والأخلاق: ج ١، ص ٧٩.

(٢) المرجع السابق: ص ٥٤.

٤) مقام المراقبة:

المراقبة عند الشعراني هي (شهود نظر الحق إلى العبد، وهي أن يشهد السالك أن الله رقيبته وشاهده^(١). أي أن السالك طريق الحق يشهد دائماً أن الله معه يرى كل أفعاله ويراقب كل ما يأتي به من قول أو فعل، وإذا تم للسالك التحقق بمقام المراقبة، فإنه لا يأتي من الأفعال والأقوال إلا ما يقربه إلى الله ويوصله إلى حضرته.

ومن أخص خصائص المراقبة عند صوفينا، أن يظل السالك مع الله بقلبه إذ يقول: (شرط المراقبة دوام حضور القلب مع الحق)^(٢).

فالمحقق بمقام المراقبة لا يغفل قلبه عن الله فيكون سبحانه وتعالى دائم التجلي على قلب السالك القائم في هذا المقام.

ويرى الشعراني أن السالك إذا شاهد أن الله رقيبته وشاهده وناظره فلا يتعارض فعله بفعل الله، ولا تتعارض إرادته بإرادة الله، فكما يقول الشعراني: (يفنى فعل المرید بفعل المراد وتفنى إرادته في إرادة الله)^(٣). وإذا وصل المحقق بمقام المراقبة إلى هذه الدرجة التي تسمى عند صوفينا بالمراقبة الشهودية فإنه يتهيأ لذلك للفناء، فإن دوام حضور القلب مع الله يؤدي إلى تجلس الأنوار الإلهية على قلب السالك. ويلبي مقام المراقبة عند صوفينا مقام الصدق.

(١) كشف الحجاب والران: ص ١١٧.

(٢) حياة الأرواح ونجاح الأشباح، ل ٢٢ ظ.

(٣) المرجع السابق: ل ٢٢ ظ.

٥) مقام الصدق:

يقول الشعراني: (إن الصدق عماد الأمر وبه تمامه ونظامه)^(١). فقد اعتبر الصدق عماد التصوف ولا يتم الوصول إلى الله إلا به، فالسالك إلى الله لا يصل إلى التحقق بمعرفته إلا إذا كان صادق الحال.

والصدق عنده ثاني درجات النبوة اعتماداً على قوله تعالى: ﴿فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾^(٢).

ومقام الصدق عند الشعراني يوجب استواء السر والعلانية عند المتحقق به ويكون صادقاً في إظهار ما في سريره حتى يصبح ما ينبيء به هو عين ما يسره، وللصدق عند الشعراني مراتب:

١- المرتبة الأولى: صدق القصد والنية ويعني به أن يتوب قلب السالك إلى الله فلا يكون له غرض آخر سوى التوجه إليه تعالى من غير رياء ولا شوب فيصدق في سلوكه ويصدق في غرضه.

٢- المرتبة الثانية: أن لا يتمنى الحياة إلا لخدمة الحق، ولا يود العيش إلا للعبودية لأنه لم يبق في نفسه حظ. والسالك المتحقق بمقام الصدق عند صوفينا لا يشهد عن نفسه إلا أثر النقصان لأنه لا يشهد الكمال إلا للحق فيرى الصدق نفسه عند تجلي عظمة الخالق له. والشعراني في ذلك متأثر بقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه: (عظم الخالق عندك يصغر المخلوق في عينيك)^(٣).

٣- المرتبة الثالثة: الصدق في معرفة الحق، ويعني صوفينا بذلك أن أعلى درجات الصدق أن يصدق السالك في معرفة صدقه، أي أن تكون معرفته للصدق مطابقة لما هو

(١) حياة الأرواح ونجاة الأشباح: ل ٢٣ و.

(٢) سورة النساء: الآية ٦٩.

(٣) حياة الأرواح ونجاة الأشباح: ل ٢٤ ظ.

في الواقع، وهو كما يقول: (أن يتوافق رضى الحق بعمل العبد)^(١). وهذا التوافق يجب أن يلازم السالك في حال البداية وفي بحال التوسط، وفي حال القرب أو النهاية.

وهذا التقسيم لدرجات الصدق عند الشعراني يشبه ما ذهب إليه الغزالي في هذا الصدد فقد استعمل الغزالي الصدق في ستة معاني هي: الصدق في القول - الصدق في النية والإرادة - الصدق في العزم - الصدق في الوفاء بالعزم - الصدق في العمل، الصدق في تحقيق مقامات الدين)^(٢).

ودليل تحقق السالك بمقام الصدق عند الشعراني (أنه لا يحتمل داعية تدعو إلى نقض العهد ولا يصبر على صحبة ضد لأنه دائم الأنس متيقظ)^(٣). على عكس من لم يتحقق بهذا المقام فإنه يكون دائم الغفلة مائلاً إلى التفرقة، فلا يصبر على صحبته سواء نطق أو سكت، فكما يقول الشعراني: (إن باطن الصادق يحس ويشعر بظلمة باطن الضد فلا يداهنه ولا يجاريه لأنه يرى ذلك نفاقاً)^(٤).

والنفاق مناف للصدق فكيف يأنس من تحقق بمقام الصدق بمجالسة ضده؟ فالمتحقق بمقام الصدق عند صوفينا لا ينتقض العهد ولا يصاحب الأضداد ولا يداهن ولا يرائي.

كما أن المتحقق بمقام الصدق عند صوفينا يجتهد في الله من غير رؤية عمل وإلا كان السالك حاضراً مع العمل لا مع الله، فإذا رأى السالك عمله ونظر إلى مجاهدته في الله فإنه يكون ملتفتاً إلى ما سوى الله فلا يكون صادقا، ويقول الشعراني: (والمتحقق بمقام الصدق بالفعل بعيداً عن رؤية العمل)^(٥).

ويعد مقام الصدق عند صوفينا يأتي مقام التوكل.

(١) المرجع السابق: ل ٢٤ ظ.

(٢) إحياء علوم الدين، للغزالي، ج ٤، ص ٣٥٧.

(٣) حياة الأرواح ونجاة الأشباح: ل ٢٣ ظ.

(٤) المرجع السابق: ل ٢٣ ظ.

(٥) المرجع السابق: ل ٢٤ و.

٦) مقام التوكل:

يعرف الشعراني التوكل بأنه (الثقة بما عند الله، واليأس بما في أيدي الناس)^(١).
 والتوكل مقام شريف عن المقامات الصوفية والقرآن الكريم مليء بالآيات التي تحض على التوكل، قال تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾^(٢).
 وقال تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾^(٣)، وحدثنا سبحانه وتعالى عن توكل أهل الخصوص بقوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾^(٤).
 ولا بد هنا في تناولنا لهذا المقام أن نفرق بين التوكل والتواكل، فهناك فرق كبير بين التوكل بمعناه الصوفي وهو الثقة التامة بالله والاعتماد عليه وبين التواكل وهو التكاثر والتقاعد عن طلب الرزق أو غيره، فقد طالب الله عباده بالعمل وعدم التواكل في قوله تعالى: ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فَيَسِّرَ اللَّهُ لَكُمْ أَسْرَارَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾^(٥). وغير ذلك من الآيات الكريمة، وقد اهتم الإمام الشعراني بإبراز هذا المعنى فالتوكل عنده هو أن يفوض الإنسان أمره إلى الله تفويضاً كاملاً في نفس الوقت الذي يعمل هو من جانبه فنجد إلى جانب قوله بأن: (الرزق من عند الله، ويجب إلا نعقد له كل مرصد إيماناً بأن ما قسمه الله تعالى لا تقدر أهل السموات والأرض على أن يردوا عن أبيه منه ذرة)^(٦).
 فهو يقول أيضاً: (يجب ألا نتعاطى أسباب تعطيل الرزق وأن نجتهد في طلب الحلال لنأكل منه ونلبس وننفق على أولادنا وإخواننا منه)^(٧).

(١) تعريفات الجرجاني: ص ٦٢.

(٢) سورة إبراهيم: الآية ١٢.

(٣) سورة المائدة: الآية ١١.

(٤) سورة الطلاق: الآية ٣.

(٥) سورة التوبة: الآية ١٠٥.

(٦) لوائح الأنوار القدسية في العهود المحمدية: ج ١، ل ٢٢ ظ.

(٧) المرجع السابق: ل ٢٢ ظ.

والفكرة الأساسية في التوكل عند الشعراني هي أن جميع أفعال العباد خلقا لله بإرادة تامة وهي في نفس الوقت مضافة إلى العبد فإن الله تعالى الإيجاد وللعبد الإسناد. وقد تابع الشعراني في ذلك الصوفية السابقين عليه، فعندما سئل ذو النون المصري عن التوكل قال: (التوكل ترك تدبير النفس والانخلاع عن الحول والقوة)^(١). والشعراني إلى جانب تسليمه التام بالقدرة الإلهية وإرادة الحق التي فوق كل إرادة نجده لا ينكر دور الإنسان فيسند إليه الأفعال، ويرى أن الحكم مربوطين حق وخلق فالأفعال الإنسانية عنده لها وجهان، وجه إلى الله تعالى إلى العبد، ويجب على كل سالك الإيمان بالقدر، ولكن في نفس الوقت لا يحتاج به، وصوفينا يرى في ذلك إيمانا بطريقتين متناقضتين لا يستطيع تصويره إلا صاحب الكشف الصحيح^(٢).

ويتفق الشعراني مع الأشاعرة وأهل السنة الذين ذهبوا إلى أن العبد محل ظهور أفعال الله تعالى وموضع جريانها المصنفات يشهد لها الحس عندهم إلا من الأكوان ولا تشهدا بصيرتهم إلا من الله، ومن خلف حجاب. هذا الذي ظهرت على يديه المرید لها المختار فيها فهو لنا مكتسب باختياره^(٣).

وحديث الشعراني في مقام التوكل يسوقنا بالضرورة إلى مسألة خلق الأفعال وذلك لأن التوكل على الله يلقي عليه تعالى تبعته وينسب إلى الله تعالى أفعاله، وصوفينا يرى أن هناك ارتباط وثيق بين التوكل وبين الاعتماد على الله بترك التدبير له وإسقاط الإرادة والتدبير للإنسان وهو في ذلك - كما سبق أن ذكرنا - يتابع المدرسة الشاذلية وعلى رأسها ابن عطاء الله السكندري^(٤).

(١) اللمع: للطوسي، طبع بمصر، سنة ١٣٨٠ هـ / ١٩٦٠ م، ص ٨٨.

(٢) لطائف المنن والأخلاق: ج ٢، ص ١٨٠.

(٣) انظر: الأشعري: اللمع، ص ٥٤: ٦٩. وفيه ذكر فعل أيضًا رأي المعتزلة، طبع بيروت، ١٩٥٢ م، ص ٦٥.

وانظر: كتاب الشامل في أصول الدين، ص ٦٩٣ - ٦٩٥، وكلاهما للجويني.

(٤) انظر: ابن عطاء الله السكندري وتصوفه: التفتازاني، الطبعة الثانية، ص ١٢١ - ١٤٥.

والأساس في المشكلة كما يذهب إلى ذلك صوفينا أن العقل الإنساني قاصر على مسألة خلق الأفعال فهي عنده لا يمكن الخلاص منها إذا أتبعنا منهج العقل في تفكيره، ولا يخرج السالك منها إلا بالكشف الصحيح، ويقول: (اعلم يا أخي أن العقل يعجز عن مسألة خلق الأفعال من غير إشكال ولا يخرجك عن الإشكال فيها إلا الكشف الصحيح^(١)).

ويحلل الشعراني مسألة خلق الأفعال، فلنستمع إليه حيث يقول: (فمن أضاف الأفعال كلها إلى الله قال له لسان الغيرة الإلهية: ﴿قُلْ كُلُّ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ (٧٨) ^(٢)، فإن نسبة الأفعال إلى الخلق نسبة إضافة وإسناد لا نسبة خلق وإيجاد، ومن أضاف الأمور الحسنة كلها إلى الله تعالى وأضاف القبيح كلها إلى الأكوان قال له لسان الجود الإلهي: ﴿قُلْ كُلُّ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ الآية) ^(٣).

وقد استند الشعراني فيما ذهب إليه إلى أن الله تعالى يضيف العمل وقتنا إليه سبحانه ووقتنا إلينا، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ ^(٤). ثم قال تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ ^(٥). فأضاف الكل إلينا، وقال تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ ^(٦). فله سبحانه وتعالى الإلهام فينا ولنا العمل بما ألهم، وقال تعالى: ﴿كَلَّا نُمَدِّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِّنْ عَطَاءِ رَبِّكَ﴾ ^(٧). وقد يكون عطاؤه سبحانه وتعالى الإلهام، وقد يكون في عطائه خلق العمل.

(١) لطائف المنن والأخلاق: ج ٢، ص ١٨١.

(٢) سورة النساء: الآية ٧٨.

(٣) المتن: ج ٢، ص ١٨١.

(٤) سورة الصافات: الآية ٩٦.

(٥) سورة البقرة: الآية ٢٨٦.

(٦) سورة الشمس: الآية ٨.

(٧) سورة الإسراء: الآية ٢٠.

ففي رأي صوفينا أن الشريعة لا تخلق الفعل من جميع الجهات إلى أحد الطرفين دون الآخر، فإذا نسب الفعل إلى الله تعالى وحده، ترتب عليه محذور لأنه بذلك ترتفع حكمة التكليف وهذا كما يقول الشعراني: (قدح في الخطاب والتكاليف ومباهته للحس)^(١). لأنه لا يؤمر وينهي إلا من له قدرة على الفعل وقد ثبت التكليف للخلق بالأوامر والنهي. وإن نسبنا الفعل إلى قدرة العبد وإرادته فإنه يترتب على ذلك محذور، فإيجاد الفعل لا يكون إلا بإيجاد الشركة الحقيقية بين العبد وربّه.

وانتهى صوفينا من كل هذا إلى أن هذه المسألة لا يخلو فيها توحيد الفعل أصلاً لا من جهة الكشف ولا من جهة الكشف، ولا من جهة الأخيار الإلهي، وأن الأمر الصحيح في ذلك كما يقول الشعراني: (مربوط بين حق وخلق غير مخلص) مؤكداً في ذلك أن الله تعالى الغنى المطلق عن خلقه وعن نفوذ أقداره النافذة فيهم^(٢).

والمتحقق بمقام الصوفية عند صوفينا يرى أنه ليس في الوجود طلعة ولا عصيان ولا ربح ولا خسران، ولا عبد ولا حر ولا حياة ولا موت، ولا حصول ولا فوات، ولا نهار ولا ليل، ولا اعتدال ولا ميل، ولا أرض ولا سماء، الأولى تركيب ولا تحليل، ولا غداة ولا أصيل، ولا بياض ولا سواد، ولا سهاد ولا رقاد، ولا ظاهر ولا باطن، ولا متحرك ولا ساكن، ولا يابس ولا رطب، ولا قشرة ولا لب، ولا شيء من جميع المتضادات والمختلفات والتمايلات إلا وهو مراد للحق جل وعلا^(٣).

والشعراني في ذلك يتابع أهل السنة والجماعة في القول بأن (لا راد لأمر الله ولا معقب لحكمه يؤتي الملك لمن يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويزل من يشاء ويهدي من يشاء ما شاء الله كان وما لم يكن لم يكن) (٤).

(١) المتن: ج ٢، ص ١٨١.

(٢) القواعد الكشفية: ص ٢٢.

(٣) نفس المرجع السابق: ص ٧ - ٨.

(٤) انظر: الإرشاد، للجويني، تحقيق محمد يوسف موسى وآخرون، مصر، سنة ١٩٥٠م، ص

وعلى ذلك فإن من آداب الصوفية ترك التدبير والتوكل على الله مع العمل بما أمره الشارع، فالسالك في طريقه إلى الحق لا تكون له مع الله مشيئة أو إرادة فتبني إرادته في إرادة الله فإذا تجلّى له توحيد الفعل لله وحده كشفًا ويقينًا ذهب عنه طلب الثواب على عمله ولم يبق له من مطلب إلا الله.

ويذهب الشعراني إلى أن السالك بعد أن يأخذ نفسه بالمجاهدات والرياضات ينكر هواها بوارداتها فلا يصبح له إرادة مع الله، وفي هذه الحالة يجعل الله له إرادة وهو لا اختيار فيه للسالك بل هي من كون الله؛ فيحب ما أحبه الله، ويكره ما يكرهه تعالى، ويقول الشعراني: (أن الحق تعالى لا يكون عندك إلا بعد أن يكسر هواك وإرادتك فإنه هناك يجعل لك إرادة وهوى، لا اختيار فيه لنفسك)^(١).

وقد استند الشعراني فيما ذهب إليه في قول الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام: لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به، وإلى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرَزَقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾^(٢).
ويأتي مقام الإخلاص عند الشعراني بعد مقام التوكل.

(١) لطائف المنن والأخلاق: ج ١، ص ٧١.

(٢) سورة طه: الآية ١٣١.

٧) مقام الإخلاص:

يعني الإخلاص عند الشعراني (شهود الفعل أنه خلقا لله تعالى)^(١). وهذا في رأيه الإخلاص الكامل وأعلى الدرجات في هذا المقام.

وفهم الإخلاص بهذا المعنى يعد طريقا كل الطرافة، فالإخلاص عند الصوفية يعني تجريد قصد التقرب إلى الله من كل ضرر، وتوجه العبد إلى الله توجهها خالصا من كل شوب، ويقول الغزالي في بيان حقيقة الإخلاص: (ولكن العادة جارية، بتخصيص اسم الإخلاص بتجريد قصد التقرب إلى الله تعالى من كل شوب)^(٢).

ويعرف إبراهيم بن آدهم الإخلاص بأنه (صدق النية مع الله)^(٣). والفرق بين الإخلاص والصدق عند الشعراني أن الصدق أصل وهو أول، والإخلاص لا يكون إلا بعد الدخول في العمل قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾^(٤). وشرط وصول السالك إلى مقام الإخلاص والتحقيق به عند الشعراني هو دوام الذكر، فإن أول ما يتجلى للسالك إذا اشتغل بالذكر توحيد الفعل لله تعالى فإذا تجلى له ذلك خرج كشفا وبقينا عن شهود كون الفعل لخالقه^(٥).

ويشترط صوفينا فيمن يقيم في مقام الإخلاص أن يداوم على التحقق به فلا يقدم على عمل شيء في الدنيا إلا وهو يشهد أن عمله خلقا لله، فمن لا يخلص في عمله فلا ثواب له عليه.

والسالك التحقق بمقام الإخلاص لا يطلب من الله أن يشبهه على عمله، ويذهب صوفينا إلى أن العبد المخلص يعمل جميع ما أمره الحق به امتثالاً لأمره تعالى وقياماً بوظيفة العبودية^(٦).

(١) نصيحة الإخوان: ل ١٠٨ و.

(٢) إحياء علوم الدين، للغزالي، ج ٤، ص ٣٦٩ - ٣٧٠.

(٣) المرجع السابق: ص ٣٦٩.

(٤) سورة البينة: الآية ٥.

(٥) نصيحة الإخوان: ل ١٠٨ و.

(٦) المرجع السابق: ل ١٠٨ ظ.

وقد اتفق ما ذهب إليه الشعراني مع ما ذهب إليه من قبل الصوفي رويم حين قال:
(الإخلاص في العمل هو ألا يريد صاحبه عليه عوضاً في الدارين)^(١).

وغاية القول بذلك كما يذهب الشعراني أن السالك لا يملك مع الله شيئاً فهو يفعل
ما أمره به تعالى فإن أثابه الله على عمله فذلك فضلاً عظيماً، وإن لم يثبه فلا يتكدر
لذلك لشهوده الإخلاص في عمله دون النظر إلى ثواب أو أجر.
ومقام المحبة هو المقام التالي لمقام الإخلاص عند صوفينا.

(١) إحياء علوم الدين، للغزالي، ج ٤، ص ٣٦٩.

٨) مقام المحبة:

اعتبر الشعراني مقام المحبة أعز المقامات مثالا، ولعزة الوصول إليه فليس كل من ادعاه كان صادقا في دعواه فربما كان واهما^(١)، ويقصد الشعراني بالمحبة هنا أعلى درجاتها وأسمى مراتبها، فإن كل مسلم ومؤمن يحب الله ولكن ليست هذه هي المحبة المقصودة، فالمحب المتحقق بمقام المحبة له في ذلك دلالات فيقول عنه الشعراني: (يكون ذا أشواق وأتواق، واحتراق ولهف، وأسف وشغف وحزن وأنين، ووجد وفرق، واصطلام وفناء، ومحو وسكر، وصحو وبقاء، ونحول وزبول، وأرق وقلق، وملق وسهر، وسهاد ووحدية، وانفراد وعزلة، وانقياد وبهتة، ودهشة وحيرة، وغيبة وسكون، وحركة، وبلاء وضناء، وبكاء وخشوع، ودموع ونيران، وأشجان ونوح وبوح، وكتمان وسر، وإعلان وشهود، وخمود وجمود، وإطراح وشجن، وسراح وغير ذلك من صفات المحب)^(٢).

ولا شك أن هذه الصفات قد ردها الصوفية السابقون على الشعراني فقد أفاضوا في شرح معاني الحب الإلهي ووصف حال المحب.

ويذهب الشعراني إلى أن أخص خصائص المحبة هي كونها: (تقطع الوسواس وتلذ الخدمة، وتسلي عن المصائب)^(٣).

ومعنى قطع الوسواس أن المحب لا يشهد إلا محبوه ولا ينجذب إلا إليه فلا يجد الشيطان إليه سبيلا لأنه أخلص وصفى في حبه لله، والشيطان لا يقدر على إغواء المخلصين كما قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ سَاجِدِينَ﴾^(٤).

(١) لطائف المنن والأخلاق: ج ٢، ص ٧١.

(٢) المرجع السابق: ص ٧٢.

(٣) حياة الأرواح ونجاة الأشباح: ل ٢٧ ط.

(٤) سورة الحجر: الآية ٤٢.

والصوفية المتحققون بمقام المحبة قد صححوا نسبة العبودية بالمحبة لذات الله، والإخلاص التام فلا يتطرق الوسواس إليهم، وقال الشُّهْرَوْرْدِيّ في هذا الصدد: (خالص الحب هو أن يحب السالك الله تعالى بكلّيته)^(١).

ومعنى تلذ الخدمة أن المحبة تعظيم المحبوب بالتذلل له، وكلما كان تلذذه بالخدمة أكثر كان تلذذه أشد، والعشق والمحبة أقوى سبب عند صوفينا وتلطيف السر، لا سيما المحبة الصادقة، فإنها تجعل الهموم هما واحداً.

ومعنى تسلي عن المصائب أن قلب السالك لا يتعلق بشيء غير المحبوب فليس هناك ما سواه تعالى يحب ويحزن على فواته، فالمصائب على قدر العلائق فمن لا علاقة له بشيء لا مصيبة له بفقده.

والمحبة عند صوفينا تبعث على إثبات الحق على غيره، والإكثار من ذكره فمن أحب شيئاً أكثر من ذكره، فالمحبة كما يقول الشعراني: (لا تطاوع الكتمان)^(٢).

ويذهب صوفينا إلى أن أعلى الدرجات في مقام المحبة هي: (المحبة الخاطفة التي تعطي العبارة وتدقق الإشارة)^(٣).

ويعني صوفينا بذلك أن هذه الدرجة من المحبة تخطف المحبة من أودية الصفات إلى حضرة الذات فتسلب عقله وفهمه لأن كشف سيمات جلال الصفات عن نور جمال الذات يصعب معه التعبير بالألفاظ والكلمات فلا يمكن التعبير عنه بالعبارة وذلك الحال بالنسبة للإشارة، فهي أيضاً في هذا المقام تصبح غير معبرة لأن إشارات التوحيد قد تكون بالحق للحق وهي تدق على إدراك العقول ويقول الشعراني: (لا تبقى للغير عينا وأثراً فتقطع العبارة بالضرورة لأنها موقوفة على إدراك العقل والفهم وتقطع الإشارة، كالعبارة لأن إشارة التوحيد قد تكون بالحق للحق)^(٤).

(١) عوارف المعارف: السرودي، طبع بمصر، سنة ١٣٥٨ هـ / ١٩٣٩ م، ص ٣٤٩.

(٢) حياة الأرواح ونجاة الأشباح: ل ٢٧ ظ.

(٣) المرجع السابق: ل ٢٨ و.

(٤) المرجع السابق: ل ٢٨ و.

وتلك المحبة لا يفهمها إلا أهلها فهي تعرف الحق لأهل الحق بالحق، وهي في الحقيقة كما يقول الشعراني: (تصرفات الحق بذاته إلى قلوب عرفائه ولا مدخل للغير فيها)^(١).

وقد اعتبر الشعراني هذا النوع من المحبة قطب السلوك إلى الله تعالى.

ويفرق صوفينا بين ثلاث درجات من المحبة:

١- محبة العوام: وهي تنشأ من مطالعة المنة ورؤية الإحسان، وصاحبها يرجو الثواب ويخاف النار.

٢- محبة الخواص: وهي تنشأ عن مطالعة شواهد الكمال في صاحبها من جهة التعظيم والإجلال لله، والمتحقق بها يطرح ما سوى الله تعالى عن قلبه متعلقاً بين النظر إلى جماله مرة وإلى جلاله مرة أخرى.

٣- محبة خواص الخواص: وهي الغاية القصوى، وهي محبة خاطفة تنشأ من جهة الحق الناشئة عن المحبة القديمة في سر (كُنْتُ كَنْزًا مَخْفِيًّا، فَأَرَدْتُ أَنْ أُعْرَفَ، فَخَلَقْتَ الْخَلْقَ لِأَعْرَفَ).

ولكي يصل السالك إلى التحقق بأعلى درجات هذا المقام عليه أن يخلي قلبه من الشهوات وحب الدنيا بكثرة المجاهدات والرياضات الروحية والعملية، فإذا كان له ذلك صار قلبه بيتاً لحب الله، وإذا خرجت الشهوات من القلب ولم يبق فيه غير حب الحق صار محلاً للمعارف الإلهية والعلوم الدنية على العكس من القلب الذي امتلأ بحب الشهوات فإنه يصير بيتاً لهوى النفس والشيطان.

ويذهب الشعراني إلى أن حب الشهوات وحب الله لا يمكن أن يجتمع في قلب واحد لأن الله غيور لا يحب أن يرى في قلب عبده المؤمن غيره ويقول صوفينا: (القلب إذا خلا من الشهوات كان بيتاً لحب الله، وإذا سكن فيه حب الشهوات كان بيتاً للنفس والهوى والشيطان، والحق تبارك وتعالى غيور لا يحب أن يرى في قلب عبده المؤمن

غيره، فإذا خرجت الشهوات من القلب وبقي فيه توحيد الرب وحده صار محلاً للمعارف والموارد الغيبية والأسرار والعلوم^(١).

وقد استند الشعراني فيما ذهب إليه إلى قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾^(٢)، أي لا يجتمع حب الله وحب الشهوات في القلب، فقلب المؤمن لا يسع اثنين.

ويلي مقام المحبة عند صوفينا مقام الإحسان:

(١) لطائف المنن والأخلاق: ج ١، ص ٧٩.

(٢) سورة الأحزاب: الآية ٤.

٩) مقام الإحسان:

يعرف الشعراني الإحسان بقوله: (إن الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)^(١).

وصوفينا في ذلك يتابع قول الرسول صلى الله عليه وسلم حينما سأل جبريل عن أصول ثلاثة: الإسلام، الإيمان، الإحسان الظاهر والباطن، والحقيقة أن الإسلام ظاهر والإيمان ظاهر وباطن، والإحسان حقيقة الظاهر والباطن، وهو قول النبي صلى الله عليه وسلم: (الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تراه فإنه يراك)^(٢).

والسالك المتحقق بمقام الإحسان عند الشعراني يطابق قصده دائما الشرع وما أمره الله فباطنه ظاهر من لوث الذنوب، وهو مترفع عن طلب العوض أو الأجر فإذا أقدم على عمل ما أتمه على أكمل وجه دون أن ينتظر ثناء أو شكرا أو جزاء أو أجرا، بل لا ينبغي المتحقق بمقام الإحسان من وراء أعماله أي غرض أو منفعة، فإنه يؤديها لوجه الله لا غير، ويقول الشعراني: (يكون قصده - أي السالك - المتحقق بمقام الإحسان - مطابقا لما أمر الله به في شريعته وبحكم عزمه حتى لا تتغير نيته ويصفها من شوب الربا وطلب العوض وعلة الغرض)^(٣).

ويذهب الشعراني إلى أن السالك المتحقق بمقام الإحسان لا يراعى في مجاهداته وشهاداته إلا الحق، فيعبد الله وكأنه يراه ولا يعمل للغير حساب، فإن حضروا معه أو لم يحضروا فالأمر بالنسبة له سيان فهو لا يهتم بثناء الناس عليه في قليل أو كثير ويقول الشعراني: (فالمحقق بمقام الإحسان لا يداهن الآخرين ولا يرائيهم بل أنه في جميع الأوقات والأحوال يرى أن الله هو الشاهد الوحيد لكل أفعاله)^(٤).

(١) حياة الأرواح ونجاة الأشباح: ل ٢٨ ظ.

(٢) اللمع: الطوسي، ص ٢٢.

(٣) حياة الأرواح ونجاة الأشباح: ل ٢٥ ظ.

(٤) المرجع السابق: ل ٢٥ ظ.

وحقيقة الإحسان عند صوفينا أن يرى السالك المتحقق لهذا المقام أن كل أفعاله وأحواله ليست من خلقه، ولا نتيجة اجتهاده؛ فإن العمل والاجتهاد من الله وبتوقيفه تعالى، فإذا قدر الله السالك على عمل شيء من الخير أو من العبادات أو الطاعات فإن واجبه ألا يظهرها أمام الناس، ولا يباهي بها حتى يقاوم آفات نفسه وأهوائها ويتخلص من روية العمل فلا يغتر عن ثناء الآخرين ولا يطلب كرامة له عندهم، فالإحسان عند صوفينا هو النزهة عن كل ذلك. ويقول: (أن من معاني الإحسان أن يراعي المحسن حق الأحوال بأن يراها من الله لا من عمله واجتهاده؛ فإن العمل والاجتهاد هو أيضاً من الله تعالى وبتوقيفه فيحفظها عن أعين الأغيار حتى تبقى خالصة لوجه الله ولا يظهرها تطرفاً حتى ينزه نفسه عن العيب وآفات الدعوة وطلب الجاه والكرامة عند الناس فالإحسان هو النزهة عن دنس أمثال هذه النقائص)^(١).

ويلي مقام الإحسان عند الشعراني، مقام التجريد.

(١) حياة الأرواح ونجاة الأشباح: ل ٢٥ ظ.

(١٠) مقام التجريد:

يعني الشعراني بالتجريد ألا يكون للسالك من أمر يشغله من أمور الدنيا، وأن يكون متجهاً بكليته إلى الله فلا يكون له مطلب ولا علاقة ولا حاجة دنيوية تشغله عن الله ويتأسف على فواتها ويقول الشعراني: ذلك أن صاحب مقام التجريد لا يشهد ملكيته لشيء في الدنيا ولا في الآخرة^(١).

والصوفي في مقام التجريد، يكون باطنه مجرداً عن كل شعور بامتلاك شيء من متاع الدنيا مهما كان قليلاً، ويقول الشعراني (فيذا صح له - أي للسالك - المتحقق بمقام التجريد - مطابقة باطنه بظاهره لتجرد من ثيابه إلا ما يستر عورته)^(٢).

وصوفينا وإن كان يفضل أن يتحقق السالك لطريق الحق بالتجريد إلا أنه يقلل من قيمة التسبب إلا اشتغال بأسباب الدنيا والعمل على تحصيل الرزق، وقد سبق أن بينا كيف أن الشعراني يفض اليد التي تعمل على اليد التي تمتد لطلب الحاجة وهو الذي يقول للسالك: (فاعمل يا أخي على تحصيل الكسب من الحلال)^(٣).

فليس شرطاً أن يمنع تسبب السالك من سلوكه الطريق طالباً أن اشتغاله بالأسباب لن يعوقه عن المجاهدات والعبادات والطاعات والوصول إلى معرفة الله فالرزق في هذه الحالة لن يكون له حجاب. والشعراني بذلك يقدر دور الصوفي في المشاركة في بناء المجتمع والإنتاج وحتى لا يؤدي به التجريد إلى الحاجة والتعطل فلا يجد ما يقتات منه من الرزق الحلال مما يدعوه إلى طلب المعونة من الناس، وهذا ما هاجمه الشعراني ودعا إلى محاربته في كثير من كتبه.

والشعراني فيما ذهب إليه في هذا الصدد يشبه ما نجده عند ابن عطاء الله السكندري الذي لا يشترط أن يكون السالك للطريق متجرداً، بل أفضل له في كثير من الأحيان أن يكون متسبباً ولن يمنعه تسببه عن سلوكه مدام مراعيًا لآداب الأسباب من

(١) لطائف المنن والأخلاق: ج ٢، ص ٧٢.

(٢) المرجع السابق: ج، ص ٧٢.

(٣) المرجع السابق: ج، ص ٧٣.

حيث عدم الاحتجاب بها عن الله وموافقته لأحكام الشريعة فيها ويقول بن عطاء الله بتفضيل التجريد على التسبب. وقد اتفق بذلك مع الشعراني في تفضيل المتجرد على المتسبب حيث يقول: (ولن يجعل الله من تفرغ لعبادته وشغل أوقاته كالداخل في الأسباب ولو كان فيها متقنا، فالمتجرد والمتسبب إذا استوى مقامهما من حيث المعرفة بالله، فالمتجرد أفضل وما هو فيه أعلا وأكمل)^(١).

والشعراني في النهاية يترك الأمر إلى الله إذا كان الله قد قسم للسالك أن يكون متسببا فلا مفر له من ذلك، وإذا قدر له أن يكون متجردا فهو في كلا الحالين ليس له مع الله اختيار.

وهو في ذلك - كما سبق أن ذكرنا - يتابع المدرسة الشاذلية وعلى رأسها ابن عطاء الله السكندري في القول بإسقاط التدبير والإرادة الإنسانية^(٢).
ويلي مقام التجريد عند صوفينا مقام الاتصال.

(١) انظر: ابن عطاء الله السكندري وتصوفه: التفتازاني، الطبعة الثانية، ص ٢٠٦ - ٢٠٩.

(٢) انظر: المرجع السابق: ص ١٢١ - ١٢٥.

(١١) مقام الاتصال:

يعد الشعراني مقام الاتصال آخر مقامات الوصول إلى المعرفة بالله، ويعرف الاتصال بأنه: (الفناء في أحدية الذات)^(١). وعرفه أيضًا بأنه: (لمح ارتفاع الوهم عند صفاء شهود الحق)^(٢). وحقيقة الاتصال عند صوفينا هي أن يبلغ الساكن من الترقى في المقامات حتى أن يصل إلى أعلى الدرجات فينتقل من الحضرة الأسمائية إلى حضرة الصفات ومن حضرة الصفات إلى حضرة الذات، وهو بذلك يكون قد وصل إلى أعلى مقامات الترقى في السلوك إلى الله.

فالمحقق بمقام الاتصال - كما يذهب الشعراني - يفنى عن ذاته ويفنى عن شهود أسماء الحق وصفاته ويبقى بمعرفة الله فيدرك أن ما يشهده هو وحده الشهود الحق، وما عداه فلا يزيد في نظر السالك المحقق بالاتصال عن كونه أوهام. وعندما يشاهد حقيقة الحقائق فإنه يدرك أن لا حقيقة سواه، ولا وجود لغيره فهو الوجود الحق وما عداه وجود متوهم، وهذا معنى قول الشعراني: (إن الاتصال لمح ارتفاع الوهم عند صفاء شهود الحق).

ويقتضي الاتصال عند صوفينا الانفصال والعودة إلى البقاء بعد الفناء وهذا يتضح من قوله أن الاتصال "لمح" فهو لا يدوم فالمحقق به ما يلبس في لمحة أن يعود إلى البقاء بعد الفناء.

ويذهب الشعراني إلى أن لفظ الاتصال بالله لا يزيد عن كونه تعبيراً مجازياً عن الفناء فإنه محال أن يجتمع الحادث وهو العبد السالك المحقق بمقام الاتصال بالقديم وهو الله سبحانه وتعالى، فالحادث والقديم لا يتصلان ولا ينفصلان، فالاتصال بالله ليس اتصالاً حقيقياً وكذلك الانفصال، ويقول الشعراني: (بالفاني لم يكن شيئاً موجوداً حتى يعرض له الفناء، بل الفاني كان فانياً في ذاته من الأزل إلى الأبد، والباقي لم يزل باقياً

(١) حياة الأرواح ونجاة الأشباح: ل ٣٢ و.

(٢) المرجع السابق: ل ٣٢ و.

من الأزل إلى الأبد، ولكن الاعتبار التي صدرت المعقول المشوبة بالوهم أحدثت تحديدا وتكثرا بحسب النسب والإضافات لا بحسب الحقيقة^(١).

وهذا يعني أن الوجود لا يتصل بالعدم وأنه لا اثنية في الوجود وفي شهود الحقيقية، وإن الاتصال والانفعال وقع في نظر السالك بناء على ما توهمه في حالة وجد وفناء وعند صفاء شهود الحق.

وما ذهب إليه الشعراني في هذا الصدد بقول الشَّهْرَوَرْدِي: (فإن تحقق الحقائق بعلم العبد الذي على هذه الأحوال الشريفة إنه لا يزال بعد في أول المنزل فآين الوصال. هيهات... فمنازل طريق الوصول لا تقطع أبد الآباد في عمر الآخرة الأبدي، فكيف بالعمر القصير الدنيوي).

وإذا جاز لنا أن نقف على ما يعتري الصوفي المتحقق بمقام الاتصال من الناحية السيكلولوجية فإنه يمكن القول أن السالك المتحقق لهذا المقام يكون في حالة قابلية محضة. Absolute Passivity لا أثر لفاعلية العقل فيها ويكون في حالة سكون تام وخرس Ineffability يبلغ فيها الجانب الروحي عند السالك ذروة نشاطه فتستغرق جميع خلجات نفسه وروحه في محبوه ويصل إلى حالة وجدانية يفقد فيها إحساسه بجميع أحواله، ويفقد إحساسه بنفسه وينجذب بكلية إلى الله فيبقى في حالة نفسية خاصة، أو تدركه في النفس خاصة متعالية كونية Cosmic Transcendental Sense كما يسميها علم النفس الحديث يشعر معها السالك باستغراق روحي يشمل ويغمره وهو المعبر عنه بالفناء^(٢).

والآن، وبعد ما تبينا مع صوفينا كيف يترقى السالك في مقامات السلوك إلى الله؛ وما تقتضيه هذه المقامات من التخلص بقواعد أخلاقية يلتزم بها السالك مسقطا في ذلك تدبيره وإرادته، يمكننا أن نتقل إلى الأحوال التي ترد على السالك والتي هي هبة من الله لا دخل لإرادة السالك فيها.

(١) حياة الأرواح ونجاة الأشباح: د ٣٢ ظ.

(٢) عوارف المعارف: السرودي، ص ٣٦٠.

٣ - الأحوال:

تتداخل مع مقامات السلوك عند صوفينا أحوال عديدة، وبين المقامات والأحوال تشابه واشتباك، مما أدى إلى الخلط بينهما عند مشايخ الصوفية، فالشيء الواحد ترامي للبعض مقاما وتراءى للبعض الآخر حالا، ويقول الشُّهْرَوْرْدِي: (وكلا الرؤيتين صحيح لوجود تداخلهما)^(١).

فإذا كانت المقامات هي مراحل الطريق إلى الله، وهي ما يتحقق به السالك من أنماط السلوك، نتيجة المجاهدات المختلفة، تثبت لدى السالك وترسخ ويسمى علم النفس الحديث، بأنها حالات وجدانية خاصة وتجربة شخصية وهي مظهر لما يتحقق به السالك من التوافق النفسي والسعادة. فإن الأحوال الهامات ربانية للسالك وإدراك وجداني مباشر للحقائق والمعرفة اليقينية الكشفية التي يصعب والتعبير عنها بالألفاظ لأنها مشاعر وجدانية خاصة، وخبرة ذاتية Subjective لا يدرك كنهها إلا من يعيشها ويخوض التجربة، وفي تفجر كيان السالك في ومضات خاطفة مفاجئة يشعر خلالها بلذة روحية عارمة وسعادة زائدة وهي سريعة الزوال غير أنها عميقة الأثر في نفس المتحقق بها لأنها تستولى بنورها على كل جوارحه وتفيض عليه من النور الباطني الذاتي The Subjective Light. ما يستغرقه فيحدث له إشراقاً عقلياً يفقده إحساسه بذاته ويعيش مع حقيقة عليا مطلقة وهي الله سبحانه وتعالى.

(١) المرجع السابق: ص ٣٦٠.

١ - واردات الأحوال:

تتداخل مقامات السلوك - كما بينا - مع الأحوال، والسالك لا يصل إلى مرتبة الأحوال إلا بعد بلوغه مرتبة الكمال في التحقق بكل مقام يقيم فيه، وتتنوع الأحوال إلا بعد بلوغه مرتبة الكمال في التحقق بكل مقام يقيم فيه، وتتنوع الأحوال بنوع الواردات التي ترد على قلب السالك من المعرفة الوهية والأسرار الإلهية؛ فبعض الواردات توجب الأنس وبعضها يوجب القبض وبعضها يوجب البسط، وبعضها يوجب القرب، وبعضها يوجب اليقين.

وللأحوال وظيفة خلقية تظهر في ظروف الصوفي العملي فيتحقق بالكمال الأخلاقي فهي تقهر طغيان النفس ورعونتها، وتكون الواردات ثمرة مجاهدة النفس ورياضتها.

ويرى الشعراني أن الأحوال التي ترد على قلب السالك ليست كلها صحيحة فقد تكون صحيحة وقد تكون فاسدة، وللكي يتحقق السالك من صحتها كما يقول الشعراني: (عليه بالعلم والمعرفة والتمسك بالعلامات والعواض والآثار التي تبقى بعدها^(١)). أما ما يعنيه بالعلم والمعرفة، هو علم السالك بقواعد الشرع فإذا كان الوارد الذي يرد على قلبه مطابقاً للشرع كان صحيحاً والعكس بالعكس.

أما العلامات والعواض التي تبقى بعد الوارد، فهي أن ينظر السالك إلى الواردات والأنوار والهواتف، فإذا أته من الجانب الأيسر فإنها تكون باطلة.

وعند صوفينا أن العواض التي يصحبها الروح والطمأنينة واجتماع الهمة فهي حقة والواردات التي يصحبها القلق والاضطراب والوحشة والفرقة في الباطن والكرب والوسوس فهي باطلة.

أما بالنسبة لآثار الأحوال فإن كل وارد بقي بعد انفصاله معرفة بالله وتجدد بعده يقين فهو إلهي، وكل خاطر تصحبه سلطنة وغلبة لا ينتفي بالنفي، وكثرة الذكر ويزداد قوة ولم يكن للنفس حظ منه فهو نفساني.

(١) حياة الأرواح ونجاة الأشباح: ل ٣٦ و.

وخير ميزان - كما يقول الشعراني لمعرفة صدق الواردات التي ترد على قلب السالك هو ميزان الشريعة المطهرة فما كان موافقا لها فهو من الله وما كان مخالفا لها فلا^(١).

وإذا تحقق السالك من صدق حاله وصدق الواردات التي وردت على قلبه فعليه ألا يغتر بذلك ولا يتظاهر بها أمام الناس، فالسالك الذي يلتزم بآداب السلوك يجب ألا يطلع الآخرين على كمالاته وخاصة من يتبركون به منهم.

ويقول الشعراني: (إن لم يكن المريد غير ملاحظ للحق، وأن يكون الحق تعالى باعثا على أعماله لا يجيء منه شيء، وكل مريد أحب الظهور بأن يطلع الناس على كمالاته فهو مقطوع به، لا سيما أن صار الناس يتبركون به، فإنه يهلك بالكلية)^(٢).

فإذا التزم السالك بآداب الواردات، صحت له ثمرتها من الأحوال العديدة التي ترد عليه من عند الله كما سنتبين ذلك عند الشعراني.

(١) حياة الأرواح ونجاة الأشباح: ل ٢٧ و.

(٢) الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية: ص ٦٤.

٢ - حال القرب:

حينما يقبل السالك بأنواع الطاعات والعبادات والمجاهدات والرياضات الخلقية والأعمال الصالحة فإنه يشعر بقربه منه عز وجل، وهو حال يورده الله على قلب السالك.

ولكي يتحقق السالك بقربه من حضرة ربه لا بد وأن يرى الأشياء كلها لله، ليس له منها نسبة التكليف، فيزداد بالسلب تمكيناً، ولا يرى له مع الله ملكاً، ويقول الشعراني: (إن شدة قرب العبد من حضرة ربه عز وجل إنما تكون برؤيته الأشياء كلها لله تعالى، ليس للعبد منها سوى نسبة التكليف)^(١).

ومن أخص خصائص القرب عند صوفينا، أن يقيم السالك المتحقق بهذا الحال الحق تعالى في قلبه، وليس المقصود بإقامة الحق في قلب العبد ما يمكن أن يفهم من معنى الاحتواء أو التحيز والجهة، فالحق تعالى لا يتسع له مكان ولا يحويه ويحده حد، وإنما المقصود أن يشهد السالك ربه بنور الإيمان والسر الأيقان الذي يتجلى على قلبه، إذ يقول الشعراني: (والحق تعالى لم يزل في قلب العبد مقيماً يشهده بنور الإيمان وسر الأيقان)^(٢).

والشعراني في قوله هذا يستند إلى الحديث القدسي: (لم تسعني السموات والأرض ووسعني قلب عهدي المؤمن).

وأعلى مراتب القرب - كما يذهب الشعراني - هي ما حظى بها سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، فكان قاب قوسين أو أدنى، وإن كان لم يقع له الاتصال، لأنه محال في الحياة الدنيا.

وحال القرب عند الشعراني مقترن بمقام التوكل وإسقاط الإرادة والتدبير فكلما كان السالك متحقق بمقام التوكل زاده قربه من الله.

(١) لطائف المنن والأخلاق: ج ٢، ص ٧٤.

(٢) كشف الحجاب والران: ص ٤٢.

٣ - حال اليقين:

اليقين عند الشعراني حال من الأحوال التي ترد على قلب السالك، من لدن الله فيقذف الحق سبحانه وتعالى بنور اليقين في قلب عبده المتحقق بهذا الحال.

وحال اليقين عند صوفينا أساسه نور العلم الذي يفيضه الله على قلب المستقيم من عباده والمتحققين بحال اليقين فيستقر في قلوبهم من غير تردد ولا شك، ولا وهم ولا ظن، بل طمأنينة كاملة وتؤكد ويقين ويرسخ في القلب، ويصير أصحابه يستخرجون الأحكام من الكتاب والسنة.

ويقول الشعراني في اليقين: (فإن قيل اليقين مأخوذ من ماذا؟ فالجواب هو يقين الماء في الماء إذا استقر، وهو إشارة إلى سكون العلم في القلب واستقراره فيه، واطمئنان القلب به، من غير تردد ولا شك)^(١).

ويذهب الشعراني إلى أن المعرفة والعلم الذي يسكن في قلب المتحقق بحال اليقين ويستقر فيه، إذا أضيف إلى العقل والنفس يقال له: (علم اليقين)، وإذا أضيف إلى الروح يقال له: (عين اليقين)، وإذا أضيف إلى القلب يقال له: (حق اليقين)، (وإذا أضيف إلى السر الوجودي يقال له: (حقيقة حق اليقين)).

وتلك الحقائق عند صوفينا لا تجتمع إلا عند الكُمَّل من الرجال^(٢).

وإذا أنعم الله على عبده السالك بالتحقق بحال اليقين فلا يصح سلبه بعد ذلك، فإذا وهب الله المعرفة الذوقية لعبده فإنه لا يسلبها منه، وإنما قد تسلب الأحوال أما المعرفة اليقينية بالله إذا تحقق بها السالك فإنه لا يسلبها أبداً ويقول الشعراني: (لا يصح سلب اليقين لأنه مشتق من يقين الماء في الحوض إذا استقر، ولذلك قال أئمتنا رضي الله عنهم أن المعرفة بالله إذا حصلت ليمح أن يسلبها بعد ذلك، وقولهم: فلان سلب، إنما يراد به سلب الأحوال)^(٣).

(١) الأجوبة المرضية عن أئمة الفقهاء والصوفية: ل ٦٨ ظ.

(٢) الأنوار في محبة الأخيار: ص ٨٦.

(٣) المرجع السابق: ص ٨٦.

٤ - الفناء والبقاء:

يعني الفناء عند صوفينا حالة من الوجد تحدث للسالك المتحقق بالفناء يفقد أثناءها شعوره بكل جوارحه وكل ما حوله من الأكوان.

ويشمل معنى الفناء عند الشعراني، الفناء عما في أيديهم، أي عدم النظر إلى ما يملكونه من جاه أو سلطان، فلا يتطلع السالك إلى ما عنده من الرزق ولأن ينشد عند ذوي السلطان منهم أن يمن عليه بمنصب أو وظيفة، فإن هذا في نظر الشعراني يعني عدم فناء السالك عن أغيار^(١).

كما يفنى السالك عن نفسه، فإذا شاهد شيئاً من الأكوان أو الأغيار في نفسه أو في قلبه فهو لم يدخل حضرة الحق ويقول الشعراني: (تحصل له - أي السالك - غيبة عن الأكوان كلها)^(٢)، ويبقى بمعرفة ربه.

والشعراني في ذلك يتفق مع غيره من الصوفية السابقين كابن عطاء الله السكندري وغيره من القائلين بأن الفناء حالة وجدانية، لا يشعر فيها السالك بشيء من جوارحه الظاهرة ولا الأشياء الخارجة عنه ولا العوارض الباطنة فيه^(٣).

ويختلف في ذلك مع الشَّهْرَوَزْدِي الذي يقول عن السالك المتحقق بالفناء (ليس من ضرورة الفناء أن يغيب إحساسهم، وقد يتفق غيبة الإحساس لبعض الأشخاص، وليس ذلك من ضرورة الفناء على الإطلاق)^(٤).

والسالك عند صوفينا يصل إلى حالة الفناء عن طريق الذكر، فيظل السالك يردد (لا إله إلا الله) حتى يفنى عن نفسه ثم يردد (الله... الله... الله)، حتى يفنى في الله، فإذا ما وصل إلى الحضرة الإلهية، سكت ولم ينطق ببنت شفة، وتحدث له غيبة عن الأكوان جميعاً.

(١) لطائف المنن والأخلاق: ج ١، ص ٧٠.

(٢) الأنوار في صحبة الأخيار: ص ٨٦.

(٣) انظر: ابن عطاء الله السكندري وتصوفه: د. التفتازاني، ص ٢٥٨.

(٤) عوارف المعارف: السرودي، ص ٣٦٣.

ويقول الشعراني في ذلك المشهد: (إذا افتتح مجلس الذكر - أي السالك - لا يسكت حتى تحدث له الغيبة عن الأكوان كلها، فإن الذكر إنما شرع للحضور مع الحق)^(١).

ويفرق الشعراني بين معنى الاتحاد أو الفناء عند الصوفية وبين معناه عند أهل الإلحاد فيقول: (المراد بالاتحاد على لسان القوم فناء مراد العبد في مراد الحق فلا يصير للعبد مرادا مع الله أبدا إلا بحكم التبعية، أما عند أهل الإلحاد فهو زعمهم أن ذاتهم صارت ذات الله، وهذا كفر عظيم وعباد الأوثان أخف حالا من هؤلاء...، وإذا كان سيد المرسلين لم يقع له هذا الاتحاد في أعلى مراتب قربة ليلة الإسراء، وإنما كان من حضرة الحق الخاصة كقلب قوسين أو أدنى).

فلم تتصل دائرة خلقه بدائرة حقه، فكيف يدعي هذا الاتحاد شخص مطرود في حضرة إبليس)^(٢). فإن كمل الأولياء - كما يذهب إلى ذلك الشعراني - بحكم الإرث لرسول الله صلى الله عليه وسلم، لم يصلوا إلا إلى علم قاب قوسين مع تباين مشهدهم لمشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأن شهد ذلك يعين رأسه، والأولياء يشهدون ذلك بعين قلوبهم، ويقول: (ولا أحد من المقربين والسالكين يشهد في الحق عين ما شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم)^(٣).

أما حال البقاء بعد الفناء فهو مراتب أهل النهاية عند الشعراني، وأرفعها وهو آخر مراحل اذكر، ويقول صوفينا من البقاء (أن مرتبة البقاء بعد الفناء هو أن يذكر بإيجاد إياك لوجوده، فتكون موجودا بالحق)^(٤).

(١) كشف الحجاب والران: ص ٨.

(٢) المرجع السابق: ص ٨.

(٣) الأنوار في صحبة الأخيار: ص ٦٨.

(٤) كشف الحجاب والران: ص ٨.

ويفضل الشعراني أن يقف العبد بين يدي الله في مقام البقاء عن أن يفنى عن نفسه، فإن الله قد أبقي عبده في مقام البقاء ليفيض عليه من رحمته ونعمته ويشعر العبد بذلك ويعيه فيحمد الله على نعمه ويقول: (ولا هكذا مقام الفناء فإنه أشبه شيء بالعدم) ^(١).

ويتفق الشعراني في القول بأن وقوف السالك في مقام البقاء أفضل في وقوفه من مقام الفناء مع ابن عطاء الله السكندري، إذ يقول: (الفناء يوجب عزهم - أي الصوفية - والبقاء يوجب نصرهم، والفناء يوجب غيبتهم عن كل شيء، والبقاء يحضرهم مع الله في كل شيء. فلا ينقطعون عنه في شيء، الفناء يميتهم والبقاء يحييهم) ^(٢).

ويرجع تفضيل الشعراني البقاء على الفناء إلى أن الله تعالى قد يهب السالك المواهب ويفيض عليه الفيوضات في أثناء فناءه فلا يدري بها، هذا على عكس مقام البقاء، فإن السالك المتحقق به يستقبل كل ما وهبه الله من المعرفة الذوقية الكشفية. ولذا فإن الشعراني يخاطب السالك قائلاً: (لا تطلب الفناء، فإن الحق تعالى ربما أرسل إليك التحف مع ملائكته لتقبلها، فيجذك فانيا عنها فتفوتك المواهب) ^(٣).

ويتفق الشعراني وابن عطاء الله السكندري في القول: (بأن السالك لا إرادة له، وإنما هو في كلا الحالين الفناء والبقاء مسير بإرادة الله، لا دخل لتدبيره وإرادته إذ يقول الشعراني (وليس لاختبار العبد إذا بقى لغير ما أبرزه الله في الوجود اعتراض) ^(٤).

أما ابن عطاء الله فيقول: (إذا شاء الله أبقيه - أي السالك - في بحر الفناء غريقاً وإن شاء أرجعه إلى ساحل البقاء تحقيقاً وتحقيقاً) ^(٥).

ومما لا شك أن السالك إذا صفت من الكدر نفسه بالمجاهدات البدنية والرياضات الروحية وتحقق للمقامات والأحوال فإنه يصل إلى الكمال الخلقي، وعند

(١) المرجع السابق: ص ٤٣.

(٢) ابن عطاء الله السكندري وتصوفه: التفتازاني، الطبعة الثانية، ص ٤٥.

(٣) كشف الحجاب والران: ص ٤٣.

(٤) المرجع السابق: ص ٤٣.

(٥) ابن عطاء الله السكندري وتصوفه: التفتازاني، الطبعة الثانية، ص ٤٥.

ذلك يشعر بسعادة وطمأنينة لا يمكن وصفها، وهذا أمر طبيعي، فإن الصوفي الكامل الذي خاض التجربة الصوفية وعاشها وعانى في سبيل تحرير نفسه من الشهوات والأهواء، وتحقق بآداب السلوك، فلا بد أن يشعر بتوافق نفسي عجيب وسعادة كبرى لا تدانيها سعادة، ويصل إلى المعرفة معرفة ذوقية وهذا ما سنعرض له في الفصل التالي.

الفصل الرابع المعرفة

- ١- تمهيد.
- ٢- حد المعرفة وموضوعها.
- ٣- فطرية المعرفة بالله.
- ٤- وسائل المعرفة.
- ٥- مناهج المعرفة.
- ٦- السالكون والمجذوبون.

المعرفة:

١ - تمهيد:

تعرضنا فيما سبق للمقامات والأحوال الصوفية التي يتحقق بها السالك في طريقه إلى الحضرة الإلهية، فإذا ما وصل السالك إلى تلك الحضرة فإنه يتحقق بمقام المعرفة لله معرفة ذوقية كشفية.

ومعرفة حقيقة الله سبحانه وتعالى والوقوف على كنه ذاته أمراً لا ييسر لبشر مهما بلغ من الترقى في مقامات الصوفية، وإنما المقصود بمعرفة الله معرفة صفاته وأفعال وآثاره وكل ما يتصل به تعالى على قدر الوسع الإنساني.

٢ - حد المعرفة وموضوعها:

حد الشعراني المعرفة وبين موضوعها عند في قوله: (اعلم أن المعرفة عند أئمة الأصول هي العلم بالله تعالى وصفاته، الذاتية والمعنوية، فهذا هو المطلوب من معرفة الصانع جل وعلا، إذ الذات مجهولة من حيث الإحالة بها)^(١). فموضوع المعرفة عند الشعراني وعند غيره من الصوفية هو العلم بالله وصفاته وأفعاله وجميع ما يتعلق به تعالى.

٣ - فطرية المعرفة بالله:

يذهب الشعراني إلى أن المعرفة بالله مفطورة في نفس الإنسان قبل أن تحل بالبدن، ذلك أن صوفينا يؤمن بأن النفس الإنسانية كانت موجودة قبل حلولها في جسم الإنسان، في عالم آخر غير عالمنا هذا وهو عالم الذر أو عالم الأمر، فأطلعها على وحدانية فشهدت له بالوحدانية وتحققت بمعرفة ذاته وصفاته، وعندما حلت بالبدن نسيت هذه المعرفة التي فطرها الله عليها، وحال البدن تذكرها لها، فكان لها بمثابة كتاب حجب عنها نور الفكرة، فأصبحت جاهلة بالله^(٢). ومن هنا نزع الإنسان إلى البراهين العقلية

(١) اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر، ج ١، ص ٣٨.

(٢) جامع الفضائل وقامع الرذائل: ل ١٧٩ ظ.

والحجب المنطقية ليستعين بها ويستدل منها على معرفة الله، غير أنها جميعا في نظر الشعراني توصل صاحبها إلى الاهتداء والتسليم بضرورة وجود صانع لهذا الكون ومنظما له، إلا أنها غير كافية ليصل المرء إلى حقائق ثابتة يقينية يؤمن بها إيمانا كاملا عن عقيدة راسخة.

ويرى الشعراني أن جميع ما علمه الإنسان قديما، أو هو في عالم الأمر وحديثا أي وهو في عالم الخلق لا يتعدى علم الفطرة، حتى أن علم الكشف والمشاهدة والبديهيات العقلية عنده لا تخرج جميعها عن المعرفة الفطرية إذ يقول: (أن جميع ما علمه الإنسان قديما وحديثا، لا يتعدى علم الفطرة، حتى علم الإلهام والكشف وضروريات العقول)^(١).

ويستند صوفينا في قوله بفطرية المعرفة على قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ (١٧٢) ^(٢).

فإن هذه الآية الكريمة توضح أن النفوس كانت لها وجود سابق في عالم غير عالمنا هذا وقد أطلعها الله على ذاته وصفاته وأشهدها على وجوده ووحدانيته، فعرفت النفوس خالقها وفاطرها معرفة فطرية، فإن غفلت عن تلك المعرفة فإن الله يذكرها بما كانت عنه غافلة يوم القيامة.

وقد سبق صوفينا إلى القول بفطرية ليس المعرفة كثيرون من الصوفية، فالغزالي الذي ذهب إلى أن السالك إذا عهد إلى قلبه بتطهيره، ورفع عنه الحجب تنفجر من داخله ينابيع العلم بلا اكتساب لوجود المعرفة فيه بالفطرة^(٣).

(١) الجواهر والدرر: ل ١١ و.

(٢) سورة الأعراف: الآية ١٧٢.

(٣) انظر: إحياء علوم الدين، للغزالي، ج ٣، ص ١٧ - ١٨.

وكابن عطاء الله السكندري في قوله: (أَشْهَدُكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَسْتَشْهَدَكَ ، فَطَقْتُ بِإِلَهِيَّتِهِ الظَّوَاهِرُ ، وَتَحَقَّقْتُ بِأَحَدِيَّتِهِ الْقُلُوبُ وَالسَّرَائِرُ)^(١) وغيرهم من أعلام الصوفية القائلين بفطرية المعرفة.

ويذهب الشعراني إلى أن الله قد أعطى كل إنسان قدرًا من المعرفة والعلم به تعالى حسب استعداده، فلا يكلف الله نفسًا إلا وسعها، فاختلاف درجات المعرفة بالله من شخص إلى آخر يرجع إلى اختلاف الأفراد وهو ما يسمى في علم النفس الحديث بالفروق الفردية.

فقد ستر الله المعرفة به تعالى عن قوم، وحجبها عنهم تمامًا، وأعطى البعض من المعرفة والعلم به بقدر محدود، وأعطى الخاصة وخاصة الخاصة معرفة بالله لا يقدر مداها إلا هو سبحانه وتعالى مما لا يخطر على قلب بشر، ثم هناك من المعرفة بالله ما لا يطيق بشر احتماله، فهذه حجبها الله عن جميع عباده حتى الأنبياء منهم والمرسلين ويقول الشعراني: (ثم لا يخفى أن الله تبارك وتعالى ما أعطى أحدًا من العلم إلا بقدر ما يقبله استعداده، كثرة وقلة، وما لم يطيق الخلق جملة، لم يعطهم الله)^(٢).

كما يذهب الشعراني أيضًا إلى أن المعرفة بالله لا تستوي عند جميع الواصلين من الصوفية بل أن لكل معرفة خاصة به لا يشاركه فيها غيره حتى أن الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام لكل واحد منهم سرًا مع الله لا يطلع عليه أحد غيره^(٣).

ويشبه ما ذهب إليه الشعراني في هذا الصدد ما نجده عند ابن عطاء الله السكندري من أن كل موجود في الوجود يعرف الله بما أودعه في ذاته من المعرفة به تعالى بحسب وسعه الخاص^(٤).

(١) ابن عطاء الله السكندري وتصوفه: التفتازاني، الطبعة الأولى، ص ٢٣٠.

(٢) إرشاد الطالبين إلى مراتب العلماء العاملين: ل ٣ و.

(٣) لطائف المنن والأخلاق: ج ١، ص ٣٥.

(٤) ابن عطاء الله السكندري وتصوفه: التفتازاني، الطبعة الأولى، ص ٢٦٩.

٤ - وسائل المعرفة:

إن معرفة الله عند الشعراني أمر بعيد المنال ويصعب الوصول إليه بوسائل المعرفة المختلفة كالحواس والعقل، فحواس الإنسان قاصرة عن معرفة الله معرفة يقينية ثابتة وعقل الإنسان عاجز عن تصور الحق سبحانه وتعالى ومعرفته، فإنه أمر تحير فيه الأذهان ويتشتت فيه الخيال.

وإذا كان الأمر كذلك، فإن الصوفي الكامل في نظر الشعراني من عظمت في الله خبرته ولم يصل إلى أمر يضبطه في نفسه، فهو تعالى منزّه عن الأشكال وحدود الحس والتصور والخيال، إذ يقول: (فالكامل في المعرفة من عظمت في الله حيرته، ودامت حسرته ولم ينل منه مراده، ولم يتحصل على أمر يضبطه في نفسه، فاعلم ذلك يا أخي واترك ربك عن الخيالات والأشكال حال مراقبتك)^(١).

والإنسان عند الشعراني عاجز عن معرفة نفسه وكنه ذاته، فكيف يتسنى له أن يعرف كنه ذات الله، فكيف للعاجز أن يعرف القادر، وهو يصور هذا القصور من جانب الإنسان عن معرفة ماهية الله بأنه تعالى خلق الإنسان غير قادر على معرفة نفسه وبالتالي فإنه يعجز عن معرفة حقيقة الحقائق، وقد استند الشعراني فيما ذهب إليه إلى قول الرسول عليه الصلاة والسلام، من عرف نفسه عرف ربه، ويقول الشعراني: (لعله سبحانه وتعالى أحالنا في معرفته على معرفة نفوسنا لعلمه أن لا ندرك ولا نعلم حقيقة نفوسنا ونعجز عن معرفتنا بنا، فنعلم أنا به أعجز)^(٢).

وقد استطعنا أن نتبين من وسائل المعرفة عند الشعراني العقل والقلب:

١- العقل كوسيلة للمعرفة، يذهب الشعراني إلى أن العقل الصحيح لا يخالف النص الصريح^(٣) فمن صح عقله عرف ربه، ويقصد الشعراني بالعقل الصحيح العقل المؤيد بالذوق والشهود، أما العقل المجرد فإنه عنده لا يصل إلا إلى مجرد إثبات وجود

(١) القواعد الكشفية الموضحة لمعاني الصفات الإلهية: نسخة خطية ملك الباحثة، ل ٢٢ ظ.

(٢) الأنوار القدسية في معرفة آداب العبودية: بهامش الطبقات الكبرى، الشعراني، ج ٢، ص ١٠٢.

(٣) نصيحة الإخوان: ل ٢٢ ظ.

الله وجودًا مطلقًا منزهاً عن صفات المحدثات، وهو ما يطلق عليه الفلاسفة والمتكلمون علة العلل والمبدأ الأول، أو المحرك الأول وغيرها من تلك الأسماء.

٢- وهذه المعرفة بالله هي التي يصل إليها الفلاسفة هي مبدأ ميتافيزيقي بعيداً في مفهومه عن المعرفة الكشفية، التي تحصل معاني الذوق الصوفي والحب والمناجاة والوجد والإشراق والوهم. ومعرفة الله بهذه المعاني لدي الصوفية تختلف عما هو لدي الفلاسفة.

والمعرفة بالله عند الشعراني ليست وليدة العقل، غير أنه يذهب إلى أن العقل يستطيع أن يستدل من آثار الله على وجوده، ويمكن أن يدرك أن العالم كله مفتقر إلى وجود صانع، مدبر وحافظ لكمية الحركة، وعقل الإنسان باحث وناظر يبحث دائماً في الدلالات والبراهين لكي يقنع بوجود الشيء أو يصل إلى إثبات هذا الوجود، ومعرفة حقيقته وهو في بحثه عن حقيقة الأشياء يعتمد على الدلالات الحتمية والاستدلالات العقلية والله سبحانه وتعالى لا يمكن إدراكه بالحس ولا بالتجربة ولا بالضرورات المنطقية. فإن هذه الوسائل توصل الإنسان إلى إثبات وجود الله، ولكنها لا تعرف به، فهي قاصرة عن أن نعرفنا بالله معرفة يقينية، ولا تبلغ إلى درجة المعرفة الذوقية الكشفية، ويقول الشعراني: (العقل باحث وناظر، لأن برهان العقل الذي يستند إليه و الحس أو الضرورة أو التجربة، والحق تعالى غير مدرك بهذه الأصول الثلاثة، وإن ما يدرك بها أن الحق تعالى موجود، وإن العالم كله مفتقر إليه افتقاراً لا محيص له عنه)^(١).

ويمكن أن ننتهي من ذلك إلى أن الشعراني قال بالعقل كوسيلة من وسائل معرفة الله، ولكن المعرفة التي يصل إليها العقل لا تبلغ شدة يقينها المعرفة بالله عن طريق القلب، كما أن العقل لا يوصلنا إلا إلى إثبات وجود الله بالاستدلال من آثاره على وجوده، ولذلك فضل الشعراني المعرفة القلبية على المعرفة العقلية، ولا يعني الشعراني بالعقل هنا العقل المجرد وإنما يعني به العقل المؤيد بالإيمان.

(١) القواعد الكشفية الموضحة لمعاني الصفات الإلهية: ل ٢٢ ظ.

وقد اتفق الشعراني في القول بالعقل كوسيلة من وسائل المعرفة بالله مع الإمام الغزالي الذي يحدثنا عن غريزة في الإنسان هي النور الإلهي أو العقل الذي يشعر بلذة معرفة الله فيقول: (غريزة تسمى النور الإلهي لقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾^(١)).

ولنسم تلك الغريزة عقلاً بشرط ألا يفهم من لفظ عقل ما يدرك به طريق المجادلة والمناظرة، وقد اشتهر اسم العقل بهذا، ولهذا ذمه بعض الصوفية، وإلا فالصفة التي فارق الإنسان بها البهائم، وبها يدرك معرفة الله، أعز الصفات، فلا ينبغي أن تدم، ولهذه الغريزة خلقت ليعلم بها حقائق الأمور كلها فمقتضى طبعها المعرفة والعلم^(٢).

والشعراني بذلك يخالف محيي الدين بن عربي الذي يرى أن جمع ما انتجه العقل من فكرة بتركيب مقدمات في معرفة الله تعالى مولود، وقد نفى الحق تعالى عن نفسه كونه يولد، فأين إيمان هذا العاقل وقد ولد الحق بعقله^(٣). وقال أيضاً في نفس الموضع: (إنما نفى الحق تعالى كونه لم يولد ليشمل ما ولدته العقول في حقه تعالى من المعارف)^(٤).

(١) سورة الزمر: الآية ٢٢.

(٢) إحياء علوم الدين، للغزالي، ج ٤، ص ٢١٩.

(٣) اليواقيت والجواهر: الشعراني، ج ١، ص ٥٠.

(٤) المرجع السابق: ص ٥٠.

القلب وسيلة الصوفي لمعرفة الله^(١):

يفضل الشعراني القلب كأداة المعرفة على العقل فإن آمن الإنسان بما جاء في كتاب الله عن الذات الإلهية والأسماء والصفات وعرف ربه من هذا الطريق كانت معرفته أولى وأفضل من حصول المعرفة بالله تعالى اعتماداً على البراهين العقلية، لأن إخبار الله تعالى عن نفسه أحق بأن يتبع ويقول الشعراني في ذلك: (جاءنا الشرع بأنه تعالى موصوف بكذا، بكذا، فقبلناه يقيناً وعلمنا معناه، فقد أضاف تعالى المعاني إلى نفسه وذاته،... ويجب الإيمان على كل إنسان خوطب أو كلف به من عند الله. وهذا كله خارج عن الدلالات العقلية، إلا أن يتأوله (أي العقل) فحيثئذ يقبله العقل، وقبوله الإيمان أولى، لأن حكم به الحق على نفسه)^(٢).

وقلب السالك أداة لمعرفة الله عند صوفينا، وقد قال تعالى في ذلك: ﴿مَا كَذَّبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾^(٣).

ويرى الشعراني أن السالك طريق الحق إذا صفى قلبه من كول شوب وتطهرت نفسه من كل شهوة وهوى، واتجه مخلصاً لله وتحقق بالمقامات والأحوال الصوفية فلن يبق في قلبه إلا الله وحده فيستبر قلبه بنور الإيمان والإيقان، وتنكشف له المعرفة اللدنية.

وقد جاء في الحديث القدسي (لا سعي عرشي ولا كرسي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي المؤمن). بمعنى أن قلب المؤمن وسع معرفة الله المعرفة اللائقة بالعبد كما

(١) يعرف د. قاسم فني، في كتابه: (تاريخ التصوف الإسلامي) ص ٥٨٥، القلب بمعنيين الأول: القلب هو العضو الصنوبري الشكل الهام الواقع في الجباب الأيسر من الصدر، والثاني القلب بمعناه عند الصوفية، وهو اللطيفة الروحانية، وهو عبارة عن حقيقة الإنسان وهذا القلب هو الذي يكون عالماً ومدركاً وعارفاً من الإنسان وهو المخاطب والمعاقب والمعاتب والمطالب.

(٢) الأنوار القدسية في معرفة آداب العبودية: بهامش الطبقات الكبرى، للشعراني، ج ١، ص ٦٢.

(٣) سورة النجم: الآية ١١.

يقول صوفينا وليست المعرفة اللائقة بالله تعالى، فإنه عز وجل لا يتحيز في قلب المؤمن وإنما يعرفه العبد بقلبه على قدر استطاعته وعلى قدر طاقته^(١).

ووسيلة السالك لكي يتحقق بمعرفة الله معرفة قلبية هي سلوكه طريق التصوف وما يترتب على ذلك من مجاهدة النفس ورياضتها واصطناع الوسائل العملية وتصحيح مقامات السلوك والتحقيق للأحوال حتى يصير قلب السالك خالي الوفاض عما سوى الله، متطهراً من كل دنس وشوق، تائها من كل ذنب خاليا من كل لذة، جاهداً غير متطلعا إلى شيء من مباحج الدنيا متجها بكليته إلى الله، ففي هذه الحالة يتحقق السالك معرفة الله معرفة ذوقية خالصة، ويقول الشعرا: (لو اشتغل العبد بالذكر والمراقبة والإعراض عما سوى الله، لانصب على قلبه أنهار العلوم اللدنية التي لو عاش ألف ألف سنة في تدريس الاصطلاحات وتصنيفها لا يشم منها رائحة)^(٢).

ويمكن أن نستشف من النص السابق للشعرا أنه يذهب إلى أن الوصول إلى المعرفة بالله لا يكون بقراءة الكتب ولا بتعلم العلم فقط، إنما يكون بالعمل بهذا العمل حتى تنكشف غشاوة القلب وتنقدح فيه أنوار المعرفة. والشعرا في ذلك يتفق مع الغزالي في قوله بأن العلم الظاهر يعوق العلم اللدني والمعارف الإلهية^(٣).

وقد جاء في القرآن الكريم أن القلب محل الإيمان الصحيح، وقد استند صوفينا على الآيات الكريمة التي تؤيد ما ذهب إليه من اتخاذ القلب كوسيلة للمعرفة اليقينية بالله مثل قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾^(٤). وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾^(٥)، والقلب لا يصبح محلا للمعرفة الذوقية إلا إذا صفت صفحته وانجلت غشاوته وترفع عن حجب الشهوة والهوى.

(١) كشف الحجاب والران: ص ٤٨.

(٢) جامع الفضائل وقامع الرذائل: ل ١٤٨ ظ.

(٣) انظر: إحياء علوم الدين، للغزالي، ج ٣، ص ٢٢ وما بعدها.

(٤) سورة المجادلة: الآية ٢٢.

(٥) سورة البقرة: الآية ٨٨.

٥ - مناهج المعرفة:

بعد أن تبينا وسلتي المعرفة عند الشعراني وهما القلب والعقل، بقى أن نتبين معه منهج المعرفة في كل وسيلة من هاتين الوسيلتين:

فمنهج العقل من معرفة الله هو الاستدلال ومخلوقاته سبحانه وتعالى على معرفته، ويذهب الشعراني إلى أن عقل الإنسان يتدبر صنع الله في الكون، ويتفكر فيما يحتويه هذا العالم من موجودات كالإنسان والنبات والحيوان والبحار والأرض والسماء بما فيها من افلاك، وما وضعه فيها من نظام سيرها به وما بينها من علاقات وترابط واسبغ عليها من ألوان ومما أضاف إليها من جمال الشكل والمظهر، فإذا نظر العقل إلى هذا كله وتأملته فإنه يسلم بوجود صانع حكيم لهذا الكون ومنظم ينظمه ومحرك يحركه ويحفظ عليه بقائه.

وهذا المنهج للمعرفة بالله ليس من وضع الشعراني ولا غيره من الصوفية بل إنه موجود في كتاب الله العزيز وقد دعا إليه سبحانه وتعالى، فطلب من عباده أن يتفكروا في خلق السموات والأرض ويعملوا العقل فيما خلق الله من الكائنات المختلفة والظواهر الكونية العديدة، فينتهوا إلى ضرورة وجود الخالق، بارع وصانع حكيم، فينتهجون هذا المنهج الاستدلال لمعرفة الله. قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخْتِلَافِ أَلْبُلِّ وَالنَّهَارِ وَاللَّيْلِ فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَنْجَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا يَدْرِي لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (١٦٤). وقال تعالى: ﴿سَرُّهُمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ (٢).

(١) سورة البقرة: الآية ١٦٤.

(٢) سورة فصلت: الآية ٥٣.

ومنهج الاستدلال العقلي ينتقل فيه العقل من ملحوظة أخرى ومن إثبات قضية إلى إثبات قضية أخرى، فهو يتم على خطوات متتالية، أي أن يستدل العقل من مجموع ملاحظاته الجزئية في الكون على ضرورة وجود الله.

فصاحب منهج الاستدلال العقلي ينتقل من العلم بالمصنوعات إلى العلم بالصانع ومن معرفة الكائنات إلى معرفة مكوّنها، وهو المنهج الذي يتبعه المفكرون والفلاسفة والمتكلمون.

أما المنهج الذي يتبعه العقل للوصول إلى المعرفة بالله فهو منهج الشهود الذوقي وهنا لا يتدخل الفكر ولا يعمل العقل استدلالاته، وإنما هو منهج كشفي يدرك به الصوفي معرفة الله ذوقاً ومباشرة من لدنه تعالى. وقد الإخلاص الله الصوفية بهذا المنهج، فكان تعالى هو مصدر المعرفة وموضوعها.

وقول الشعراني في منهج الكشف والشهود: (إذ صار الحق تعالى هو معلمه - أي الصوفي - في قلبه بارتفاع الوسائط من الفكر والعقل، فيكون علم هذا بالحق مستفاضاً من الحق، بإخباره تعالى عن نفسه على يد ملك الإلهام، وتكون الرسالة منه وشرحها منه) ^(١).

ويستند الشعراني في منهج الشهود الذوقي على قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ ^(٢). وقوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ ^(٣). وقد جمع سبحانه وتعالى بين منهجي الشهود الذوقي والاستدلال العقلي في قوله تعالى: ﴿أَفَى اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ^(٤).

(١) كشف الحجاب والران: ص ٦٣.

(٢) سورة فصلت: الآية ٥٣.

(٣) سورة النجم: الآية ١١.

(٤) سورة إبراهيم: الآية ١٠.

والشعراني لا ينكر منهج الاستدلال العقلي ولكن يفضل عليه - كما هو الحال عند الصوفية عامة - منهج الشهود الذوقي، فالإنسان عنده مهما بلغ من العلم النظري والاستدلال العقلي لن يتسنى له أن يعرف الله حق المعرفة، إلا إذا أفاض الله عليه تلك المعرفة من عنده وأسكنها في قلبه، فتشرق عليه بأنواعها فتبدد ظلمات الجهل، في قلبه ويتحقق بمعرفة ربه وهي المعرفة الكشفية يخص بها الله المقربين من عباده الصالحين ومن اصطفاهم وجذبهم إليه.

ويذهب الشعراني في تفضيله المعرفة عن طيق المنهج الذوقي على المعرفة عن طريق الاستدلال العقلي إلى أن الله خلق الإنسان ومنحه العقل، فحاول معرفة ربه عن طريق البراهين والدلالات العقلية، ولكنها غير كافية للوصول إلى المعرفة الحقة اليقينية، والذوق هو خير طريق إلى ذلك، وعلى الإنسان أن يطرح منهج العقل جانبا، وينظر إلى الله بقلبه حتى يفيض عليه نور المعرفة الوهية، ويقول الشعراني: (وخلق الإنسان عجولا لأنه رأى لنفسه قوة فكرية، فتصرف بها في غير محلها، فتكلم في الله بحسب ما أعطاه نظره فاخطأ... فلا ينبغي له فقط بطريق دليل العقل، أما من أخذ العلم به من الله لا من دليل ونظر لا يعجز عن حصول العلم بالله، لأنه علم موجود)^(١).

والصوفية الذين يعتمدون على منهج الاستدلال العقلي للوصول إلى المعرفة بالله، يسموا بالسالكين، أما الصوفية الذين يعتمدون على منهج الشهود الذوقي فيسموا بالمجدويين. وستبين فيما يلي مع الشعراني الفرق بين السالك والمجدوب من أهل المعرفة بالله.

(١) الأنوار القدسية في معرفة آداب العبودية: بهامش الطبقات الكبرى، للشعراني، ج ٢، ص ١٠٢.

٦ - السالكون والمجذوبون:

يحدثنا الشعراني عن اثنين من الصوفية، قسم اجتباها الله تعالى إلى معرفته فكشف لهم عن كمال ذاته، ووهبهم من عندهم المعرفة الذوقية فتحققوا بمعرفة الله من غير كسب سابق ولا اجتهداء فعرفهم الله تعالى نفسه مباشرة منذ البداية. وبعد أن أذاقهم الله معرفة الذات الإلهية شاهدوا الصفات، ثم تعلقوا بالأسماء، وانتهوا إلى مشاهدة الآثار، وهؤلاء هم المجذوبون. يقول عنهم الشعراني: (قوم من الصوفية خصوا بالاجتباء المحض غير المحلل بكسب العبد، وهذا حال المحجوب المراد، ييأته الحق سبحانه وتعالى ويمنحه مواهبه من غير سابق كسب منه، يسبق كشفه اجتهداءه)^(١).

والشعراني فيما ذهب إليه في حديثه عن المجذوبين يستند إلى قوله تعالى: ﴿يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ﴾^(٢). ومن الواضح أن هؤلاء القوم من الصوفية الذين سمو بالمجذوبين لم يسلكوا الطريق الصوفي الذي يبدأ بمجاهدة النفس ورياضتها واصطناع الوسائل العلمية لذلك، كالعزلة والخلوة والذكر والسماع والسهر وغيرها، ولم يتحققوا بالمقامات والأحوال، ولم ينتقلوا من حضرة الأسماء إلى حضرة الصفات، ثم إلى حضرة الذات ثم تحققوا بمعرفة الله تعالى، وإنما هما بدأوا بمعرفة الله ثم انتهوا إلى آثاره فسبق كشفهم اجتهداءهم كما يقول الشعراني^(٣).

وهذه المعرفة الذوقية هبة من الله وفيض مباشر من لدنه تعالى، فهؤلاء يعتمدون على منهج الشهود الذوقي.

أما الفريق الثاني من الصوفية فهم السالكون طريق الحق بعد أن هداهم الله إلى السير في الطريق، للوصول إلى معرفته سبحانه وتعالى، وهؤلاء قد استدلوا بآثار الله على وجود أسمائه، ومن وجود أسمائه على وجود صفاته، ومن وجود صفاته على وجود ذاته، فوصلوا من التقييد إلى الإطلاق كما يقول الشعراني فتعلقوا بالحق أولاً ثم

(١) الأنوار في صحبة الأخيار: ص ١٣٤.

(٢) سورة الشورى: الآية ١٣.

(٣) الأنوار في صحبة الأخيار: ص ١٣٤.

وصلوا إلى معرفته لاستدلالهم عليه تعالى من آثاره، ثم وصلوا إلى المعرفة الذوقية الكشفية.

ويقول الشعراني عن السالكين وقد اسماهم بأهل الهداية: (أما أهل الهداية الذين شرط الحق فعلهم الإنابة فقال تعالى: ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ ﴿١٣﴾ الآية؛ فقد طولبوا بالاجتهاد. قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾^(١). يدرجهم الله في مدارج الكشف - بأنوار الرياضات والمجاهدات وسهر الدياجر^(٢).

والسالكين من الصوفية تكون معرفتهم بالله استدلالية، ويتنهون فيها إلى الكشف والشهود، فبداية المجذوب نهاية السالك، فالسالك يبدأ معرفة الله بالاستدلال العقلي من آثاره ثم ينتقل من إثبات صفاته إلى معرفة ذاته ومطالعة كمالها وجلالها، فينتقل من مقام إلى مقام وينتقل من إثبات قضية إلى إثبات قضية أخرى حتى يصل إلى نهاية المطاف فيتحقق بالمعرفة الإشرافية فيعرف الله بالذوق الوفي، معرفة يقينية وهيئة قائمة على منهج الكشف والشهود، ومن هنا يبدأ المجذوب الذي يجتبيه الله إلى نور المعرفة فيطلعه على معرفة الذات بعد أن تستنير بصيرته بمعرفة الله كشفا وشهودا، ثم بعد ذلك يعرف صفات الله ثم ينتقل إلى معرفة الأسماء وينتهي إلى الآثار التي بدأ منها السالك فنهاية السالك - كما سبق أن ذكرنا - هي بداية المجذوب.

وقد سبق الشعراني إلى أن القول بذلك الصوفي المصري ابن عطاء الله السكندري حيث يقول: (دل بوجود آثاره على وجود أسمائه وبوجود أسمائه على ثبوت أوصافه وبوجود أصفائه على وجود ذاته، إذ محال أن يقوم الوصف بنفسه، فأرباب الجذب يكشف لهم عن كمال ذاته ثم يردهم إلى شهود صفاته، ثم يرجعهم إلى التعلق بأسمائهم، ثم يردهم إلى شهود آثاره، والساكنون على عكس هذا، فنهاية السالكين بداية

(١) سورة العنكبوت: الآية ٦٩.

(٢) الأنوار في صحبة الأخيار: ص ١٣٤.

المجذوبين، وبداية السالكين نهاية المجذوبين، ولكن لا بمعنى واحد فربما التقيا في الطريق هذا في ترقيه وهذا في تدليه^(١).

وقد تناول من قبل الشُّهْرُورْدِي فكرة السالك والمجذوب فقال: (من أخذ في طريق المجاهدة من قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾^(٢). ومن قوله تعالى: ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾^(٣) أثبت كون الإنابة سببا للهداية في حق المحب، وفي حق المحبوب صرح بالاجتباء غير المعلل بالكسب قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ الآية.^(٤)

ويوضح أستاذنا الدكتور التفتازاني شهود المجذوب لله ويحلله تحليلًا طريفاً بقوله: (وليس شهود المجذوب لله من قبيل الحدث الحسي Intuition Sensible الذي يتناول الأمور المحسوسة الخارجية، وليس أيضاً من قبيل الحذف العقلي Intuition Rationnelle كإدراك العلاقة بين معنيين إدراكاً مباشراً بنظرة واحدة، أو سرعة الانتقال من مجهول إلى معلوم، وليس كذلك من قبيل الحديث العقلي الميتافيزيقي Intuition métaphysique الذي يتناول موضوعات غير معطاة في عالم الحس على نحو ما نجده عند ديكرت أو غيره من الفلاسفة المحدثين، وإنما شهود المجذوب لله إدراك لا يعتمد على الحس وأدواته، ولا على العقل وملكاته فهو إدراك وجداني مباشر من نوع خاص يتم في حالة من الغيبة عن الحس والفناء وليس من السهل وصفه وإخضاعه للدراسة العلمية التجريبية لما يتصف به من الذاتية)^(٥).

ونستطيع أن نقول أن الصوفي في حالة الكشف الذوقي يتلقى المعرفة من الله تعالى يكون قد هبأ نفسه لتلقي المعرفة عن الله باتجاهه بالكلية إليه تعالى فيستغرق بجميع

(١) انظر: ابن عطاء الله السكندري وتصوفه: التفتازاني، ص ٢٧٩.

(٢) سورة العنكبوت: الآية ٦٩.

(٣) سورة الشورى: الآية ١٣.

(٤) عوارف المعارف: السهرودي، ص ٣٥١.

(٥) ابن عطاء الله السكندري وتصوفه: التفتازاني، الطبعة الثانية، ص ٢٥٩.

مشاعره وخلجات نفسه في معبوده ومقصوده فيصل إلى حالة من الوجد يفقد فيها إحساسه بما حوله ويفقد إحساسه بنفسه وينجذب إلى الله ويبلغ عنده الجانب الروحي ذروة نشاء وتعترية حالة من الشفافية الروحية وهي حالة خاصة يصعب وصفها. وفي تلك الأثناء يفيض الله على قلبه المعرفة الوهية الإشرافية.

ومن ذلك يمكن أن نتبين بوضوح عند الشعراني أن هناك قوم اختصهم الله بعنايته فعرّفهم بذاته في بداية الأمر دون أن يكون لهم معاناة المجاهدة ومقاساة الترقّي في الأحوال والمقامات، وإنما هؤلاء قد أراد لهم معرفة ذاته فقربهم واجتباهم وإلى جانب هؤلاء سالكي الطريق إلى الله الذين يتحققوا بمعرفته تعالى بعد المجاهدة والرياضة والتحقق بالمقامات والأحوال الصوفية.

غير أن الشعراني يفضل السالك على المجذوب، فإن السالك طريق الصوفية الذي عانى من المجاهدة والرياضة في النفس وصحح مقامات سلوكه ثم إلى المعرفة بعد طول عناء أكمل في نظره من المجذوب الذي قطع المقامات كلها، غير أنه لم يطيل الإقامة فيها، فلم يتسن له معرفة عللها وقواطعها فيقول: (قد يكون السالك على يد العارين أكمل، أكمل من المجذوب، لأنه صاحب مقام، يقيم بكل مقام حتى يعرف علله وقواطعه، بخلاف المجذوب لأنه كالمخطوف من مصر - مثلاً - إلى مكة فهذا قد قطع المقامات كلها إلا أنه لم يتربص في المنازل حتى أحاط بها علماً)^(١).

ويتفق الشعراني مع ابن عطاء الله السكندري في القول بأن المجذوب طويت له الطريق، وإنه قطع المقامات ولم تطو عنه، إلا أنه لم يعان من متاعبها ولم يتربص في المنازل، وقول ابن عطاء في ذلك: (لا تظن أن المجذوب لا طريق له، بل له طريق طوتها عناية الله فسلّكها مسرعاً إلى الله عجلًا، وكثيراً ما تسمع عند مراجعات المتسبين للطريق أن السالك أتم من المجذوب، لأن السالك عرف الطريق وما توصل إليه

المجذوب ليس كذلك، وهذا إنباء منهم على أن المجذوب لا طريق له، وليس الأمر كما زعموا فإن المجذوب قد طويت له الطريق ولم تطو عنه^(١).

وقد اختلف صوفينا مع ابن عطاء الله السكندري ومن تبعه من الشاذلية في تفضيله للسالك على المجذوب، فالشعراني يقول عن المجذوب: (ومثل هذا لا يهتدي أن يرشد أحدا ولا صبر له على مداواة علله وأمراضه)^(٢)، بينما نجد ابن عطاء الله يقول عن المجذوب: (ومن طويت له الطريق لم تفته ولم تغب عنه وإنما فاته متاعها وطول أمدّها)^(٣).

فالشعراني يرى أن المجذوب قد قطع مقامات الطريق بسرعة ووصل إلى المعرفة دون عناء، وبذلك لم تتح له فرصة معرفة علل الطريق وقواطعه، وبذلك فإنه لا يهتدي أن يرشد أحدا ولا يكون له صبر على مداواة علل المريدين وأمراضهم، بينما شيخنا السكندري يرى عدم تفضيل السالك على المجذوب، فمن طويت له مقامات الطريق لم تفته ولم تغب عنه. ولهذا اختص ابن عطاء الله والشاذلية الذين اتقفوا أثره من بعده باصطناع الجذب حتى صار مذهبهم في المعرفة - كما يقول الدكتور التفتازاني - هو شهود الحق من أول قدم وبعبارة أخرى شهود الحق في بداية الطريق لا في نهايته^(٤).

بينما أن الشعراني يفضل اصطناع الرياضات والمجاهدات والتحقق بالمقامات والأحوال للوصول إلى المعرفة، فالمتحقق بالمعرفة في نهاية الطريق عنده أكمل ممن يتحقق بالمعرفة في بداية الطريق.

وقد اتفق الشعراني مع الغزالي في جعل المعرفة لله هي نهاية الطريق إلى الله، فقد عول كل منهما على أهمية المجاهدة ورياضة النفس والتحقق بالمقامات والأحوال حتى تنكشف مرآة القلب، ويتحقق الصوفي بالمعرفة الكشفية^(٥).

(١) ابن عطاء الله السكندري وتصوفه: التفتازاني، الطبعة الثانية، ص ٢٨٢.

(٢) كشف الحجاب والران: ص ٧٧.

(٣) ابن عطاء الله السكندري وتصوفه: التفتازاني، الطبعة الثانية، ص ٢٨٢.

(٤) ابن عطاء الله السكندري وتصوفه: التفتازاني، الطبعة الثانية، ص ٢٨٢.

(٥) انظر: إحياء علوم الدين، للغزالي، ج ٣، ص ٥٩ وما بعدها.

ويمكن أن ننتهي من تناولنا لمنهجي المعرفة عند الشعراني إلى أن الشعراني لا يقلل من قيمة المعرفة الاستدلالية العقلية، غير أنه في نفس الوقت لا يعتبر كافية للوصول إلى المعرفة بالله معرفة يقينية ثابتة، ويفضل عليها المعرفة الذوقية الكشفية اللدنية، وفي نفس الوقت فإنه يعتبر السالك الذي انتهج منهج الاستدلال العقلي ولم يكتف بما وصل إليه من معرفة طريق الاستدلال بل سلك الطريق إلى منتهاه وتحقق بعد ذلك بالمعرفة الشهودية الذوقية فإنه يعتبر أفضل من الصوفي المجذوب الذي تحقق مباشرة بالمعرفة الشهودية.

الفصل الخامس

الله والعالم والإنسان

- ١- الله والعالم.
- ٢- الصلة بين الله والعالم.
- ٣- الإنسان.
- ٤- العلاقة بين الله والإنسان

الله والعالم والإنسان

١ - الله والعالم:

إذا اكتمل السالك في طريق التصوف، ووصل إلى غايته، وتحقق بالمعرفة بالله، فإنه ينتهي من هذه المعرفة إلى الوصول إلى حقائق عن الله والعالم والإنسان. ويفر الوجود تفسيراً قائماً على الذوق الصوفي وليس على البراهين والاستدلالات العقلية.

وقد اهتم الشعراني بهذه الأصول الثلاثة: الله والعالم والإنسان. التي كانت موضع اهتمام المفكرين من الفلاسفة والمتكلمين والصوفية على مر العصور.

ويذهب الشعراني إلى أن حقيقة الله تعالى، غير معلومة لأحد في الدنيا وإن الإنسان عاجز تماماً عن معرفة كنه الذات الإلهية مهما بلغ من الترقى في مقام المعرفة، فإن معرفة الله معرفة إحاطة، أمر مستحيل لم يتحقق به الأنبياء والرسل.

وحقيقة الله تعالى عند صوفينا مخالفة لسائر الحقائق، وهذا ما لم يستطع المفكرون من المتكلمين والفلاسفة تقدير أبعاده، ولو أنهم شاهدوا أن صفات الله مغايرة تماماً لصفات المخلوقات، وأن حقيقته تعالى تختلف عن سائر الحقائق، لما اختلفوا في شيء من آيات الصفات، ويقول الشعراني: (ولو أنهم شاهدوا أن حقيقته تعالى مخالفة لسائر الحقائق، لم يقفوا في شيء من آيات الصفات وأخبارها)^(١).

ويرى الشعراني أن الواصل الذي صفت نفسه وتطهرت سريره وزال في الحجب عن قلبه يمكنه أن يدرك بالذوق والكشف اللدني عظمة الله وقدرته ورحمته، وقوته وجلاله وعزته، وسائر ما اطلق تعالى على نفسه من الأسماء والصفات، فيطلع الله على ما تحمله صفاته وأسماءه الحسنى من معان يدق فهمها على العوام فيصح الله بالنسبة له، هو المريد الوحيد، والفاعل الوحيد، وهو الذي يدبر الكون ويحفظه، وإنه لا يمكن لإنسان أن يضر غيره أو ينفعه إلا بإذن الله، فالله هو الذي بيده ملكوت كل شيء^(٢).

(١) اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر: ج ١، ص ٤٣.

(٢) القواعد الكشفية الموضحة لمعاني الصفات الإلهية: ل ٢٢ ظ.

وعلى ذلك فإن الصوفي الذي تحقق بمعرفة الله معرفة ذوقية لا يخشى بشراً ولا يسأل أحداً عن حاجة له، ولا يحابي ولا يرائي، فلا يخشى إلا الله ولا يسأل غيره. وهو تعالى قريب من عباده يعلم السر وأخفى يرزق من يشاء فعال لما يريد، خلق الكون وما فيه وهو في غنى عنه بإرادة قديمة لم تتجدد، ويقول الشعراني: (خلق الكل من غير حاجة إليه، ولا موجب أوجب ذلك عليه)^(١).

وينزه صوفينا الله عن أن يصل إليه مخلوق الوصول بالمعنى المعروف بين الذوات، فالوصول الذي يتحدث عنه الشعراني والوصول إلى المعرفة بالله وليس وصولاً إلى ذات الله فلا يمكن لبشر أن يصل إلى ذات العلية.

ويذهب الشعراني إلى أن سالكين الطريق إلى الله تعالى يتأوهون ويشكون البعاد ذلك لجهلهم، لأن السالك الكامل ينزه الله عن ذلك الصياح، وتلك الشكوى فإن الله تعالى أنزه عن أن يدنس بعيون البشر بأن تنظر إليه وهي التي تنظر إلى المعاصي ويقول الشعراني: (سبب تأوه بعض المحبين وشكواهم البعاد جهله بالله عز وجل، ولو أنه عرفه بصفات الكمال والجلال لغار عليه من نفسه أن تنظر إليه بعين فانية تدنس بالمعاصي)^(٢).

كما ينزه صوفينا الله عن أن يراه بشر في الحياة الدنيا فإنه مرأى للمؤمنين بالقلب فقط، ويستنكر الشعراني أن يأنس العبد لأن الأنس لا يكون إلا بالمناسبة ولا مناسبة بين الله تعالى وبين خلقه بوجه من الوجوه، وإنما ما يستشعره الصوفية من الأنس بالله إنما هو من وجود صفة التقرب لا غير، ومن ملاطفة الحق تعالى لهم في حال طاعتهم، له ويقول الشعراني: (قد صرح أشياخ الطريق بأن الأنس بالله تعالى لا يصح لأحد وإنما يأنس الناس لما يجدونه من ملاطفات الحق تعالى في حال طلعتهم له من وجوباً وتقديره صلة التقرب لا غير)^(٣).

(١) كشف الحجاب والران: ص ١٠١.

(٢) المرجع السابق: ص ٣٣.

(٣) المرجع السابق: ص ١٧.

ويؤمن صوفينا إيماناً كاملاً بأن إرادة الله فوق كل إرادة فإنه تعالى يقول للشيء كن فيكون، لا تداني إرادته ومشيتته إرادة ولا مشيئته، فهو تعالى فعال لما يريد وإرادته أزلية لا تتجدد، وثابتة لا تتغير، ويقول الشعراني عن الله: (فعال لما يريد، فهو المريد لجميع الكائنات في الأرضين والسموات، لم تتعلق قدرته بإرادة شيء حتى إرادة، كما إنه تعالى لم يرده حتى عاصه)^(١).

وإذا كان الشعراني يرى أن الصوفي في حال الفناء لا يشهد إلا الله وما عداه من الأكوان يكون بالنسبة له في تلك اللحظة غير مدرك، لأنه فنى عن نفسه وعن جميع ما حوله، غير أن هذا لا يعني عند الشعراني أن العالم الخارجي غير موجود على الحقيقة وأنه لا وجود إلا لله، فهو لا يذهب في تفسير الوجود إلى أن الله هو الموجود الحقيقي، وإن ما سواه من الموجودات عدم محض.

والشعراني يفرق بين نوعين من الوجود:

١- الوجود الأسمى الأزلي الأبدي، وهو وجود الله عز وجل.

٢- ووجود الكون بما فيه من المخلوقات، وهو وجود حادث فان.

ويرى الشعراني إن في إنكار وجود العالم والمخلوقات الحادثة نفياً لوجود الأنبياء والرسل والملائكة ويرى في قول من يقول: ما ثمة وجود إلا لله وما عداه ليس له وجود حقيقي، وإنما هو وجوباً تقديره متوهم، رفض لجميع قواعد الشرع والأحكام التي كلف الله بها عباده إذ يقول الشعراني: (وخاب وخسر والله أولئك البعض الذين يدعون أنهم من أهل الوحدة المطلقة، أن قد رفضوا جميع قواعد الشرع والأحكام. الذي كلف الله بها العباد)^(٢).

ويدعم الشعراني ما ذهب إليه في هذا الصدد برأي الإمام الجنيد في إنكاره على القائلين ما ثمة وجود إلا وجود الله إذ يقول الشعراني: (وإن أبا القاسم الجنيد رضي الله

(١) القواعد الكشفية الموضحة لمعاني الصفات الإلهية: ل ٢٧ و.

(٢) المرجع السابق: ل ٢٦ ظ.

تعالى عنه كان يقول - لو كنت ذا سلطان لضربت عنق من يقول ما ثم إلا الله، لأنه ينفي بذلك أنبياء الله وملائكته وأحكامه ويعطل أحكام الأسماء والصفات^(١).

فالعالم عند الشعراني حقيقة موجودة لا يمكن إغفالها، أوجده الله بإرادة قديمة ويذهب الشعراني إلى أن العالم ليس صادرا عن ذات الحق؛ بل هو خالقه وموجده بمعنى أن الحق تعالى أظهر العالم من مكنون علمه إلى الوجد الظاهر، وإذا صح القول بأن العالم صادر عن ذات الله سبحانه وتعالى، لا تصف العالم بصفات الله، ويقول صوفينا: (ولا يصح أن يقال أن الله تعالى هو مصدر الأشياء ولو أن العالم كان صادرا عن ذات الحق لكان حكمه حكم خالقه)^(٢).

فالشعراني لا يجوز القول بأن العالم صادر عن ذات الله ولكنه يفضل القول لأن الله أوجد العالم.

والشعراني بذلك يخالف محيي الدين بن عربي الذي يفسر وجود الموجودات بالفيض ولا يقول بخلق العالم من العدم - ويعني الفيض عند بن عربي - كما يفسر ذلك الأستاذ الدكتور أبا العلا عفيفي - التجلي الإلهي الدائم الذي لم يزل ولا يزال في الموجودات، وبظهور الحق سبحانه وتعالى في كل وقت فيما لا يحصى عدده من الصور والأشكال^(٣).

كما يختلف بذلك أيضاً عن عمر بن الفارض الذي ذهب إلى أن الذات الإلهية أمدت الأكوان بإمدادات التي تكثرت فيها الذات الإلهية وتنوعت بعد أن كانت واحدة مطلقة أي أن العوالم المختلفة فاضت عن ذات الله^(٤).

وهو بذلك يتفق مع الغزالي ومن تابعه في القول بحدوث العالم من العدم^(٥).

(١) المرجع السابق: ل ٢٦ ظ.

(٢) القواعد الكشفية الموضحة لمعاني الصفات الإلهية: ل ٢٧ و.

(٣) انظر: مقدمة كتاب فصوص الحكم، لابن العربي، د. أبو العلا عفيفي، ص ٢٨.

(٤) انظر: بن الفارض والحب الإلهي، الأستاذ الدكتور مصطفى حلمي، ص ٢٦٢، ٢٩٥، ٣١٣.

(٥) انظر: تهافت الفلاسفة، الغزالي، الطبعة الرابعة، ص ٨٨ - ١٠٠.

ويذهب الشعراني إلى أن الله بعد أن خلق العالم وأوجد الموجودات وأخرجها من العدم، سيرها برعايته وحفظها بعنايته، فله تعالى الخلق والإيجاد، ثم الإبقاء والإمداد، بمعنى أن سبحانه وتعالى أنعم على الموجودات بنعمتين:

(١) نعمة الإيجاد أن أخرج الموجودات من عالم الغيب إلى عالم الشهادة. ومن مكنون علمه إلى الوجود الظاهر.

(٢) ونعمة الإبقاء على هذه الموجودات وتنظيمها وحفظها من العدم إلى أن يشاء الله.

ويقول الشعراني: (استوى تعالى على عرشه، كما قاله وعلى المعنى الذي أراده، كما أن العرش به استوى... وقال: إنا الواحد الحي الذي يؤده حفظ المخلوقات)^(١). وقال أيضاً: (وخلق ما خلق، أنزل الأرواح في الأشباح أمنا وجعل هذه المنزلة إليها الأرواح في الأرض خلفا، وسخر ما في السموات وما في الأرض جميعا، فلا تتحرك ذرة إلا إليه)^(٢).

ونجد مثل هذا المعنى عند محيي الدين بن عربي في قوله (فإن العالم مرتبط بالحق تعالى من حيث استمداده في وجوده منه)^(٣).

كما ذهب إلى مثل هذا التفسير للوجود ابن عطاء الله السكندري في قوله: (نعمتان ما خرج موجود عنهما، ولا بد لكل مكون منهما نعمة الإيجاد، ونعمة الإمداد)^(٤).

وقد استند الشعراني فيما ذهب إليه في تفسير الوجود إلى ما جاء في كتاب الله الكريم في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾^(٥).

(١) القواعد الكشفية الموضحة لمعاني الصفات الإلهية: ل ٢٤ و.

(٢) المرجع السابق: ل ١٤ ظ.

(٣) اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر: ج ١، ص ٣٥.

(٤) ابن عطاء الله السكندري وتصوفه: التفتازاني، الطبعة الأولى، ص ٣٩٠.

(٥) سورة الروم: الآية ٤٠.

وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾^(١). وقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ﴾^(٢).

وبغيرها من الآيات الكريمة التي تتحدث عن الإيجاد والإمداد. ويذهب أستاذنا الدكتور أبو الوفا الغنيمي التفتازاني إلى أن فكرة الإيجاد والإمداد عند ابن عطاء الله تكاد تطابق ما يعرف بنظرية الخلق المستمر Creation Continuée عند الفيلسوفين الفرنسيين ديكارت ومالبرانش^(٣). وقد ذهب أبو الفلاسفة الحديثة إلى أن وجود الله هو الذي يضمن وجود العالم الخارجي، وإن الله الحافظ لكمية الحركة في الكون كله، وأن الفعل الذي بواسطته يحفظ الله العالم هو نفسه الفعل الذي خلقه به^(٤).

ويقول أستاذنا الدكتور التفتازاني: (أما مالبرانش فنجد لديه أيضاً تفسيراً للوجود كهذا الذي رأيناه عند ديكارت وابن عطاء الله، فهو يقول: (إنه إذا كان العالم موجوداً فذلك لأن الله معتمر في إرادة الوجود له، وإن حفظ المخلوقات ومنها الإنسان) هو من جانب الله، ليس سوى خلقها المستمر)^(٥).

ويذهب صوفينا إلى أن المعرفة هي أساس وجود العالم بما فيه من موجودات، فقد خلق الله المخلوقات لتعرفه، بعد أن كان تعالى قائماً بذاته منذ الأزل، وليس هناك من كائن معه، فأراد الله سبحانه وتعالى بإرادة قديمة لم تتجدد أن يكون معروفاً فخلق العالم بما يحتويه من كائنات غير حية كالبحار والجبال والأفلاك وغيرها وحية كالنبات والحيوان والطيور والحشرات والإنسان وغيرها.

فلولا أن أظهر الحق سبحانه وتعالى الخلق، لما عرف. إذ يقول الشعراني: (اعلم أن المقصود عن خلق العالم وظهور بني آدم وبعثه الأنبياء ودعوة الأولياء، معرفة الله

(١) سورة الزمر: الآية ٦٢.

(٢) سورة الشعراء: الآية ١٣٢.

(٣) انظر: ابن عطاء الله السكندري وتصوفه: التفتازاني، الطبعة الثانية، ص ٢٩١.

(٤) انظر ديكارت: د. عثمان يحيى، ص ٣٠٤.

(٥) ابن عطاء الله السكندري وتصوفه: التفتازاني، الطبعة الثانية، ص ٢٩٢.

تعالى والوصول إليه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (٥٦).^(١) لو يعرفون، وفي الحديث القدسي (كنت كنزاً لا أعرف، فأحببت أن أعرف، فخلقت الخلق لأعرف، وتحببت إليهم بالنعم حتى عرفوني). لولا الحق ما وجد الخلق، ولولا الخلق ما عرف الحق^(٢).

وإذا كان الشعراني قد جعل من المعرفة أساساً لظهور العالم وأن الله أراد أن يكون معروفاً فخلق الخلق وبه سبحانه وتعالى، غير أنه ينبه إلى أمر هام وهو أن الحق تعالى غير مفتقر لأن يشهد له البشر بالوجود، وغير مفتقر إلى معرفة الخلق له، فهو تعالى غني عن العاملين، وشهد لنفسه بالوحدانية وهو تعالى غني في وجود صفات من غيره فقد شهد تعالى أن لا إله إلا هو، فهو تعالى ليس بحاجة إلى شهادة المخلوقات وتوحيدهم ومعرفتهم بهم ومن يظن أو يتوهم أن لولا توحيدنا للحق تعالى ما ظهرت وحدانيته فعله يدرك أن الحق تعالى واحد، لا بتوحيد عباده ومخلوقاته، ويقول الشعراني: (ومن يتوهم من أهل الشطح إنه لولا توحيدنا للحق جل وعلا ما فهمت وحدانيته، واستدلوا بحديث (كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف فخلقت الجن فبه عرفوني)، والحق تعالى واحد بنفسه لا بتوحيد موحد، كما في قوله تعالى: (فبه عرفني أي لا بأنفسهم) أي عرفوا أنني واحد بنفسي^(٣)).

(١) سورة الذاريات: الآية ٥٦.

(٢) خلاصة الأخيار: ل ١٣١ و ١١.

(٣) القواعد الكشفية الموضحة لمعاني الصفات الإلهية: ل ٢٧ ظ.

٢ - الصلة بين الله والعالم:

أوضحنا فيما سبق أن الله على العالم بما فيه من كائنات فضل الإيجاد والإمداد فهو موجدوها وحافظها حتى تقوم الساعة.

ويذهب الشعراني إلى أن العالم بما فيه من كائنات مختلفة عارف بالله خاشع له خاشع منه، سواء كانت تلك الكائنات حية أو غير إذ يقول: (فالجماادات عند الكُمَّل عالمة بالله ناطقة به في عالمنا على حسب أفقها وفلكها)^(١).

ولما كانت الكائنات عالمة بالله، فإنها على اختلافها عائدة له ساجدة مسبحة بحمده لكل منها عبادة خاصة بها، ويقول الشعراني: (اعلم أن الجماد والنبات والحيوان أمم مستقلة كل على عبادة مخصوصة، حسب ما تقتضيه حقيقتها)^(٢).

بل أن صوفينا يذهب إلى أن لكل كائن من تلك الكائنات نذير من جنسه ويقول: (ولها - أي الكائنات - نذير من جنسها)^(٣).

ويستند الشعراني فيما ذهب إليه من أن جميع الكائنات عالمة بالله عائدة له إلى قوله تعالى: ﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا نفقهون سُبْحَهُم﴾^(٤). وقال تعالى أيضاً: ﴿لَوْ أَنزَلْنَاهُ الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَشِيعًا مُّتَصِدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾^(٥).

ويرى الشعراني أن العالم كله يغضب لمخالفة الإنسان لله وفي كثير من الأحيان تتصدى الكائنات لعقاب الإنسان ليكون له في ذلك عبرة، ولا يعود لارتكاب المعاصي ويقول الشعراني: (فإذا أذى الإنسان واحد من الأمة الحيوانية أو النباتية أو الجمادية كعضة حيوان، ضربة شجرة، أو كسقوط حجر، فينبغي للمنصف ألا يغضب، ويقسم

(١) فتح الباب ورفع الحجاب: ل ١٣٣ ظ.

(٢) المرجع السابق: ل ١٣٦ ظ.

(٣) المرجع السابق: ل ١٣٦ ظ.

(٤) سورة الإسراء: الآية ٤٤.

(٥) سورة الحشر: الآية ٢١.

ميزان العبد على نفسه، وينظر في تقصيرها فيما كلها الله تعالى ويتوب إليه ويعزم إلا يعود فيزول عنه ذلك الألم^(١).

ويذهب الشعراني إلى أن الله قد أحاط بالعالم علماً قبل إيجاده ثم أوجده على النحو الذي علمه فلم يتجدد له عند إنشاء العالم علم به، بل أنه أوجده على حد ما علمه، وأن الله تعالى يحيط علماً بجميع ما في العالم من كليات وجزئيات فلا تتحرك ذرة إلا إليه وبأمره، إذ يقول الشعراني: (لم يتجدد له علم عند تجدد الإنشاء بعلمه أتقن الأشياء وأحكمها، وبه حكم عليها وحكمها يعلم الكليات والجزئيات على الإطلاق)^(٢). وقد وافق الشعراني الغزالي فيما ذهب إليه في القول بأن ليس في الإمكان أبدع مما كان).

فالشعراني يرى أن الغزالي كان محققاً في قوله هذا، وأنه يعني به ما تم في الوجود إلا رتبتان (قدم، حدوث) فالحق تعالى له رتبة القدم والخلق له رتبة الحدوث، فلا يقال: هل يقدر الحق أن يخلق قديماً مثلاً؟ لأنه سؤال مهملاً لاستحالته^(٣).

ويذهب الشعراني إلى أن الغزالي (قد يعني أيضاً من تلك العبارة أنه ليس في الإمكان شيء يقبل الزيادة والنقص على خلاص ما سبق في العالم أبداً)^(٤).

وما سبق يتضح أن الشعراني يقول بحدوث العالم من العدم بإرادة قديمة وعلم قديم، أوجده على غير مثال سابق وأنعم عليه بنعمة الإبقاء إلى أن يشاء الله وأن العالم كله عارف باله عابد له وأنه لولا الخلق لما عرف الحق، وإن كان سبحانه وتعالى غنياً عن معرفة الخلق به وتوحيدهم له، وما من شيء يخفى عيه سبحانه، فكل حركة في العالم تحدث بإذنه ومشيئته يعلم ما خفى من العالم وما ظهر، وما كبر وما صغر، وما حدث وما سيحدث، وهو قادر على كل شيء.

(١) فتح الباب ورفع الحجاب: ل ١٣٧ و.

(٢) القواعد الكشفية الموضحة لمعاني الصفات الإلهية: ل ١٥ و.

(٣) اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر: ج ١، ص ٣٥.

(٤) المرجع السابق: ص ٣٥.

٣ - الإنسان:

يذهب الشعراني إلى أن الإنسان هو أعظم المخلوقات، فقد خصه الله بأن يحصل الأمانة التي أشفقن منها السموات والأرض، وجعله الله اعلم العلماء فأودع فيه الأسرار العرفانية.

وقد خلق الله الإنسان بيديه الكريمتين، أما غيره من المخلوقات فقد خلقها باليد الواحدة، فخلق الله الملك والجنة وما يتعلق بها بصفة الجمال، وخلق الشياطين والنار وما يتعلق بها بصفة الجلال، أما الإنسان فإنه جمع بين صفتي الجمال والجلال، ويقول الشعراني: (اعلم أن الله خلق الإنسان بيديه الكريمتين وجعله سيد الكل في النشأتين، وخلق ما سواه باليد الواحدة)^(١).

ولما كان الإنسان هو المخلوق الوحيد الذي خصه الله بنور التركيب وجعله جامعاً بين صفتي الجمال والجلال فقد ظهر في بني الإنسان الخير والشر، والطائع والعاصي والمؤمن والكافر، وذلك بموجب تضاد الصفتين الجمال والجلال، فالإنسان عند صوفينا هو الفيضة الجامعة بين المتضادات، والمختلفات من الصفات. وإن جميع عدا الإنسان بما في ذلك الملائكة جعلهم الله على النصف من الحضرة الإلهية، فلا يعرفون التركيب، فقد خلق الله الملائكة وجعل الخير في طبيعتهم، وخلق الله الشياطين وجعل الشر في طبيعتهم، ولكن الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يجمع بين الخير والشر، فقد جعل الله فيه الجمعية العامة والمظهرية التامة وفضله على العالمين، فعلمه الأسماء كلها، وجعله اعلم العلماء.

ويقول الشعراني: (جعل الله الإنسان اعلم العلماء، فالإنسان قبضة جامعة بين الطائع والعاصي، والداني والقاصي، وجميع العوالم على النصف من الحضرة الإلهية بخلاف الإنسان، فإن الرحمن علمه البيان، وفيه الجمعية العامة والمظهرية التامة، وله علم جميع الأسماء، وله الشرف الكلي في الأرض والسماء)^(٢).

(١) فتح الباب ورفع الحجاب: ل ١٣٢ ظ.

(٢) فتح الباب ورفع الحجاب: ل ١٣٣ ظ.

ولا تعني عبارة (المظهرية التامة) عند الشعراني أي معنى من معاني الحلول أو الاتحاد، فهو - كما سبق أن بينا - لا يذهب إلى هذا المذهب، وإنما أن الله يظهر بصفاته فحسب في الإنسان، كالعظمة والصبر والحلم، والرحمة والتكبر، وغيرها من الصفات مع الاختلاف التام والبون الشاسع المسلمين صفات الله وصفات الإنسان، فالشعراني ينزه الله عما يمكن أن يتصوره ذهن الإنسان من خيالات وتصورات، كما ينزه الله تعالى عن أي معنى من معاني الحلول أو الاتحاد، إذ يقول (لا يجوز أن يقال أن الحق تعالى حل فيه، أي الإنسان، ولا أن العبد اتحد به إذ لا حلول ولا اتحاد)^(١).

بل أن الشعراني يذهب أن الفناء الصوفي هو فناء معنوي، بمعنى أن يفنى السالك عن إرادته فتفنى إرادة المريب في إرادة المراد، وأن السالك الذي لا يقول: لا موجود إلا الله، فإنه يعد عند الشعراني من غير الكمّل أي إنه لم يكتمل في الطريق، بل هو شأن المريد "المبتدأ الذي لا يرى غير الله من شدة حبه له تعالى، وانصراف قلبه عما سواه، ولنستمع إلى قول الشعراني في ذلك: (ومن يقول لا موجود إلا الله، فذلك مقام المريد المبتدئ، لأنه من شدة تقشفه في الطريق، وترحل قلبه عن محبة غير الله تعالى، يصير قلبه محجوبا عن شهود الأكوان، كما يقع لصاحب المصيبة إذا مات له ولا أو تلف له حال، فإنه من شدة المصيبة يصير يدخل الدار ويخرج ولا يرى صاحبه الجالس على بابه، فإذا سئل هل رأيت فلان؟ قال لا، فإن قيل له: لقد كان أمامك، قال والله من شدة الهم ما رأيته)^(٢).

والحقيقة الإنسانية - كما يرى صوفينا - هي أول موجود أوجده الله وهو لم تخلق من شيء ولم يسبق لها سبب من الأسباب غير موجدتها، على عكس الجسد فإنه من تراب، ويفتقر في وجوده إلى الأسباب، وقد أوجده الله بعد أن أوجد جميع الكائنات والمخلوقات، وجعله متغيرا فانيا، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ (١٣)

(١) المرجع السابق: ل ١٣٣ ظ.

(٢) فتح الباب ورفع الحجاب: ل ١٣٤ و.

ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا
الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾^(١).

ويقول الشعراني: (اعلم أن الله تعالى بكمال اللطف والجود جعل الحقيقة الإنسانية أول موجود، وهي أم الأشياء كلها، وليست هي من شيء، ولم يسبق لها سبب من الأسباب غير موجدتها، قال تعالى: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾^(٢). بخلاف الجسد الترابي فإنه من أشياء وأسباب موجودة كالعناصر والنطق، فينتقل من شكل إلى شكل، ومن طور إلى طور حتى صار على هذه الصفة)^(٣).

ويذهب الشعراني إلى أن الله خلق الإنسان في أحسن تقويم وكرمه وعظم شأنه، فنقله من عالم الجماد إلى عالم النبات، فجعله ناميا ثم نقله من عالم النبات إلى عالم الحيوان، فجعله حساسا متحركا بالإرادة، وهي نعمة أخرى أعظم من الأولى، ثم جعله ناطقا وفضله على الجماد والنبات والحيوان، وأعطاه بنطقه حقيقة الملك، فدخل بعقله في زمرة الملائكة، ثم وهب الله تعالى الإنسان سر الجمعية العامة الكبريائية التي لا نعمة فوقها، وبهذا السر خلق الله الإنسان في أحسن تقويم. وتشرف الإنسان بأن الله خلق آدم على صورته وهي الأمانة الكبرى المعروضة على السموات والأرض والجبال قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾^(٤)؛ وبهذا كان الإنسان - كما يقول الشعراني - خليفة الأرض في أرضه^(٥).

(١) سورة المؤمنین: الآيات ١٢: ١٤.

(٢) سورة مريم: الآية ٦٧.

(٣) فتح الباب ورفع الحجاب: ل ١٣٦ ظ.

(٤) سورة الأحزاب: الآية ٧٢.

(٥) فتح الباب ورفع الحجاب: ل ١٣٦ ظ.

والإنسان عند الشعراني جامع لخمس حقائق هي: حقيقة الملك، حقيقة الحيوان، حقيقة النبات، حقيقة الجماد والحقيقة الجامعة لهذه الحقائق والإنسان في النهاية تجتمع فيه هذه الحقائق ويصير شيئاً يختلف عنها جميعاً، ويكون ومدة متكاملة تختلف في جوهرها عن جميع تلك الحقائق إذ يقول صوفينا عن الإنسان: (لا يقال إنه أرفع من الجمال، ولا أشرف من الملك، ولا أخط منه فإن الإنسان في طور آخر مفرد يخصه)^(١).

ويذهب الشعراني إلى أن الله سبحانه وتعالى لما جعل آدم وبنيه خليفته في الأرض، ووهب الإنسان سر الجمعية العامة والسيادة التامة، وأمر الملائكة بالسجود له، وسخر له غيره من المخلوقات؛ فإن الإنسان غره هذا الجانب الكبريائي وغلب عليه حسب الرئاسة والسيطرة حتى أنه غفل عن أصل نشأته ونسى ضعفه وبشريته، واحتجب عن عبوديته، فاتبع هواه.

والله سبحانه وتعالى يعلم أن سر الإلهية في الإنسان داء عضال فنبه الإنسان في كتابه العزيز إلى ذلك بقوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ الآية. ويقول الشعراني في هذا الصدد: (نظّر - أي الإنسان - إلى جانب سيادته بكليته، وغفل عن طبيئته، وطلب الرئاسة والتقدم على الكل، واحتجب عن عبوديته فاتبع هواه، واحتجب عن الله، وهو سر قوله وأعوذ بك منك فإن سر الجمعية العامة الكبريائية هو الذي حجبه عن الله)^(٢).

والإنسان عند صوفينا ممكن الوجود ومستمد وجوده من خالقه وله وحده الوجود المطلق، ويسمى الشعراني رتبة الإمكان أو (ممكن الوجود)، بتردد الوجود، أي أن وجود الإنسان متردد بين وجود وعدم كما عبر عنه بأنه مخلوق ويقول: (مرتبة العبد إنه وجود متردد بين وجود وعدم لا يخلص لأحد الطرفين ولذلك سماه أئمة الكلام عندنا ممكناً فلا يعبر عنه بأكثر من مخلوق)^(٣).

(١) المرجع السابق: ل ١٣٦ ظ.

(٢) فتح الباب ورفع الحجاب: ل ١٣٧ ظ.

(٣) كشف الحجاب والران: ص ١٩.

فالإنسان عند صوفينا " موجود " من جهة تعلق علم الحق به منذ الأزل فهو موجود في علم الله مقترنا بالعدم قبل إيجاده وبعد فئائه ويقول الشعراني عن الإنسان: (مخلوق موجود من أحد طرفيه الذي هو تعلق العلم الإلهي به، ومعدوم من الطرف الآخر الذي أشار إليه الحديث بقوله كان الله ولا شيء معه وكان هنا الوجودية لا كان الفعلية ككان ويكون فافهم، فوجود العبد مقترن بالعدم قبل إيجاده وبعد فئائه)^(١).

٤ - العلاقة بين الله والإنسان:

لما كان الإنسان ممكن الوجود، وللحق تعالى الوجود المطلق فإن الإنسان كما يذهب الشعراني مفتقر دائماً إلى خالقه، لا غنى عنه عن الأسباب التي هي من عند الله، ويقول: (الفناء عن الأسباب من خصائص جل وعلا، ولذا قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾^(١).

وقد نظرنا في افتقارنا فوجدنا إنما هو إلى الأسباب... فما استغنينا حينئذ بعين الحق وإنما استغنينا بما هو من الحق^(٢). ومعنى ذلك أن الإنسان، وإن كان الله قد فضله عن العالمين وسخر له ما في السموات وما في الأرض وزينه بالعقل والمعرفة، فلا ينبغي له أن يغتر بذلك فهو دائماً مفتقر إلى الأسباب، التي هي من عند الله، ولا يصح في نظر الشعراني أن يقال يستغنى بالله، ولكن الصحيح أن يقال: أن يستغنى بما هو من عند الله، ويقول: (إن الاستغناء بالله دسيسة للنفس، فهي مثابرة على حصول صفة الغناء لها، ف وقعت في مناعة أوصاف الربوبية من حيث لا تشعر، مع أنها في أعلى طبقات الفقر)^(٣).

فالغنى المطلق عند صوفينا شيء اختص به الله تعالى وحده حتى أن المتصوفة الذين استغنوا بالله عن الأسباب والأكوان فإن الشعراني له فيهم رأي طريف، ولنستمع إليه يقول: (الغنى المطلق شيء اختص به الباري جل وعلا، حتى الذين ادعوا الاستغناء بالله عن الأكوان إذا حققهم وجدتهم استغنوا بما هو من الله لا بذات الله، لأن العبد إذا جاع وقال يا رب أنا جوعان، فأما أن يخلق الله قدرة يتحمل بها الجوع، وأما أن يقول له: كل طعاماً بلسان الشرع)^(٤).

(١) سورة فاطر: الآية ١٥.

(٢) كشف الحجاب والران: ص ٥٩.

(٣) كشف الحجاب والران: ص ٥٩.

(٤) المرجع السابق: ص ١٠١.

ولما كانت حقيقة الإنسان إنه ممكن الوجود أو متردد الوجود فلا يحق له أن يدعى لنفسه وصف الربوبية، ولا يغتر بسر الألوهية، ويقول الشعراني: (فمن اغتر بسر الإلهية ولم يتصف بأوصاف العبودية، لا بد أن يتخلص من داء الدعوى الذي هو داء عضال)^(١).

ويكرر نفس المعنى فيقول ناصحا الإنسان: (كيف لا تعبد ولا تشكر على النعم الكاملة الكثيرة وتغتر بإنسانيتك وجامعيتك لسر الألوهية؟ فإن ذلك موجود في المؤمن والكافر والمطيع والفاجر، والعاقل والقادر، وإنما شرف الإنسان ببذل المجهود في كسب الكمال، فإن العمل الصالح مرقاة عالم الوصال)^(٢).

ومن ذلك يتضح لنا أن الإنسان خليفة الله في الأرض، وأنه متردد الوجود أو ممكن الوجود، وإنه جامع بين الخير والشر وهو المخلوق الوحيد الذي وهبه الله سر الجمعية العامة والسيادة التامة وسخر له ما في الكون.

(١) فتح الباب ورفع الحجاب: ل ١٣٨ ظ.

(٢) المرجع السابق: ل ١٣٤ ظ.

خاتمة البحث

في دراستنا السابقة لسيرة الإمام الشعراني ومصنفاته، وفي تحليلنا لأرائه الصوفية ونظرته إلى الله والعالم والإنسان توصلنا إلى عدة نقاط هامة نؤمى إليها هنا:

أولاً: أن الشعراني يرجع بنسبه إلى السيد محمد ابن الحنفية بن الإمام علي بن أبي طالب، فهو عربي الأصل من قریش، وقد نشأ في بيت يتوارث أهله التصوف أباً عن جد، مما كان له أكبر الأثر في تكوينه وصقله.

ثانياً: أنه سُمي الشعراني والشعراوي نسبة إلى قرية أبيه وهي ساقية أبي شعرة، وأن مسقط رأسه هي قرية قلقشندة، والقريتان مصريتان، وكان مولده عام ٨٩٨ هـ / ١٤٩٠ م.

ثالثاً: انقسم المجتمع في عصره إلى طبقة الحكام المستغلين، وطبقة الشعب الكادح، وظهرت طبقة ثالثة آنذاك، وهي طبقة رجال الدين الذين استطاعوا الوصول إلى قلب الشعب، مما كان له أثره في اعتلائهم مكانة مرموقة في المجتمع الأمر الذي دعا الحكام إلى النظر إليهم بعين الخشية والاحترام، فأصبح رجال الدين هم همزة الوصل بين الشعب والحكام. وكانت الحياة في تلك الأيام تدور برمتها في فلك الدين.

رابعاً: أن التصوف في ذلك العصر لعب دوراً اجتماعياً كبيراً، فانقرض التصوف الفردي القائم على العزلة التامة، وظهر التصوف الجمعي.

وكان الصوفية يشاركون الشعب مشاكلهم الاجتماعية ويعملون على حلها، وقد انتشرت الزوايا انتشاراً واسعاً وابتعد التصوف عن النظريات الفلسفية والشطحات التي كانت سمة العصر السابق على عصر الإمام الشعراني، وترك الاهتمام على الجانب العملي منه.

على أن الناس في ذلك الحين كانوا جاهلين تمام الجهل بقواعد الدين وأصول الشريعة، مما تسبب في انتشار البدع والمظاهر المخالفة لروح الدين ونقاء التصوف الملتزم بالكتاب والسنة.

خامساً: أن الشعراني بدأ حياته صوفيًا، وكان ذلك نتيجة لتأثره بالبيئة التي عاش فيها - وأثر عليها فيما بعد - ويظهر ذلك بوضوح في مصنفاته التي حاول فيها أن يصلح الفساد في مجتمعه من الناحية الأخلاقية.

وكان على إيمان شديد بأن الإصلاح يجب أن يبدأ بالفرد، فاهتم بالإصلاح الداخلي للإنسان، أي بتقويم نفسية الأفراد خلقياً وكبح جماحهم وشهواتهم، ورأى في ذلك سبيلاً إلى تغيير المجتمع، لأن المجتمع مجموعة أفراد، فإذا تغير سلوك الأفراد تغير المجتمع، على أنه يجب ملاحظة أنه لم يكن من هؤلاء الذين كانوا يسعون إلى تغيير السلطة الحاكمة للوصول إلى مركز سياسي، وإنما كان هدفه الأساسي هو إصلاح أخلاق الناس وقيمهم، بهدف الإصلاح ولا شيء غير الإصلاح.

وقد استطاع الإمام الشعراني أن يضع بذور هذا الهدف ليثمر فيما بعد فبنى زاويته التصنيف يجمع فيها الكثير من الناس، وأقاموا بها إقامة كاملة ليكونوا نواة طيبة للمجتمع الصالح الذي يريده ويسعى إليه.

وما زالت ذكرى الشعراني موجودة حتى عصرنا الحاضر متمثلة في جامعته الكبير الواقع في ميدان باب الشعرية بالقاهرة وفي جمعيته المسماة، جمعية الإمام الشعراني بالإسكندرية. وفي (بيت الإمام الشعراني) بالإسكندرية أيضاً.

سادساً: إن إنتاج الشعراني الفكري كان غزيراً ومتنوعاً، وقد انتهينا في بحثنا هذا إلى الوصول إلى واحد وسبعين كتاباً ما بين مخطوط ومطبوع، وقد وقفنا على أغلبها بالفعل والقليل منها ذكره في كتبه ولم نقع عليه، كما انتهينا إلى أنه التزم في جميع ما ذهب إليه من آراء بالكتاب والسنة ولفظ كل ما خرج عليهما، لذلك فإننا نقول بأمانة أن تصوف الشعراني كان تصوفاً سنياً التزم فيه بالكتاب والسنة، وتابع فيه الغزالي وإذا وجد في مصنفاته أمور خارجة على الشرع فإنها غالباً ما تكون مدسوسة عليه وكان له موقفاً واضحاً من الشطحات الصوفية فلم يذهب إلى القول بالحلول أو الاتحاد أو وحدة الوجود أو غيرها.

إن كان الشعراني قد دافع عن أعلام الصوفية كمحيي الدين بن عربي والبسطامي والحلاج وغيرهم عن طريق شرح ما تعنيه كلماتهم من معاني غامضة يصعب على

العامة فهم أبعادها، إلا أنه لا يفضل تلك الألفاظ المغلقة المعنى والتي يلتبس على الجماهير فهمها مما قد يضلّهم، وواجب أن تكون رموز الصوفية وإشاراتهم بعيدة عن العبارات التي يفهم من ظاهرها أنها تبعد بالتصوف عن جوهر الدين.

سابعاً: إن الشعراني ربط بين العلم والدين، فالعلم الخالص في نظره هو ما يجتمع قلب العبد على ربه حال الاشتغال به، وواجب العالم أياً كان مجال علمه أن ينظر في علومه من حيث دلالتها على الله ولا ينظر إليها من حيث موضوعها وقوانينها والنظريات المتعلقة بها فقط حتى لا تكون له حجباً عن الله. فمع تقديره لقيمة العلوم المختلفة دعا لضرورة العمل بها من خلال الإيمان العميق بالله.

ثامناً: إن النفس الإنسانية عند الشعراني هي مصدر الشر الأخلاقي، وأنها قد جُبلت على حب الشهوات والأهواء والخطوة الأولى في طريق الوصول إلى الله هي مجاهدة النفس ورياضتها للتغلب عليها وتغيير صفاتها الذميمة بأخرى حميدة، فالنفس عنده ظالمة جاهلة لا يخرجها من صفة الجهل غير الفقه في الدين، ولا يخرجها من صفة الظلم إلا المجاهدات والرياضات، وقد أفلح من زكاها، أما من فشل في مجاهدة نفسه فلا يصح تصوفه، وإن مذهب إسقاط الإرادة والتدبير للإنسان يأخذ مكانه في مذهب الشعراني الصوفي فهو لا يرى للإنسان قدره مع الله غير أنه في نفس الوقت لا ينكر دور الإنسان الذي من واجبه أن يؤمن بالقدر وإرادة الله في الوقت الذي يعمل من جانبه، ولذلك فرق الشعراني تفرقة واضحة بين التوكل والتواكل.

وكما أن فكرة العناية الإلهية تأخذ مكانها في مذهب الشعراني الصوفي وتظهر بوضوح في حديثه عن المجذوبين الذين اجتباهم الله وقربهم من حضرته من غير سابق اجتهد فتوصلوا إلى معرفته تعالى ثم ساروا بعد ذلك في طريق الرياضة والمجاهدة.

إن نهاية الطريق الصوفي عنده هو التحقق بالمقامات والأحوال الصوفية، وأن أعلى المقامات عنده هو مقام الوصول، وإن الاتصال بالله عنده اتصالاً معنوياً وليس هو الاتصال المعروف بين الذوات، وفي هذا إنكار تام لفكرة وحدة الوجود التي قال بها بعض الصوفية وتنزيه الله سبحانه وتعالى عن المادية.

تاسعاً: إن الشعراني يفسح المجال للمعرفة العقيلة ويقدر دور العقل في الوصول إلى المعرفة بالله عن طريق الاستدلال من آثاره على وجوده، غير أنه يفضل المعرفة الذوقية الوهية على المعرفة الاستدلالية العقلية. وهو أمر طبيعي بالنسبة لطبيعة نشأته وحياته الصوفية.

أن معرفة الله عنده معرفة فطرية ولا تقتصر على الإنسان وحده بل إن جميع المخلوقات تعرف الله حق معرفته بفطرتهم السليمة، وأن جميعهم عابدون له عز وجل. عاشراً: إن الله هو موجد العالم بما فيه من حيوان وجماد، ولذا فعنايته تعالى سارية في كل العالم.

والله موجد للعالم عن لا شيء، فهو مبدع العالم؛ ولذا فرّق الإمام بين الإيجاد والقصد واستعمل التعبير الأول دون الثاني، لأنه رأى في معنى القصد إمكان القول بأن الموجود يتصف بصفات الي يفيض عليه؛ لذا قال أن الله تعالى يوجد العالم وأن العالم لا يفيض عنه.

ويفرق الإمام الشعراني بين وجودين: وجود أزلي أبدي - سرمدى - وهو وجود الله تعالى، ووجود محدث وهو وجود العالم والإنسان.

وبهذا نرى أن الإمام الشعراني لم يترك صغيرة ولا كبيرة إلا وتحدث فيها حديث المسلم الذي يلتزم بالكتاب والسنة، العارف بكل ما حوله، المطلع على ثقافات متعددة. وإذا كنا لم نتعرض لأرائه في شتى المجالات التي ألف فيها، فإن ذلك لأن دراستنا قد اقتصر على جانب واحد من جوانب الإمام المتعددة وهو الجانب الصوفي.

ونرجو الله أن نكون قد استطعنا أن نوفيه بعض حقه، وفوق كل ذي علم عليم.

صدق الله العظيم...

مراجع البحث

القرآن الكريم:

أولاً: مصادر الشعراني المخطوطة

- ١ - إرشاد الطالبين إلى مراتب العلماء العاملين: (٧٩٦) ٣٣٤٣٠ تصوف المكتبة الأزهرية.
- ٢ - الأجوبة المرضية عن أئمة الفقهاء والصوفية: (٢٥) تصوف - دار الكتب.
- ٣ - الأنوار القدسية في معرفة بيان العهود المحمدية: (٦٩٤) تصوف - دار الكتب.
- ٤ - الأنوار القدسية في معرفة آداب العبودية: (١٥) ١٠١٦ تصوف المكتبة الأزهرية.
- ٥ - البحر المورود في الموائيق والعهود: (٨٤١) حليم ٣٣٤٧٥ المكتبة الأزهرية.
- ٦ - تطهير أهل الزوايا من خبائث الطوايا: (٨٥١) حليم ٣٣٤٨٥ المكتبة الأزهرية.
- ٧ - تنبيه المغترين في القرن العاشر على ما خالفوا فيه سلفهم الطاهر: (١) ١٧٥ فقه المكتبة الأزهرية.
- ٨ - جامع الفضائل وقامع الرذائل: (٤٩٢) حليم ٣٣٥٧٦ تصوف المكتبة الأزهرية.
- ٩ - الجواهر والدرر الكبرى: (١٦٤) ٧٩٣٠ تصوف المكتبة الأزهرية.
- ١٠ - الجوهر المصون في كتاب الله المكنون: (٢٠ مجاميع) المكتبة الأزهرية.
- ١١ - الجوهر المصون والسر المرقوم فيما تنتجه الخلوة من الأسرار والعلوم: (٨٥٨) حليم ٣٣٤٩٢ المكتبة الأزهرية.
- ١٢ - حبة المحبة: (٩٤٢) حليم ٣٣٥٧٦ تصوف المكتبة الأزهرية.
- ١٣ - حياة الأرواح ونجاة الأشباح: (٤٩٢) حليم ٣٣٥٧٦ تصوف المكتبة الأزهرية.
- ١٤ - خلاصة الأخبار: (٤٩٢) حليم ٣٣٥٧٦ تصوف المكتبة الأزهرية.
- ١٥ - الدرر السنية على الوصية المتبولة: (٣٠٣) مجاميع ٩٣٣٦ المكتبة الأزهرية.
- ١٦ - الدرر المنثورة في زبدة العلوم المنثورة: (٤١١) مجاميع دار الكتب المصرية.

- ١٧- رياض الصالحين: (٧٩٠) تصوف دار الكتب المصرية.
- ١٨- سر المسير والتزود ليوم المصير: (٢٠) مجاميع دار الكتب المصرية.
- ١٩- الطريقة المحمدية وسيلة للسعادة السرمدية: (٤٩٢) حليم ٣٣٥٧٦ تصوف المكتبة الأزهرية.
- ٢٠- فتح الباب ورفع الحجاب: (٤٩٢) حليم ٣٣٥٧٦ تصوف المكتبة الأزهرية.
- ٢١- الفتح المبين في ذكر شيء عن أسرار الدين: (٧٩٤) تصوف دار الكتب المصرية.
- ٢٢- القواعد الكشفية الموضحة لمعاني الصفات الإلهية: (٨٩٩) حليم ٣٣٥٣٣ علم الكلام المكتبة الأزهرية.
- ٢٣- القول المبين في دليل لبس الخرقه والتلقين: (٧٤١) تصوف دار الكتب المصرية.
- ٢٤- كشف الشبهات: (١٤١١) تصوف دار الكتب المصرية.
- ٢٥- كشف القناع عن وجه السماع: (٩٤٢) حليم ٣٣٥٧٦ تصوف المكتبة الأزهرية.
- ٢٦- الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية: عبد الرؤوف المناوي، (٢٥٩) تاريخ دار الكتب المصرية.
- ٢٧- مدارج السالكين إلى رسوم طريق العارفين: (٩١٧) حليم ٣٣٥١ تصوف المكتبة الأزهرية.
- ٢٨- المريد الصادق مع مريد الخالق: (٨١٠) حليم ٣٣٤٤٤ تصوف المكتبة الأزهرية.
- ٢٩- مفتاح الصلاة ومراقبة النجاة: (٩٤٢) حليم ٣٣٥٧٦ تصوف المكتبة الأزهرية.
- ٣٠- نزهة الأفكار: (١١٥٥) حليم ٣٤٢١١ علم حديث المكتبة الأزهرية.
- ٣١- نصيحة الإخوان: (٢٩) ١٨٥٦ أخلاق دينية المكتبة الأزهرية.

ثانياً: المطبوعات العربية

- ١- ابن عطاء الله السكندري وتصوفه: د. أبو الوفا الغنيمي التفتازاني، الطبعة الثانية، الأنجلو، ١٩٦٩م.
- ٢- ابن الفارض والحب الإلهي: د. محمد مصطفى حلمي، القاهرة، ١٩٤٥م.
- ٣- إحياء علوم الدين: أبو حامد الغزالي، ١٩١٤م.
- ٤- إحياء علوم الدين: أبو حامد الغزالي، ج ١ - ٣ - ٤، ١٩٣٩م.
- ٥- الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد: تحقيق د. محمد يوسف موسى، د. علي عبد المنعم عبد الحميد، ١٥٩٠م.
- ٦- الأطلس التاريخي لأسفل الأرض عن كتاب جغرافية مصر: الأمير عمر طوسون، خرائط الجغرافي للوجه البحري، لوحة رقم ٧ لعام ١٣٧٥م، لوحة رقم ٨ لعام ١٧٩٨م، لوحة رقم ٩ لعام ١٨١٣م، لوحة رقم ١٠ لعام ١٩٣١م.
- ٧- الأعلام: خير الدين الزركلي، الجزء الرابع، الطبعة الثانية، بدون تاريخ.
- ٨- الأنوار في صحبة الأخيار: عبد الوهاب الشعراني، تحقيق د. عبد الرحمن عميرة، الأستاذ طلعت غنيم، تقديم د. عبد الرحمن بيسار، المطابع الأميرية، ١٩٧٣م.
- ٩- اكتفاء القنوع بما هو مطبوع: إدوارد فنديك، تصحيح السيد محمد الببلاوي، الفجالة، ١٨٩٦م.
- ١٠- إيضاح المكنون في الزيل على كشف الظنون: إسماعيل سليم الباباني البغدادي، مطبعة المعارف، ١٩٤٥م.
- ١١- بدائع الزهور في وقائع الدهور: ابن اياس، القاهرة، ١٣٢٣م.
- ١٢- تاريخ آداب اللغة العربية: جورج زيدان، الجزء الثالث، مطبعة الهلال، ١٩٣١م.
- ١٣- تاريخ التصوف الإسلامي: د. قاسم غنيم، ترجمة عن الفارسية صادق نشأت، النهضة المصرية، ١٩٧٢م.

- ١٤- تذكرة أولي الألباب في مناقب سيدي عبد الوهاب: محمد محيي الدين أبي الأنس المليجي، القاهرة، ١٣٥٥هـ.
- ١٥- التصوف الإسلامي في الآداب والأخلاق: د. زكي مبارك، الجزء الأول والثاني، مطبعة الاعتماد، ١٩٣٨م.
- ١٦- تطور الشعور الديني: د. عبد المنعم عبد العزيز المليجي، دار المعارف، ١٩٥٥م.
- ١٧- التعريفات: الجرجاني، القاهرة، ١٢٨٣هـ.
- ١٨- التمهيد: القاضي أبي بكر بن الطيب الباقلاني، عنى بنشره الأب ريتشارد يوسف مكارثي، بيروت، ١٩٥٧م.
- ١٩- التنوير في إسقاط التدبير: ابن عطاء الله السكندري، القاهرة، ١٣٤٥هـ.
- ٢٠- تهافت الفلاسفة: أبو حامد الغزالي، تحقيق د. سليمان دنيا، الطبعة الرابعة، دار المعارف، ١٩٦٦م.
- ٢١- جامع كرامات الأولياء: يوسف بن إسماعيل النبهاني، تحقيق ومراجعة إبراهيم عطوه عوض، الجزء الثاني، م. البابلي، ١٩٦٢م.
- ٢٢- جامع الكرامات العلية في طبقات السادة الشاذلية: حسن بن الحاج محمد الكوهن الفاسي، طبعة أولى، مطبعة العالمية، ١٣٤٧هـ.
- ٢٣- الخطط التوفيقية الجديدة: علي مبارك، الجزء الأول، ج ١٤، القاهرة، ١٣٥٥هـ.
- ٢٤- ديكارت: د. عثمان أمين، الطبعة الخامسة، القاهرة، ١٩٦٥م.
- ٢٥- الرسالة: عبد الكريم القشيري، القاهرة، ١٣٣٠هـ.
- ٢٦- الرهبنة القبطية في مصر (القدّيس أنبا مقار): الأب متى المسكين، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٧٢م.
- ٢٧- رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين: محيي الدين أبي زكريا النووي، مطبعة النهضة، ب.ت.

٢٨- شذرات الذهب في أخبار من ذهب: أبو الفلاح عبد الحي بن العماد، الجزء الثامن، مطبعة القدسي، ١٣٥١هـ.

٢٩- شرح الرندي على الحكم العطائية: الرندي، القاهرة، ١٢٧٨هـ.

٣٠- الشعراني إمام التصوف في عصره: د. توفيق الطويل، مطبعة الحلبي، ١٩٤٥م.

٣١- الشعراني والتصوف الإسلامي: طه عبد الباقي سرور، الطبعة الثانية، مطبعة الخانجي، ب. ت.

٣٢- الطبقات الصغرى: عبد الوهاب الشعراني، تحقيق، عبد القادر أحمد عطا، مطبعة القاهرة، ١٩٧٠م.

٣٣- الطبقات الكبرى: عبد الوهاب الشعراني الجزء الأول والثاني، مطبعة القاهرة، ١٣٤٣هـ.

٣٤- عجائب الآثار في التراجم والأخبار: عبد الرحمن الجبرتي، تحقيق حسن محمد جوهر، عبد الفتاح السرنجاوي، الجزء الأول، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٥٨م.

٣٥- عصر سلاطين الممالك ونتاجه العلمي والأدبي: محمد رزق سليم، القسم الثاني من الجزء الثالث، مطبعة القاهرة، ١٩٦٢م.

٣٦- العقيدة النظامية: أبو المعالي عبد الملك الجويني، تحقيق محمد زاهد الكوثري، مطبعة الأنوار، ١٩٤٨م.

٣٧- علم النفس الفردي أصوله وتطبيقه: د. إسحق رمزي، دار المعارف، ١٩٦١م.

٣٨- عوارف المعارف: شهاب الدين الشَّهْرَوْرْدِي، مطبعة العالمية، ١٩٣٩م.

٣٩- الفتنة الكبرى (١- عثمان): د. طه حسين، دار المعارف، ١٩٤٧م.

٤٠- الفتنة الكبرى (وبنوه): د. طه حسين، دار المعارف، ١٩٥٦م.

٤١- الفتوحات المكية: محيي الدين بن عربي، القاهرة، ١٢٩٣هـ.

٤٢- كشف الحجاب والران: عبد الوهاب الشعراني، مطبعة الحجازي، ١٣٥٧هـ.

٤٣- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون: حاجي خليفة، الجزء الأول والثاني، القاهرة، ١٩٤١م.

- ٤٤- لطائف المنن والأخلاق في بيان وجوب التحدث بنعمة الله على الإطلاق: عبد الوهاب الشعراني، مطبعة القاهرة، ١٣٢١هـ.
- ٤٥- اللمع: أبو ربن السراج الطوسي، تحقيق د. عبد الحليم محمود والأستاذ طه عبد الباقي سرور، مطبعة القاهرة، ١٩٦٠م.
- ٤٦- اللمع في الرد على الزيغ والبدع: أبو الحسن علي بن إسماعيل الشعراني، تحقيق ونشر الأب ريتشارد يوسف مكارثي، بيروت، ١٩٥٢م.
- ٤٧- مبادئ علم النفس العام: د. يوسف مراد، القاهرة، ١٩٥٤م.
- ٤٨- مدارج السالكين بين مناسك إياك نعبد وإياك نستعين: ابن القيم الجوزي، تحقيق محمد رشيد رضا، الطبعة الأولى، ج ١، القاهرة، ١٣٣١هـ.
- ٤٩- المستشرقون: نجيب العقيقي، ج ١ - ٢، دار المعارف، ١٩٦٤م.
- ٥٠- مفتاح الفلاح ومصباح الأرواح: ابن عطاء الله السكندري، القاهرة ١٣٢٢هـ.
- ٥١- مقدمة ابن خلدون: عبد الرحمن بن خلدون المغربي، القاهرة، ١٩٦٦م.
- ٥٢- مقدمة كتاب فصوص الحكم: محيي الدين بن عربي، نشر د. أبو العلا عفيفي، القاهرة، ١٩٤٦م.
- ٥٣- المنن والأخلاق في وجوب التحدث بنعمة الله على الإطلاق: عبد الوهاب الشعراني، مطبعة الميمنية، ١٣٢١هـ.
- ٥٤- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار: تقي الدين المقريزي، الجزء الرابع، مطبعة النيل، ١٣٢٦هـ.
- ٥٥- النور السافر في أخبار القرن العاشر: محيي الدين عبد الباقي، بغداد، ١٩٣٤م.
- ٥٦- هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين: إسماعيل باشا البغدادي، المجلد الأول، إسطنبول، ١٩٥١م.
- ٥٧- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: ابن خلكان، الجزء الأول، القاهرة، ١٢٩٩هـ.
- ٥٨- اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر: عبد الوهاب الشعراني، مطبعة الميمنية، ١٣٠٦هـ.

ثالثاً: الفهارس والمجلات

أ) المجلات:

- ١- لواء الإسلام: العدد السابع، السنة السابعة والعشرون، ربيع الأول، ١٣٩٣هـ، أبريل - مايو، ١٩٧٣م.
- ٢- مجلة منبر الإسلام: العدد الثالث من السنة السابعة والعشرين، ربيع الأول، ١٣٨٩هـ / مايو ١٩٦٩م.
- ٣- جريدة الوقائع المصرية: العدد ٦٤ الصادر في ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م.

ب) الفهارس:

- ١- فهرس اتفاق القنوع بما هو مطبوع، نشر التأليف العربية في المطابع الشرقية والغربية لجامعيه، إدوارد فاندليك، وقد صححه السيد محمد علي البلاوي، مطبعة الفجالة بمصر، ١٨٩٦م.
- ٢- فهرس الخزانة التيمورية: الجزء الثالث، دار الكتب المصرية، ١٩٤٨م.
- ٣- فهرس الفهارس: محمد الحسني الإدريسي الكتاني، طبعة فاس، سنة ١٣٤٦هـ.
- ٤- فهرس الكتب العربية التي نشرت في جمهورية مصر العربية بين عامي ١٩٢٦ - ١٩٤٠م، دراسة بيلوجرافية، إعداد عايذة إبراهيم نصر، ١٩٦٦م (رسالة ماجستير).
- ٥- فهرس المخطوطات بدار الكتب المصرية، الجزء الأول.
- ٦- فهرس المكتبة الأزهرية: الجزء الثالث، مطبعة الأزهر، الكتب الموجودة بالمكتبة الأزهرية إلى سنة ١٣٦٦هـ - ١٩٤٧م، (تصوف، فقه عام)، (آداب وفضائل)، فهرس المكتبة الأزهرية الجزء الثاني (أصول فقه).
- ٧- فهرس المكتبة البلدية (الإلهيات وما يندرج تحتها) بقلم أحمد أبو علي الأمين الوطني، ١٣٧٤هـ/ ١٩٢٨م، شركة المطبوعات المصرية بالإسكندرية.
- ٨- فهرس مخطوطات المسجد الأحمدي بطنطا، إعداد سامي النشار، مطبعة جامعة الإسكندرية، ١٩٦٤م.

- ٩- فهرس المخطوطات المصورة، معهد المخطوطات العربية، الجزء الثاني، لطفي عبد البديع، المطبعة السنية المحمدية، القاهرة، ١٩٥٦ م.
- ١٠- فهرس المطبوعات العربية: وهو شامل لأسماء الكتب والمطبوعات في المشرق والمغرب إلى نهاية سنة ١٣٣٩ هـ / ١٩١٩ م، جمعه ورتبه يوسف البان سريس، الجزء الأول، مطبعة سركيس بمصر، سنة ١٣٤٦ هـ، ١٩٢٨ م.
- ١١- فهرس مكتبة جامعة القاهرة: مكتبة صاحب السمو إبراهيم حلمي (القسم الشرقي)، مطبعة بول باريه، سنة ١٩٣٦ م.

رابعاً: المعاجم

- ١- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن، ترتيب محمد فؤاد عبد الباقي، دار مطابع الشعب، ١٣٦٤ هـ / ١٩٤٥ م.
- ٢- المنجد في الآداب والعلوم: معجم لإعلام الشرق والغرب، طبعة بيروت، ب. ت.

خامساً: المطبوعات الأجنبية

- ١- تذكرة الأولياء: فريد الدين العطار، باللغة الفارسية، ب. ت.
- ٢- Development of Muslim Theology, Juris prudence and constitutional theory by: Duncan. B. Macdonald. New York, ١٩٠٣.
- ٣- Geschichte Der Arabischen literature. S.I. (Supplementband) Von: Brocklemand. Leiden – E. J. Brill, ١٩٣٨.
- ٤- A History of Egypt in Middle ages, by Stanley lane (Poole), London, ١٩٠١.
- ٥- Encyclopaedia of Islam, Vol. ٤, a treatise by: Schacht.
- ٦- Encyclopaedia of Religion and Ethics Vol II an Essay by: Nicholson.
- ٧- A Literary history of the Arabs by / Bicholson Cambridge, ١٩٥٨.

فهرس

٥ شكر وتقدير

٧ مقدمة

١٢ الباب الأول سيرة الشعراني ومصنفاته

١٣ الفصل الأول: سيرة الشعراني

١٥ الفصل الأول: سيرة الشعراني

١٥ اسمه:

١٧ كنيته ونسبته:

١٩ تاريخ مولده:

٢٠ مكان مولده:

٢١ بيئته الخاصة:

٢١ نسبه وأسرته

٢٥ بيئة الشعراني العامة:

٢٥ ١- أحوال مصر في ظل حكم المماليك:

٢٦ ٢- مصر تحت الحكم العثماني:

٢٧ أما من الناحية الاقتصادية:

٢٨ الناحية الزراعية:

٢٨ أما من الناحية الصناعية:

٢٩ أحوال من الناحية الاجتماعية:

٣٠ أحوال مصر من الناحية العلمية:

٣١ الناحية الدينية:

٣٣ الزوايا والخوانق والربط:

٣٧ **أطوار حياة الشراني:**

٣٨ أ) النشأة الأولى:

٣٨ تلقيه العلم على يد أبيه ثم أخيه:

٣٩ تكفل خضر بالشراني بعد وفاة والده:

٤٢ **الطور الثاني: انتقال الشراني إلى القاهرة وإقامته بجامع الغمري**

٤٦ تلقيه العلم وثقافته:

٤٩ مجاهدة نفسه بغير شيخ:

٥٢ مشايخه:

٥٣ سلوك الشراني الطريق على يد الخواص:

٥٥ خصائص تصوف الشعراني:

٦٠ الطور الثالث: الشعراني في مدرسة أم خوند:

٦٢ علاقة الشعراني بالحكام:

٦٦ الطور الرابع والأخير من حياة الشعراني: الشعراني في زاويته

٦٦ أصل إنشاء زاوية الشعراني:

٦٨ الحياة في مدرسة الشعراني:

٧٠ خصوم الشعراني:

٧٣ وفاته:

٧٣ جنازته:

٧٤ قبره:

٧٥ حال الزاوية من بعده:

٧٨ أثر الشعراني في الحياة الاجتماعية والدينية:

٨٠ مكانة الشعراني:

٨٥ الفصل الثاني مصنفات الشعراني

٨٦ الفصل الثاني مصنفات الشعراني

٨٦ تمهيد:

- ٩١ التصنيف الأبجدي لمؤلفات الشعراني:
- ٩٥ التصنيف حسب الموضوع:
- ٩٥ تمهيد:
- ٩٥ أولاً: مصنفات الشعراني في التصوف
- ١٢٢ ثانياً: مصنفات الشعراني في الفقه
- ١٢٩ ثالثاً: مصنفات الشعراني في أصول الفقه
- ١٣١ رابعاً: مصنفات الشعراني في الأخلاق الدينية:
- ١٣٧ خامساً: مصنفات الشعراني في علم الكلام
- ١٤٣ سادساً: مصنفات الشعراني في النحو
- ١٤٤ سابعاً: مصنفات الشعراني في علم الحديث:
- ١٤٦ ثامناً: مصنفات الشعراني في علم التاريخ
- ١٤٨ تاسعاً: مصنفات الشعراني في الطب
- ١٤٩ مصنفات غير محددة الموضوع:
- ١٥٠ التصنيف الزمني لمصنفات الشعراني:
- ١٥٠ مصنفات محددة التاريخ:
- ١٥١ مصنفات مؤرخة على سبيل الترجيح:

١٥٢ ما تعذر تحديد تاريخه من المصنفات:

١٥٤ تعقيب على المصنفات:

١٥٤ تقييم الكتاب والمستشرقين لمصنفات الشعراني:

١٥٨ الباب الثاني: آراء الشعراني في التصوف

١٥٩ تمهيد

١٦٠ الفصل الأول: النفس الإنسانية

١٦١ تمهيد

١٦١ التفرقة بين النفس والروح:

١٦٣ تعريف النفس الإنسانية وطبيعتها:

١٦٧ العلاقة بين النفس والبدن:

١٦٩ اهتمام الشعراني بالنفس:

١٧١ الفصل الثاني: مجاهدة النفس

١٧٢ ١- معنى المجاهدة:

١٧٤ ٢- العبادات ومجاهدة النفس:

١٧٦ ٣- ضرورة إشراف الشيخ على المريد في المجاهدة:

١٨٠ ٤- رياضة النفس:

١٨٥	٥- العزلة والخلوة:
١٩٢	٦- الصوم:
١٩٤	٧- السهر:
١٩٥	٨- الصمت:
١٩٦	٩- الذكر:
٢٠٤	١٠- السماع:

٢١١ الفصل الثالث: المقامات والأحوال

٢١٢	١- ماهية المقامات والأحوال:
٢١٤	٢- المقامات:
٢١٤	١- مقام التوبة:
٢١٦	٢- مقام الورع:
٢١٩	٣- مقام الزهد:
٢٢٢	٤- مقام المراقبة:
٢٢٣	٥- مقام الصدق:
٢٢٥	٦- مقام التوكل:
٢٣٠	٧- مقام الإخلاص:

٢٣٢ ٨- مقام المحبة:

٢٣٦ ٩- مقام الإحسان:

٢٣٨ ١٠- مقام التجريد:

٢٤٠ ١١- مقام الاتصال:

٢٤٢ ٣- الأحوال:

٢٤٣ ١- واردات الأحوال:

٢٤٥ ٢- حال القرب:

٢٤٦ ٣- حال اليقين:

٢٤٧ ٤- الفناء والبقاء:

٢٥١ الفصل الرابع: المعرفة

٢٥٢ المعرفة:

٢٥٢ ١- تمهيد:

٢٥٢ ٢- حد المعرفة وموضوعها:

٢٥٢ ٣- فطرية المعرفة بالله:

٢٥٥ ٤- وسائل المعرفة:

٢٥٨ القلب وسيلة الصوفي لمعرفة الله:

٢٦٠ ٥- مناهج المعرفة:

٢٦٣ ٦- السالكون والمجذوبون:

٢٦٩ الفصل الخامس : الله والعالم والإنسان

٢٧٠ الله والعالم والإنسان

٢٧٠ ١- الله والعالم:

٢٧٧ ٢- الصلة بين الله والعالم:

٢٧٩ ٣- الإنسان:

٢٨٤ ٤- العلاقة بين الله والإنسان:

٢٨٦ خاتمة البحث

٢٩٠ مراجع البحث

٢٩٨ الفهرس

مَبْرُكٌ خَيْرٌكَ اللَّهُ